جوزيف سميث فليتشر

أموال الموتى

ترجمة محمد يحيى



أموال الموتى

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
محمد حامد درويش



أموال الموتى

جوزيف سميث فليتشر

Dead Men's Money

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٦٠٧ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الفصل الأول

الرجل ذو العين الواحدة

وقعت بداية هذه القضية، التي ورطتني، دون أن أدري، في أفحشِ إجرامٍ وشرٍّ سمِع بهما بشَرٌ، بالطبع، مساء يومٍ ربيعي، منذ عشْر سنوات، عندما نظرتُ من نافذة الرَّدهة الأمامية في بيت والدتي بالشارع الرئيسي في بلدة بيرويك أبون تويد ورأيتُ رجلًا يقف أمام المنزل مباشرةً، ويضع رقعةً سوداء على عينه اليسرى، وقد ألقى على كتفَيه، بلا اعتناءٍ، وشاحًا اسكتلنديًّا صوفيًّا قديمًا، وفي يده اليُمنى عصًا غليظة وحقيبة سفر قديمة الطِّراز مصنوعةٌ من قماش الأبسطة. لمحني بينما كنتُ أنظر نحوه، فتحرَّك، واتَّجه على الفور نحو باب منزلنا. لو كنتُ أمتلك القدرة على رؤيةِ أكثرَ مما هو واضح واستشراف المستقبل، لكنتُ حتمًا سأرى السرقة، والقتل، والشيطان ذاته يُرافقه عن كثبٍ وهو يعبُر الرصيف. لكن كما كان الحال، لم أرَ فيه شيئًا سوى أنه كان غريبًا، ففتحتُ النافذةَ وسألتُ الرجلَ عمَّا يريد.

فأجاب: «غرفة مفروشة للإيجار!» وهو يُشير بإبهام غليظة نحو ورقةٍ علَّقتها والدتي في ذلك اليوم على النافذة الصغيرة التي تعلو الباب. ثم تابع: «غرفة مفروشة للإيجار! لديك غرفة لتؤجِّرها لرجلٍ بمفرده. أنا رجلٌ بمفردي، وأريد غرفة. لمدة شهر … وربما أكثر. لا يُهمني سعرها. وأؤكد على مراعاة الاحترام التام … من جانبي. احتياجاتي قليلة ومُتطلباتي متواضعة. من المُستبعَد أن أسبِّب مشكلات. افتحِ الباب!»

مضيتُ في الممرِّ وفتحت له الباب. فدخل، دون أن ينطِق بكلمة، ودون أن ينتظر أن أدعوَه للدخول، وهو يتمايل بشدة — فقد كان رجلًا ضخمًا، ثقيل الحركة — إلى الرَّدهة، حيث وضع حقيبته، ووشاحه، وعصاه، ثم هوى على كرسيٍّ مُريح، وأطلق أنَّةً وهو ينظر إليَّ.

«وما اسمك؟» سألني، كما لو كان لديه الحق في أن يدخل منازلَ الناس ويطرح أسئلته. ثم تابع: «أيًّا كان اسمك، أنت شابٌّ يمكن الاعتماد عليه!»

أجبت، وأنا أظن أنه لا ضررَ من مجاراته: «اسمي هيو مونيلوز.» ثم تابعت: «إن كنتَ تريد أن تعرف معلوماتٍ عن الغرفة يجب أن تنتظر حتى تأتي والدتي. إنها الآن خارج المنزل؛ وستعود بعد قليل.»

أجاب: «لستُ في عجلةٍ من أمري يا ولدي.» «لا شيءَ على الإطلاق. فهذا مُستقَر مريح. وهادئ. والدتك أرملة، أليس كذلك؟»

قلتُ باقتضاب: «أجل.»

سأل: «هل لديك ... إخوة وأخوات؟» ثم تابع: «أقصد، بالطبع، أي أطفال صغار في المنزل؟ لأن الأطفال الصغار هم ما لا يُمكنني تحمُّله ... إلا من بعيد.»

قلت: «لا أحد إلا أنا وأمي، وخادمة.» ثم تابعت: «هذا منزل هادئ بما فيه الكفاية، إن كان هذا ما تعنيه.»

قال: «هادئ هي الكلمة المناسبة.» ثم أضاف: «غرفة لطيفة، وهادئة، ومحترمة. في بلدة بيرويك هذه. لمدة شهر. إن لم يكن أكثر. كما قلت، مُستقَر مريح. والوقت، أيضًا! — عندما ترى العديد من الأماكن الغريبة مثلما رأيتُ أنا اليوم، أيها الشاب، ستعرف أن السلام والهدوء بمثابةِ اللحم والشراب لرجلٍ مُسنٍّ.»

استرعى انتباهي، بينما كنتُ أنظر إليه، أنه كان بالضبط من ذلك النوع من الرجال الذي تتوقَّع أن تسمع أنه ذهب إلى أماكنَ غريبة ... رجل ذو جلدٍ مُتغضِّن وغير حليق الذقن، مع الكثير من الندبات والتجاعيد في وجهه والأجزاء الظاهرة من رقبته، والكثير من الشعر الأشيب، وعين، واحدة فقط مرئية، تبدو كما لو أنها حذرةٌ ومُترقِّبة منذ ولادته. كان رجلًا يتمتَّع بقوة كبيرة واضحة وعضلات قوية، ويداه، اللتان كانتا مُتشابكتَين أمامه وهو جالس يتحدَّث معي، كانتا كبيرتَين بما يكفي لأن تُحيطا برقبةِ رجلٍ آخر، أو لأن تُسقِطا ثورًا صغيرًا. أما عن بقية مظهره، فكان يضع قرطَين ذهبيَّين في أُذنيه، ويلبس سلسلةً ذهبيةً كبيرة وثقيلة، تظهر عبر الصدرية التي كان يرتديها، كما كان يرتدي بدلةً جديدة من صوف السيرج الأزرق، قياسها كبير إلى حدٍّ ما عليه، مما يشير إلى أنه قد اشتراها من متجرٍ لبيع الملابس الجاهزة، من وقتٍ ليس ببعيد.

دخلت والدتي بهدوء قبل أن أتمكَّن من الرد على ملاحظة الغريب الأخيرة، وأدركتُ على الفور أنه رجلٌ يتحلَّى ببعض الأدب والأخلاق، لأنه نهض من كُرسيه وانحنى، بطريقةٍ تقليدية، لتحية والدتي. ودون أن ينتظرني، أطلق لسانه في التحدُّث معها.

وقال: «خادمك، يا سيدتي.» ثم تابع: «أنت سيدة المنزل؛ السيدة مونيلوز. لقد كنتُ أبحث عن غرفة يا سيدة مونيلوز، ورأيت إعلانك فوق نافذة الباب، ووجه ابنك عند النافذة،

فدخلت. ما أريده هو غرفة لطيفة، هادئة لبضعة أسابيع، مع القليل من الطهي البسيط ... بلا مُبالغة. أما المال، فليس مشكلة! اطلُبي الأجر الذي تُريدين، وسأدفع مقدمًا، قبل أن أسكن، المبلغ المناسب مهما كان.»

ابتسمت والدتي، التي كانت امرأةً ذكيةً صغيرة الحجم، خبرت الكثيرَ منذ وفاة والدي، ابتسامةً خفيفة وهي تنظُر إلى المستأجِر المُحتمَل من أعلى لأسفل.

وقالت: «عجبًا، يا سيدي.» وتابعت: «أودُّ أن أعرف مَن الذي أستقبله في منزلي. وأنت غريب عن البلدة، حسبما أظن.»

أجاب: «لقد مرَّت خمسون عامًا منذ آخر مرةٍ كنتُ فيها هنا يا سيدتي.» ثم تابع: «وكنت آنذاك صبيًّا لا يزيد عمره عن اثني عشر عامًا أو نحو ذلك. ولكن بشأن هويتي وعملي، فاسمي هو جيمس جيلفرثويت. قبطان سابق لسفينةٍ من أروع السفن التي أبحرَ بها بشر. وأنا رجل هادئ، ومُحترم. لا أتفوَّه بألفاظٍ نابية. ولا أُعاقر الخمر — إلا باعتدال. وكما قلت، المال لا يُمثِّل لي أيَّ مشكلة، ويُمكنني دفعه عند طلبه. انظري هنا!»

أدخل إحدى يدَيه الكبيرتَين في جيب بنطاله، وأخرجها مُمتلئةً بعملات ذهبية. وفتح أصابعه ومدَّ كفًّا مملوءة بالذهب نحونا. كنا فقراء آنذاك، وكان مشهدًا غريبًا علينا أن نرى كل هذا المال في يد الرجل، وبدا أنه كان يعتبره كومةً من عملات الستة بنسات لا أكثر.

وصاح قائلًا: «تفضَّلي وخُذي أيَّ مبلغٍ يكفي لإيجار شهر.» ثم أضاف: «ولا تخشَي شيئًا؛ فلديَّ المزيد من المال.»

لكن والدتي ضحكت، وأشارت إليه أن يُعيد ماله إلى جيبه.

قالت: «كلَّا، كلَّا، يا سيدي!» ثم أضافت: «لا داعي لذلك. وكلُّ ما أطلبه منك هو فقط معرفة هوية مَن أستقبله. هل ستُمارس أيَّ عملٍ في المدينة لفترةٍ من الوقت؟»

أجاب: «ليس عملًا بالمعنى المعتاد، يا سيدتي.» وتابع قائلًا: «ولكن لديَّ أقاربُ يرقدون في أكثرَ من مقبرةٍ بالقُرب من هنا، وأنا مُهتم بأن أُلقي نظرة على مقابرهم، تُدركين ما أعني، وأن أتجوَّل في الأحياء القديمة التي كانوا يعيشون فيها. وبينما أفعل ذلك، أريد أن أستأجر غرفةً هادئة، ومحترمة، ومريحة.»

أدركتُ أن العاطفة في خطابه قد أثَّرت في والدتي، التي كانت هي نفسها مولَعة بزيارة المقابر، والتفتت إلى السيد جيمس جيلفرثويت بإيماءةِ إذعان.

وسألته: «حسنًا، الآن، ما الذي قد تُريده في طريقة الإقامة؟» وبدأت تُخبره أنه يمكنه الحصول على غرفة المعيشة تلك التي كانا يتحدَّثان فيها، وغرفة النوم التي تعلوها مباشرةً.

تركتهما يرتِّبان شئونهما، وذهبت إلى غرفةٍ أخرى لأعتني ببعض شئوني، وبعد فترة أتت أمي إليَّ. وقالت: «لقد أجَّرتُ له الغرفتَين، يا هيو»، بنبرةِ ارتياحٍ في صوتها دلَّتني على أن الرجل الضخم سيدفع إيجارًا جيدًا. وتابعت: «إن مظهره يُوحي بأنه رجل فظ، لكنه يبدو هادئًا ومتحضرًا في حديثه. وهذه تذكرة لصندوقٍ يخصُّه تركَه في محطة السكة الحديد، وهو مُتعَب، هل يمكنك أن تجعل شخصًا ما يجلبه من أجله؟»

ذهبت إلى رجلٍ يعيش على مقربةٍ منَّا لديه عربة يدٍ خفيفة، وأرسلته إلى المحطة ومعه تذكرة الصندوق؛ فعاد به بعد فترةٍ قصيرة، وتعيَّن عليَّ مساعدته في حمله إلى غرفة السيد جيلفرثويت. ولم أكن قد رأيت أو لمست صندوقًا مثل هذا من قبل، وكذلك الرجل الذي جلبه، أيضًا. كان مصنوعًا من نوعٍ من الخشب الصلب والداكن للغاية، ومُثبَّتًا من جميع الزوايا بالنحاس، وتحته زوج من القضبان الحديدية، وعلى الرغم من أنه لم يكن يزيد عن قدمَين مُربَّعين ونصف، إلا أنه استغرق منَّا وقتًا طويلًا في رفعه. وعندما وضعناه، بناءً على أوامر السيد جيلفرثويت، على حاملٍ قوي بجانب سريره، ظل هناك حتى … ولكن أن أقول حتى متى سيُصبح سابقًا لأوانه.

بعد أن استقرَّ في منزلنا، أثبت المُستأجِر الجديد صحة كلِّ ما قاله عن نفسه. كان بالفعل رجلًا هادئًا، محترمًا، رصينًا، لا يُسبِّب أيَّ مشكلاتٍ ويُسدِّد إيجاره دون سؤالٍ أو همهمةٍ كل صباح يوم سبت وقت إفطاره. مرَّت كلُّ أيامه بنفس الطريقة تقريبًا. كان يخرج بعد الإفطار؛ وقد تراه على الرصيف، أو على أسوار البلدة القديمة، أو يتمشَّى عبر بوردر بريدج؛ وسمِعْنا بين الحين والآخر عن رحلاته الطويلة إلى الريف، على إحدى ضفتَي نهر تويد أو الأخرى. كان يتناول عشاءه في المساء؛ إذ كان قد أجرى ترتيبًا خاصًّا مع والدتي لهذا الغرض، وكم كان مُحبًّا للطعام، ومولعًا بالأشياء الجيدة، التي قدَّمها لنفسه بسخاء؛ وعندما تنتهي تلك الفترة من أحداث اليوم، كان يقضي ساعةً أو ساعتَين في قراءة الصحف، التي كان قارئًا رائعًا لها، بصحبة سيجاره وكأسه. وأنا أشهد له أنه من البداية إلى النهاية لم يصدُر عنه أيُّ شيءٍ قط، وكان دائمًا مهذَّبًا ومتحضرًا، ولم يأتِ يومَ سبتٍ لم يمنح فيه الخادمة رُبع جنيهٍ لشراء هدية لنفسها.

ومع ذلك — قُلنا هذا لأنفسنا لاحقًا، ولكن ليس في البداية — كان ثمَّة جوٌّ من الغموض يحيط بالسيد جيلفرثويت. لم يكن لديه أيُّ معارف في المدينة. ولم يشاهده أحدٌ يُجرِي محادثةً ولو قصيرة مع أيٍّ من الرجال الذين يتسكعون عند رصيف الميناء، أو عند أسوار

البلدة، أو بجانب السفن. ولم يذهب إلى الحانات قط، ولم يجلب أحدًا للشرب والتدخين معه. وحتى الأيام الأخيرة من إقامته معنا لم يكن قد تلقَّى أيَّ خطابات.

ثم جاء خطاب وكذلك جاءت معه نهاية الأمور. كانت إقامته قد طالت لتتجاوز فترةَ الشهر الذي كان قد تحدَّث عنه في البداية. وفي الأسبوع السابع منذ مجيئه، عاد إلى المنزل لتناوُل العشاء في إحدى أمسيات شهر يونيو، واشتكى لوالدتي من تعرُّضه للبلل الشديد في عاصفةٍ مفاجئة كانت قد هبَّت بعد ظهر ذلك اليوم بينما كان يتجوَّل في الريف، وفي صباح اليوم التالي لازم فراشه يُعاني ألمًا شديدًا في صدره، ولم يكن قادرًا على الكلام بشكلٍ جيد. فأبقته والدتي في فراشه وبدأت في معالجته؛ وفي ذلك اليوم، قُرب الظهيرة، جاءه الخِطاب الأول والوحيد الذي وصلَه أثناء وجوده معنا؛ خطاب جاء في مظروفٍ مُسجل. صعدت به الخادمة إليه بعد توصيله، وقالت لاحقًا إنه انتفض قليلًا عندما رآه. لكنه لم يقُل شيئًا عنه لوالدتي خلال فترةٍ ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، ولا لي في الواقع، خاصةً، عندما، أرسل في طلبي، في وقتٍ لاحق لأصعد إلى غرفته. على الرغم من ذلك، إذ كنت قد سمعتُ بأنه تلقَّى خطابًا، كنت متأكدًا من أنه كان لهذا السبب، عندما دخلت غرفته، وأشار لي أنْ أُغلِق الباب علينا ثم أجلس بجانبه وهو مُستلقٍ مستندٌ على وسادته.

همس بصوتٍ أجشَّ: «إنه أمرٌ خاص يا ولدي!» ثم أضاف: «أريد أن أتحدَّث معك على انفراد!»

الفصل الثاني

مهمة مُنتصف الليل

قبل أن يتفوَّه بكلمة أخرى، عرفتُ أن السيد جيلفرثويت كان مريضًا جدًّا، على نحوٍ أسوأ بكثير، حسبما تصوَّرت، من أيِّ فكرةٍ كانت لدى والدتي. كان واضحًا أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة، وتضخَّمت العروق في صدغه وجبهته، لتُصبح كبيرةً وسوداء، مع المجهود الذي بذله في الحديث. وأشار إليَّ أن أُناوله زجاجةَ دواءٍ كان قد أرسل في طلبها من الصيدلية، وأخذ جرعةً من محتوياتها من عُنق الزجاجة قبل أن يتكلم مرةً أخرى. ثم أشار إلى كرسيٍّ بجانب رأس السرير، بالقُرب من وسادته.

قال، بعد أن أصبح قادرًا على التنفُّس بسهولةٍ أكثر قليلًا: «رئتي!» وتابع: «سيئة للغاية! أمر غريب، أن أكون رجلًا قويًّا هكذا، لكن رئتي كانت حسَّاسة بتلك الطريقة دومًا، منذ أن كنتُ طفلًا، وفيما عدا ذلك فأنا قوي مثل الثور. ولكن حديثي معك الآن حول أمرٍ خاص. انظر هنا، أنتَ كاتبُ محامٍ، أليس كذلك؟

كان يعلم ذلك، بالطبع، منذ فترة؛ يعلم أنني كنتُ كاتبًا في أحد مكاتب المحاماة بالبلدة، وأنني كنتُ آمُل أن أُتقن عملي، وبعد فترةٍ مناسبة أُصبِح محاميًا. لذلك لم أكن بحاجةٍ إلى أن أفعل أكثرَ من الإيماء بالإيجاب في صمت.

وتابع: «ولَمَّا كان الأمر كذلك، ستكون مؤهَّلًا جدًّا لكتمانِ سِر. هل يُمكنك كتمانُ سرٍّ من أجلي، الآن؟»

كان قد مدَّ إحدى يدَيه الكبيرتَين أثناء حديثه، وأمسك معصمي بها، وعلى الرغم من مرضه، كانت قبضة أصابعه قويةً كالفولاذ، ومع ذلك أدركتُ أنه لم يكن لدَيه أيُّ فكرة أنه كان يفعل أكثرَ من وضْع يدِه عليَّ باستعطافِ رجلٍ مريض.

أجبتُه: «الأمر يعتمد على ماهيته، يا سيد جيلفرثويت.» ثم تابعت: «سأودُّ أن أفعل أيَّ شيءٍ يُمكنني فعله من أجلك.»

قاطعني بحدة: «لن تفعل ذلك بلا مُقابل.» وأضاف: «سأجعل الأمر يستحقُّ عناءك جيدًا. انظر هنا!»

أفلت معصمي، ووضع يده تحت وسادته، وسحب ورقةً نقدية، وفردَها أمامي.

قال: «عشرة جنيهات!» ثم تابع: «إنها لك، إذا أدَّيت مهمةً صغيرة من أجلي، في سرِّيةٍ تامة. عشرة جنيهات ستكون مفيدةً لك. ما رأيك، الآن؟»

قلت: «الأمر على ماهيته، سأكون سعيدًا بعشرة جنيهات شأن أيِّ شخصٍ آخر، لكن يجب أن أعرف أولًا ما الذي تتوقَّع منِّي فعْله مقابلها.»

أجاب: «إنه أمر سهل للغاية.» وتابع: «كلُّ ما في الأمر أنه يجب فعله هذه الليلة تحديدًا، وأنا راقِد هنا، ولا يُمكنني فعله. وأنت يمكنك فعله، دون التعرُّض لأيِّ خطر، وببذل جهدٍ بسيط؛ بشرط، أنه يجب فعله في سرِّية تامة.»

سألته: «هل تُريد منِّي أن أفعل شيئًا يجب ألا يعرف أحدٌ عنه شيئًا؟»

قال: «بالضبط.» وأضاف: «لا أحد! ولا حتى والدتك؛ لأنه حتى أفضل النساء لا يستطِعن التحكُّم في ألسنتهن.»

تردَّدتُ قليلًا؛ إذ ارتبتُ من أن الأمر قد ينطوي على أكثر ممَّا رأيتُه أو فهمته حينئذٍ.

قلتُ بعد برهة: «سأعدك بما يلي يا سيد جيلفرثويت.» ثم تابعت: «إذا أخبرتني الآن بما تريد، فسأكتم هذا السِّرَّ إلى الأبد. أما إن كنتُ سأفعل الأمر أم لا فهذا يتوقَّف على طبيعةِ ما ستقول.»

أجاب، مع ضحكةٍ خافتة: «أحسنت القول، يا فتى!» ثم تابع: «إن لدَيك مقوماتِ محامٍ جيد، على أي حال. حسنًا، الآن، إن الأمر هو … هل تعرف هذا الحيَّ جيدًا؟»

قلت: «لم أعرف غيرَه مُطلقًا.»

فسأل: «هل تعرف موضع التقاء نهر تيل مع نهر تويد؟»

أجبت: «مثلما أعرف باب أُمي!»

سأل مرةً أخرى: «هل تعرف أين يقع ذلك المبنى العتيق — ماذا يسمونه؟ — الكنيسة، الصومعة، شيء من هذا القبيل؟»

أجبته: «أجل! أعرفه جيدًا يا سيد جيلفرثويت.» وأضفت: «منذ أن كنتُ طفلًا صغيرًا أرتدي البنطال القصير!»

قال: «حسنًا، لو كنتُ بكامل عافيتي، كان يجب أن أُقابل رجلًا آخر بالقُرب من هناك هذه الليلة. ولكن — ها أنا ذا!»

سألت: «هل تُريدني أن أُقابل ذلك الرجل الآخر؟»

أجاب، بنظرة سريعة: «أنا أعرض عليك عشرة جنيهات إن شئت.» ثم أضاف: «أجل، هذا ما أريده!»

سألت: «لفعلِ ماذا؟»

قال: «أمر بسيط للغاية.» وتابع: «لا شيء أكثر من مقابلته، لإعطائه كلمةً تثبتُ ما يُسمُّونه حُسن نواياك، ورسالة شفهية منِّي سأجعلك تحفظها عن ظهر قلبٍ قبل أن تذهب. لا أكثر!»

سألت: «ألا ينطوي الأمر على أيِّ مخاطر؟»

قال مؤكدًا: «ولا ذرة خطر!» وتابع: «أقل بكثيرٍ مما تجده في تقديمِ عريضةِ دعوى للمحكمة.»

علَّقت، وأنا لا أزال أشعر ببعض الشك: «ومع ذلك يبدو أنك تميل إلى أن تدفع بسخاءٍ مقابل ذلك الأمر.»

رد بسرعة: «لسببٍ بسيط.» ثم أضاف: «يجب أن أستعين بشخصٍ ما لأداء المهمة، أجل، حتى لو كلَّفني هذا عشرين جنيهًا! يجب أن يلتقي شخصٌ ما بصديقي هذا، والليلة تحديدًا، ولماذا لا تحصل على عشرة جنيهات أخرى؟»

سألت: «ألا يُوجَد شيء يتعيَّن عليَّ فعله سوى ما تقوله؟»

قال مؤكدًا: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق!»

قلت: «وماذا عن موعد المقابلة؟» وتابعت: «وما هي الكلمة، من أجل ضمان الثقة؟»

أجاب: «الموعد الساعة الحادية عشرة.» وتابع: «الحادية عشرة ... قبل منتصف الليل بساعة. أما الكلمة ... اذهب إلى المكان وانتظر قليلًا، وإذا لم ترَ أحدًا هناك، قُل بصوتٍ عالٍ: «مِن جيمس جيلفرثويت لأنه مريض ولا يُمكنه القدوم بنفسه»؛ وعندما يظهر الرجل، وسيظهر، قُل ... أجل! قُل: «بنما»، يا فتى، وسيفهم في لمحِ البصر!»

قلت: «الساعة الحادية عشرة ... بنما.» وتابعتُ: «وما الرسالة؟»

أجاب: «أجلْ، الرسالة. فقط ما يلي: «جيمس جيلفرثويت طريح الفراش لمدة يومٍ أو يومَين، فابقَ في سكونٍ في المكان الذي تعرفه حتى يصلك خبر منه.» هذا كل شيء. والآن ... كيف ستصل إلى هناك؟ إنه مكان بعيد.»

أجبتُ: «لديَّ دراجة»، وبسبب سؤاله طرأ على ذهني سؤال. فسألت: «كيف كنتَ تنوي الذَّهاب إلى هناك بنفسك، يا سيد جيلفرثويت؟» وتابعت: «إلى ذلك المكان البعيد ... وفي ذلك الوقت من الليل؟»

قال: «أجل!» «صحيح تمامًا ... لكنني كنتُ سأفعل ذلك بسهولة، يا فتى ... لو لم أكن طريح الفراش هنا. كنتُ سأستقل آخِر قطار إلى أقرب محطة، وحيث إننا في فصل الصيف كنتُ سأنتقل بطريقةٍ ما خلال بقية الليل؛ فأنا معتاد على العمل الليلي. لكن ... ذلك لن يُجدي. هل ستذهب؟ و... في سرية تامة؟»

أجبته: «سأذهب ... وفي سرية تامة.» وأضفت: «اطمئن واهدأ بالًا.»

سأل بقلق: «ولن تنبس بكلمةٍ لوالدتك، أليس كذلك؟»

أجبته: «بلى.» وأضفت: «دعِ الأمر لي.»

بدا مرتاحًا للغاية لذلك، وبعد أن أكَّدتُ له أنني قد حفظت الرسالة عن ظهر قلب غادرت غرفته ونزلت إلى الطابق السفلي. في نهاية الأمر، لم تكن المهمة التي كلَّفَني بها صعبة. فقد كنت معتادًا على السهر في المكتب حتى وقتٍ مُتأخر للغاية، حيث حظيتُ بامتياز قراءة كتب القانون في الليل؛ لذا كان من السهل أن أخبر والدتي أنني لن أعود مبكرًا في تلك الليلة. كان بوسعي الوفاء، نصًّا وروحًا، بذلك الجزء من اتفاقي مع الرجل المريض في الطابق العلوي، ومع ذلك، لم أكن سأذهب إلى ضفة نهر تويد في تلك الساعة من الليل دون بعض الحماية، وعلى الرغم من أنني لم أكن سأُخبر أحدًا عن تفاصيل مُهمتي مع السيد جيلفرثويت، كنت سأخبر شخصًا واحدًا إلى أين سأذهب، تحسبًا لحدوث أيِّ شيءٍ غير مرغوب فيه يستدعي البحث عني. كان ذلك الشخص هو الشخص المناسب الذي يذهب إليه المرء في ظل هذه الظروف؛ حبيبتي، مايسي دنلوب.

وهنا سأُصارحكم بسرٍّ وأقول إنه في ذلك الوقت كنت أنا ومايسي يُحب كلٌّ مِنَّا الآخر منذ عامَين، وكان يثق كلٌّ منَّا في الآخر كما لو أننا مُتحابَّين منذ اثني عشر عامًا. أشك في وجود حبيبَين آخرَين من الطراز القديم مثلنا في أيِّ مكانٍ آخر في الجزر البريطانية؛ لأننا بالفعل كنَّا مُرتبطَين ببعضنا كما لو كنا مُتزوِّجَين عمرًا بأكمله، وكنتُ أخبرها بكل أسراري، كما كانت تشاركني جميع أسرارها. ولكن علاوة على ذلك، للتأكيد، كنَّا جيرانًا طَوال حياتنا، حيث كان والدها، أندرو دنلوب، يمتلك مَتجرَ بقالة على بُعد أقل من خمسين ياردة من منزلنا، وكنت أنا وهي زملاء في اللعب منذ أيام المدرسة، ثم وقعْنا في الحُب الرصين والجاد بمجرد أن وصلنا إلى ما نُسميه بأيِّ حالٍ سنوات الرشد؛ وهو ما يعني

أنني كنتُ في التاسعة عشرة من عمري، وكانت هي في السابعة عشرة، عندما تحدَّثنا لأول مرة حديثًا صريحًا عن الزواج. كان قد مرَّ عامان منذ ذلك الحين، وكان أحد أسباب عدم اعتراضي على كسب جنيهات السيد جيلفرثويت العشرة هو أن مايسي وأنا كنا نُخطِّط للزواج بمجرد زيادة راتبي إلى ثلاثة جنيهات في الأسبوع، وهو ما كنتُ أتوقَّع حدوثه قريبًا، وكنا ندَّخر المال من أجل تأثيث منزلنا؛ وبالطبع، كانت الجنيهات العشرة، ستمثِّل مساعدةً جيدة.

لذا في الحال عبرت الشارع إلى منزلِ عائلة دنلوب ودعوت مايسي للخروج، وذهبنا إلى الأسوار عند مصبِّ النهر، وهو ما كنَّا نفعله كلَّ مساء بانتظام. وفي ركنٍ هادئ، حيث كان يُوجَد مقعد كنَّا نجلس عليه غالبًا ونتهامَس معًا عن مُستقبلنا، أخبرتها أنه يتعيَّن عليَّ أداء مهمةٍ من أجل المستأجِر في تلك الليلة، وأن طبيعتها الدقيقة سرٌّ يجب ألا أبوح به حتى لها.

قلت لها، مُتوخِّيًا الحذرَ من وجودِ أحدٍ بالقرب منَّا يمكنه التقاط كلمةٍ ممَّا كنت أقوله: «لكن هاكِ ما يُمكنني أن أُطلعكِ عليه بشأنها؛ يمكنني أن أخبركِ بالمكان الذي سأنفِّذ فيه المهمة؛ لأن المكان سيكون نائيًا ومنعزلًا في الوقت الذي سأذهب فيه إليه ليلًا — قبل منتصف الليل بساعة، والمكان عند الأطلال القديمة بالقُرب من موضع التقاء نهر تيل بنهر تويد — أنتِ تعرفينه جيدًا.»

شعرتُ أنها ارتجفت عند سماعها هذا، وعرفتُ ما كان يدور في ذهنها؛ لأن مايسي كانت فتاةً ذات مخيلة واسعة، وذِكْر مكانٍ منعزل كهذا، وأن أزورَه في مثل هذه الساعة، جعل مخيلتها تعمل.

قالت: «يا له من رجلٍ غريب الأطوار، ذلك المُستأجِر في منزل والدتك، يا هيو.» ثم أضافت: «إنها مهمة في وقتٍ ومكانٍ غريبَين تلك التي تتحدَّث عنها. أرجو ألا يُصيبك مكروه.»

سارعتُ بالقول: «أوه، إنها مهمة تافهة، تافهة للغاية!» ثم تابعت: «لو كنتِ تعرفين تفاصيلَ المهمة، لكنتِ ستُدركين أنها عادية جدًّا، لن يستطيع هذا الرجل القيام بها بنفسه؛ لأنه طريح فراشه. ولكن على الرغم من ذلك، يجب اتخاذ الاحتياطات مُسبقًا؛ لذا سأُخبركِ بما سنفعله. من المفترَض أن أعود إلى البلدة بعد الساعة الثانية عشرة بقليل، وسأنقر على نافذتكِ عندما أمرُّ بها، وبذلك ستعرفين أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام.»

كان ذلك أمرًا يسهُل فعْله؛ لأن غرفة مايسي، حيث كانت تنام مع أُختها الصغرى، كانت في الطابق الأرضي من منزل والدها في جهةٍ مقابلة للشارع، ويُمكنني أن أطرق على الزجاج وأنا مارٌّ أمامه. ومع ذلك ظلَّت تشعر بعدم الارتياح، وسارعتُ لأقول شيئًا ما — ولم أكن أعرفها جيدًا آنذاك مثلما صرتُ لاحقًا — ظننتُ أنه سيطمئنها من أيِّ مخاوف لديها. فقلت: «إنها مهمة سهلة للغاية، يا مايسي؛ وستُساعدنا العشرة جنيهات في شراء الأثاث الذي نتحدَّث عنه دومًا.»

ارتجفت على نحوٍ أسوأ من ذي قبل عندما قلتُ ذلك، وأمسكَتْ بيدي التي أحطتُ بها خصرها.

صاحت: «هيو!» ثم تابعت: «إنه لن يُعطيك عشرة جنيهات مقابل نزهةٍ بسيطة كهذه! أوه، الآن صرتُ متأكدةً من أن هذه المهمة تنطوي على خطرٍ! ما الذي يجعل رجلًا يُقدِم على دفع عشرة جنيهات لأي شخصٍ لمجرد توصيل رسالة؟ لا تذهب يا هيو! ما الذي تعرفه عن ذلك الرجل عدا أنه غريب لا يتحدَّث أبدًا مع أيِّ أحدٍ في المكان، ويتجوَّل كما لو كان يتجسَّس على أمورٍ ما؟ وأنا على استعدادٍ للتخلي بسرورٍ عن كرسيٍّ أو طاولة، أو وعاء أو مقلاة، في مقابل ألا تتعرَّض للخطر في مكانٍ منعزل كهذا، وفي ذلك الوقت، مع عدم وجود أحد بالقُرب منك إذا احتجتَ إلى المساعدة. لا تذهب!»

قلتُ: «أنتِ لا تفهمين الأمر.» وأضفت: «إنها مهمة سهلة وبسيطة؛ ليس عليَّ سوى ركوب دراجتي إلى هناك ثم العودة. أما بشأن الجنيهات العشرة، فالأمر ببساطة أن السيد جيلفرثويت يمتلك الكثير من المال الذي لا يدري ماذا يفعل به. فهو يحمل الجنيهات الذهبية في جيوبه كما لو كانت بنسات! إن عشرة جنيهات له كعشرة بنسات لنا. وهو يستأجر غرفةً في منزلنا منذ سبعة أسابيع، ولا يُوجَد أحد يمكن أن يقول كلمة سيئة عنه.»

أجابت: «أنا لستُ قلقة منه كثيرًا.» وتابعت: «أنا قلقة مما قد تقابله ... هناك! لأنك يجب أن تقابل ... شخصًا ما. ستذهب، أليس كذلك؟»

قلت: «لقد وعدته، يا مايسي.» وأضفت: «وسترَين أنه لن يحدُث أيُّ ضرر، وسأنقر نقرةً على نافذتكِ في طريق عودتي. وسنفعل أشياء عظيمة بتلك الجنيهات العشرة، أيضًا.»

فأجابت: «لن أُغلق عينيَّ مُطلقًا حتى أسمع منك.» وأضافت: «ولن أكتفي بنقرة، أيضًا. إذا نقرتَ نقرةً على النافذة، سأسحب الستارة قليلًا، وأتأكَّد من أنه أنت، يا هيو.»

اتفقنا على ذلك، ومنحتُها قُبلةً أردتُ بها أن أطمئنها، وبعد قليل افترقْنا، وذهبتُ لإحضار دراجتي للاستعداد للرحلة.

الفصل الثالث

البقعة الحمراء

أشارت ساعات البلدة إلى التاسعة والنصف عندما قُدتُ دراجتي عبر جسر بوردر بريدج القديم وانحرفتُ صاعدًا أول منحدرٍ للطريق الذي يمتد بجانب السكة الحديدية في اتجاه تيلموث بارك، والذي، بالطبع، كان هدفي الأول. كانت الليلة حارةً وشديدة الرطوبة، وكان الرعد يدوِّي طوال اليوم، وتوقَّع الناس هطول المطر في أي لحظة، لكن حتى هذه اللحظة لم يهطل، وكان الهواء كثيفًا وخانقًا. وقد تصبَّبتُ عَرقًا قبل أن أقطع مسافةَ ميلَين على الطريق، وشعرتُ بصداعٍ في رأسي من ثقل الهواء، الذي بدا وكأنه يضغط عليَّ حتى كدتُ أختنق. في ظل الظروف العادية لم يكن سيُخرجني أيُّ شيءٍ من المنزل في ليلة كتلك. لكن الظروف لم تكن عادية؛ فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تُتاح لي فيها فرصةَ ربح عشرة جنيهات من خلال أداءِ ما بدا أنه مهمة بسيطة للغاية؛ وعلى الرغم من أنني كنتُ أميل كثيرًا إلى التقرُّب من السيد جيلفرثويت، كان ماله بالتأكيد المُحفِّز الرئيسي للمُضيِّ في المهمة التي أسندها لي في الوقت الذي كان يجب أن يكون فيه جميع الأشخاص المُحترَمين في أسرَّتِهم. وفي هذا الجزء الأول من رحلتي، تركزَتْ أفكاري على ذلك المال، وعلى ما سأفعله أنا ومايسي به عندما يُصبح في جيبي بأمان. كنَّا قد اشترَينا بالفعل أوائل أثاث منزلنا المُرتقَب، وخَزَّناه في مستودعٍ غير مُستخدَم في الجزء الخلفي من منزل والدها؛ وبعد الحصول على الورقة النقدية من السيد جيلفرثويت، التي ترقُد هناك بشكلٍ مُريح في انتظاري، سنُصبح قادرَين على إدخال إضافات كبيرة إلى مخزوننا، وسيكون يوم العرس أقرب.

ولكن انتقالًا من هذه التوقُّعات بدأتُ بعد قليل أُفكِّر في المهمة التي كنتُ حينئذٍ مشاركًا فيها إلى حدٍّ ما. عندما تفكَّرتُ في الأمر، بدا شأنًا غريبًا. فحسبما فهمت، كان الأمر على النحو التالي: كان لدَينا هنا السيد جيلفرثويت، وهو رجل غريب عن بيرويك، وكان

يبدو أنه يمتلك الكثير من المال وليس له عمل، ويتلقَّى فجأةً خطابًا طُلِبَ منه فيه مقابلة رجل، قبيل منتصف الليل، وفي أكثرِ مكان منعزل يمكن اختياره في المنطقة كلها. لماذا في مثل هذا المكان، وفي مثل هذه الساعة؟ ولماذا كان هذا اللقاء يُمثِّل أهميةً كبيرة لدرجةِ أن يتعيَّن على السيد جيلفرثويت، نظرًا لعدم تمكُّنه من حضوره بنفسه، أن يدفع مبلغ عشرة جنيهات لشخصٍ آخرَ ليَحضُره بدلًا منه؟ ما كنتُ قد قلتُه لمايسي عن امتلاك السيد جيلفرثويت الكثيرَ من المال لدرجةِ أن عشرة جنيهات لم تكن تُمثِّل له أكثرَ مما تُمثِّله عشرة بنسات لي كان كلُّه، بالطبع، كلامًا فارغًا، قلته فقط لتهدئة مخاوفها وشكوكها؛ إذ كنت أعرف جيدًا بما فيه الكفاية، بعد أن اكتسبتُ بعض الخبرات في مكتبِ محامٍ على مدار السنوات الست الماضية، أنه حتى أصحاب الملايين لا يُبعثرون أموالهم كما لو كانت الجنيهات عبارةً عن قرونِ بازلاء فارغة. كلَّا! لقد كان السيد جيلفرثويت يُعطيني هذا المال لأنه ظنَّ أنني، بصفتي مُتدربًا في مكتب محاماة، سأُدرك الأمر على صورته الصحيحة باعتباره عملًا سريًّا ومهمًّا، وسأُبقيه طيَّ الكتمان. وكنت بالفعل أعتبره عملًا سريًّا؛ لأنه أيُّ شأن عدا ذلك الذي يمكن أن يجعل رجلَين يلتقِيان بالقرب من أطلالٍ قديمة في منتصف الليل، بينما كان يمكن لهما أن يلتقيا في مدينةٍ كان أحدُهما غريبًا عنها، على أي حال، وربما كان الآخر غريبًا عنها بنفس القدر، في وضح النهار وفي مكانٍ أكثرَ ملاءمةً للمقابلة دون أن يكون لدى أيِّ شخصٍ أدنى اهتمام بأفعالهما؟ كان ثمة غموض غريب وغير واضح في كل هذا، وسرعان ما دفعني التفكير والتأمُّل في الأمر إلى التساؤل عن أول نتيجةٍ طبيعية له؛ مَن هو الرجل الذي أنا الآن في طريقي لمقابلته، وما هي طبيعة عمله، ومن أيِّ مكانٍ أتى كي يُجري مقابلةً في بقعةٍ كهذه، وفي تلك الساعة؟

ومع ذلك، قبل أن أقطع ثلاثة أرباع مسافة تلك الرحلة إلى خارج البلدة، لألتقيَ برجلٍ آخر، لا أعرفه إطلاقًا، كان سيدخل في هذه السلسلة غير العادية من الأحداث التي بدأت فجأة، دون إرادةٍ منِّي، أحتار في تفسيرها. تبلغ المسافة، تقريبًا، وبقياسها في خطٍّ مستقيم، حوالي تسعة أو عشرة أميال من بلدة بيرويك إلى جسر تويزل على نهر تيل، حيث كنتُ سأنتقِل من الطريق الرئيسي إلى طريقٍ آخر جانبي، سيقودني إلى الأطلال القديمة، بالقُرب من موقع التقاء نهر تيل مع نهر تويد. بقدرِ ما كانت ليلةً حارة، وكان ركوب الدراجة خلالها غير مُمتع، كان لديَّ الكثير من الوقت قبل موعد المقابلة، وعندما وصلتُ إلى مُفترَق الطرق بين نورهام وجريندون، نزلت من فوق دراجتي وجلستُ على الضفة بجانب الطريق لأخذ قسطٍ من الراحة قبل المُضي قُدُمًا. كانت تلك البقعة هادئة ومنعزلة

جدًّا؛ إذ لمسافة ثلاثة أميال أو أكثر لم أكن قد صادفتُ أيَّ شخصٍ في الطريق، وإذ لم يكن يُوجَد تقريبًا أيُّ شيءٍ مثل قرية أو مزرعة بيني وبين كورنهيل، لم أكن أتوقَّع أن أصادف أحدًا في المراحل التالية من رحلتي. لكن بينما أنا جالس هناك على الضفة، تحت سياجٍ شجري كثيف، ودراجتي مُلقاة بجانبي، سمعتُ وقع خطواتٍ قادمة على الطريق في العتمة؛ خطوات سريعة، واثقة، كما لو كانت خطوات رجلٍ يمشي بسرعة، ويضع قدمَيه بثباتٍ كأنه عازم على الوصول إلى مكانٍ ما في أقرب وقتٍ ممكن. وعندما سمعتُ ذلك خلعتُ قُبعتي، ووضعتها فوق مصباح الدراجة — وحتى يومِنا هذا، كثيرًا ما تساءلتُ ما الذي جعلني أفعل ذلك — وجلستُ ساكنًا مثل أيٍّ من المخلوقات الصغيرة التي كانت بلا شك ترقُد ورائي في السياج الشجري.

أتى صوت الخطوات من الاتجاه الذي كنتُ متجهًا إليه. كان يُوجَد في هذه المنطقة تحديدًا القليل من الانحدار في الطريق: أتى بثبات، وبقوة، صعودًا على المنحدر. وبعد برهةٍ — لأننا كنا في ذروة شهر يونيو، حيث لا تكون الليالي حالكةً للغاية — اقتربت هيئة رجلٍ فوق حافة المنحدر، وظهرت بوضوحٍ على خلفية قطعةٍ من السماء الرمادية التي كانت مُحاطة بأصابع من أشجار الصنوبر والتنوب على جانبي الطريق. كانت هيئة رجل قوي البنية، وكما قلتُ من قبل، كان الرجل يخطو بقدمَيه، التي كان من الواضح أنها تنتعِل حذاءً متينًا، في ثباتٍ وسرعة للأسفل، ومع هذا الصوت المتبادل جاء النقر بثباتٍ وسرعة مُماثلة لعصًا ذات طرفٍ حديدي. وبغضِّ النظر عن هوية هذا المسافر الليلي، كان من المؤكَّد أنه يشقُّ طريقه إلى مكانٍ ما دون إضاعة أيِّ وقتٍ في ذلك.

اقترب الرجل مني ومن مَخبئي، ولم يرَ شيئًا، ثم توقَّف في ثباتٍ على بُعد ياردات قليلة. وعرفتُ السبب. كان قد وصل إلى مُفترق الطرق، وكان واضحًا من حركاته أنه مُتحير وغير متأكد. ذهب إلى زوايا كل طريق: بدا لي أنه كان يبحث عن علامة إرشادية. لكن، حسبما كنتُ أعلم جيدًا، لم تكن تُوجَد أي علامة إرشادية في أي زاوية، وبعد برهةٍ عاد إلى منتصف الطرُق مرةً أخرى ووقف، وأخذ ينظر في هذا الاتجاه وذاك، كما لو أنه كان لا يزال مُتشككًا. وعندئذٍ سمعت طقطقةً وحفيفًا مثل صوت الورق المُقوى — كان الرجل على بُعد ما لا يزيد عن اثنتي عشرة ياردة منِّي طوال الوقت — وبعد دقيقة أخرى ظهرت دفقة من لهبٍ مائل إلى الزرقة، ورأيتُ أن الرجل كان قد أشعل ضوء مصباح جيبٍ كهربائي وكان يُسلِّطه على خريطةٍ كان قد فردها وهزَّها، وكان يمسكها بيده اليُمنى.

عند هذه النقطة استفدتُ من درسٍ كان قد تردَّد على مسامعي مراتٍ عديدة منذ الصبا. كان أندرو دنلوب، والد مايسي، أحد أولئك الرجال المُولَعين بشكلٍ غير مألوف بإلقاء النصائح على الصغار بمناسبة وبغير مناسبة. كان يجمع كثيرين منَّا، من الصبية والبنات، معًا في صالونه في الأوقات التي لا يُمارس فيها عمله داخل متجره ويُعطينا تحذيراتٍ بشأنِ ما أسماه الأشياء العملية في الحياة. وكان أحد تعاليمه المفضلة — التي كانت مُوجهةً إلينا نحن الصبية بخاصة — هو «عليك أن تُنمِّي قدراتك على الملاحظة.» تلاءمت هذه النصيحة جيدًا جدًّا مع شئون المهنة التي كنتُ قد حدَّدتها لنفسي؛ إذ يجب أن يكون المحامي بطبيعة الحال رجلًا قويَّ الملاحظة، وقد بذلتُ مجهودًا مُستمرًّا في فعل ذلك كما نصح أندرو دنلوب. لذلك بعينٍ مُلاحِظةٍ بانتباه، وبينما كنتُ مُختفيًا تمامًا، شاهدتُ الرجل بمصباحه الكهربائي وخريطته، ولم أغفل عن ملاحظة أن اليد التي كانت تحمل الخريطة كان ينقصها الأصبعان الوُسطَيان. لكن فيما يتعلَّق ببقيته، باستثناء أنه كان رجلًا طويل القامة، قوي البنية، يبدو — بقدرِ ما استطعتُ أن أرى — في مظهر رجلٍ نبيلٍ يرتدي بدلةً رماديةً من الصوف، لم أستطِع أن أرى شيئًا. لم أتمكَّن مُطلقًا من أن ألمح وجهه؛ لأنه طوال الوقت الذي وقف فيه هناك كان في الظلام.

كما أنه لم يبقَ هناك وقتًا طويلًا. انطفأ ضوء المصباح الكهربائي فجأة، وسمعت طقطقة الخريطة مرةً أخرى وهو يَطويها ويضعها في جيبه. وفجأة أيضًا تحرَّك مرةً أخرى، سالكًا الطريق الجانبي باتجاه الشمال، والذي كان، كما كنتُ أعرف جيدًا، يؤدي إلى نورهام، وإذا كان ذاهبًا بعيدًا، كان يعبُر فوق نهر تويد إلى ليديكيرك. ابتعد بنفس الخطوة السريعة، لكن سطح الأرض في ذلك الطريق الجانبي لم يكن صلبًا ورنَّانًا مثل سطح الطريق الرئيسي، وسرعان ما تلاشى صوت خطواته في صمت، وصار الليل الحار الخانق ساكنًا مثلما كان دائمًا.

بعد برهةٍ ركبتُ دراجتي مرة أخرى ماضيًا قُدُمًا في المرحلة الأخيرة من رحلتي، وبعد أن عبرت جسر تويزل، انعطفتُ عبر الدرب الضيق إلى الأطلال القديمة بالقرب من مَوضع التقاء نهر تيل مع نهر تويد. كانت الأجواء حينئذٍ مُظلمةً أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى في تلك الليلة، وعَمَّقَت الظلمةَ تلك السُّحبُ الرعدية التي خيَّمت على جميع أنحاء الوادي. كانت البُقعة التي سألتقي فيها بالرجل الذي تحدَّث عنه السيد جيلفرثويت كئيبةً ومظلمة. وعلى ضوء مصباح درَّاجتي رأيتُ أن الساعة قد أصبحت للتوِّ الحادية عشرة عندما وصلت إلى البقعة؛ لكن بقدرِ ما استطعت التمييز لم يكن هناك أحد لمقابلته. ومُتذكرًا ما أُوصيتُ بفعله، تحدثتُ بصوتٍ عالٍ.

كرَّرت قائلًا: «من جيمس جيلفرثويت، الذي هو مريض، ولا يستطيع الحضور بنفسه.» وبعد ذلك، إذ لم أحصل على ردٍّ فوري، نطقتُ الكلمة السرية بصوتٍ عالٍ بنفس القدْر. لكن لم يأتِ ردٌّ على ذلك أيضًا، وللحظةٍ فكَّرتُ في أنه كم كان من السُّخف أن أقف هناك وأقول بنما بينما لا يُوجَد أحد.

استنتجت أن الرجل لم يأتِ بعدُ، فقُدت درَّاجتي إلى جانب الدرب الضيق، لأضعها على السياج الشجري وأجلس هناك، وعندئذٍ سقط ضوء المصباح الخفيف على بقعةٍ حمراء كبيرة كانت قد انتشرت، ولا تزال تنتشر، على الأرض الرملية أمامي. وعرفت على الفور أنها بُقعة دم، ولا أظن أنني فوجئتُ عندما رأيت، وأنا أتقدَّم خطوةً أو خطوتَين قُدُمًا، رأيت، على العشب بجانب الطريق عند قدمي، الجثة المُتصلبة والوجه الأبيض لرجل، عرفت بغريزةٍ أكيدة وواثقة، أنه لم يكن ميتًا فحسب، بل قُتل بوحشية.

الفصل الرابع

القتيل

ربما يُوجَد أناسٌ في العالم يعتبرون أن العثورَ على جثةِ رجل، مُمدَّدة مُتيبِّسة بشكلٍ مُخيف على جانب الطريق، والدم ما زال يتدفَّق منها ويصنع بُقعًا قبيحةً من اللون القرمزي على العُشب والحصى، أمرٌ عاديٌّ؛ لكن لي أنا الذي لم يسبق أن شاهدتُ الدماء تتدفَّق في عُنف، إلا في مراتٍ كأن يضرب طفلٌ زميله بقبضته في المدرسة، كان هذا أكبر شيءٍ حدث على الإطلاق، ووقفت أُحدِّق في الوجه الأبيض كما لو أنني لا يجِب أن أنظر أبدًا إلى أيِّ شيءٍ آخر ما حييت. أتذكَّر الآن كلَّ شيءٍ عن ذلك المشهد وتلك اللحظة كما لو كان الأمر قد حدث الليلة الماضية. كان الرجل الميت يرقُد على العشب المسحوق؛ وذراعاه مُرتميتان بلا حولٍ ولا قوة على جانبَيه؛ وظلمة الأشجار في كل مكان؛ خرير المياه، حيث كان نهر تيل يصبُّ فَيضه البطيء في الدوَّامة الأكثر نشاطًا واندفاعًا لنهر تويد؛ وهواء الليل الحار الخانق؛ والدم على الطريق الجاف؛ كل ذلك كان ما خرجتُ من بيرويك، بناء على طلب السيد جيلفرثويت، لأجده في تلك البقعة المنعزلة.

لكنني علمت، بالطبع، أن جيمس جيلفرثويت نفسه لم يكن يتوقَّع هذا الأمر، ولا فكَّر في أنني سأجِد رجلًا مقتولًا. وبينما كنتُ ألتقط أنفاسي أخيرًا، وتوقَّفتُ قليلًا عن التحديق في الجثة، اندفعَتْ أفكارٌ كثيرة للغاية إلى رأسي، وبدأ يصطدم بعضها ببعض. هل كان هذا هو الرجل الذي أرادني السيد جيلفرثويت أن أُقابله؟ هل كان السيد جيلفرثويت سيُقتَل، هو الآخر، لو أنه كان قد جاء إلى هنا بنفسه؟ وهل قُتِلَ الرجل من أجل السرقة؟ لكنني أجبتُ على ذلك السؤال الأخير بمجرَّد أن طرحته، وكان الجواب بالنفي؛ لأن ضوء مصباحي أظهر سلسلةَ ساعةٍ ذهبية ثقيلة وراقية مُثبَّتة على صديري الرجل؛ لو كان لصوص يَميلون إلى القتل قد هاجموه، ما كان من المُحتمَل أن يتركوا تلك الساعة. ثم

تساءلتُ عما إذا كان قدومي قد أزعج القتلة؛ إذ كانت راسخة في عقلي من البداية فكرة أنه لا بدَّ من وجود أكثر من شخصٍ في هذه اللعبة المُروِّعة — وتساءلتُ عما إن كانوا لا يزالون يتربَّصون بي ويُراقبونني من الغابة؛ وبذلتُ مجهودًا، وانحنيتُ ولمست إحدى يدَيه الساكنتَين. فوجدتها مُتيبِّسة بالفعل، وأدركتُ عندئذٍ أن الرجل كان قد لقي حتفه منذ بعض الوقت.

وأدركتُ أمرًا آخرَ في تلك اللحظة: أن مايسي المسكينة، التي ترقُد مُستيقظةً كي تسمع النقر على نافذتها، حتى تنهض وتختلس النظر من طرَف ستارتها لتُطمئن نفسها أن حبيبها هيو لا يزال حيًّا وآمنًا، ستظلُّ في حالة قلقٍ وتخمين خلال الساعات المظلمة لتلك الليلة؛ لأنه كان يُوجَد هنا عملٌ سيُبقيني منشغلًا حتى طلوع النهار. شرعتُ في عملِ ما يتوجَّب عليَّ هناك في تلك اللحظة، فتركت الرجل كما وجدته، وأسرعت عائدًا في اتجاه الطريق الرئيسي. ولحُسن الحظ، سمعتُ أصوات رجالٍ على جسر تويزل، وركضتُ مباشرةً نحو رقيب شرطة محلي وشرطي، كان قد التقيا هناك خلال جولتيهما الليليتَين. كنتُ أعرف كليهما؛ إذ كان الرقيب يُدعى تشيسهولم، والشرطي رجلًا يُدعى تورنديل، وكانا يَعرفانني جيدًا من رؤيتي في المحكمة في بيرويك؛ وقد استمعا بذهولٍ بالغ إلى ما تعيَّن عليَّ أن أُبلغهما به. بعد قليل كان ثلاثتنا واقفين جميعًا حول الرجل الميت، وهذه المرة سُلِّط ضوء المصابيح الثلاثة على وجهه وعلى بُقعة الدم التي كانت تُحيط به، وطقطق تشيسهولم بلسانه بحدةٍ عندما رأى ما رآه.

قال بصوتٍ خفيض، بينما ينحني ويلمس إحدى يديه: «هذا مشهد مؤلم للأُناس الأبرياء!» ثم أضاف: «أجل، لقد مرَّ على وفاته ما يقرب من ساعة، في رأيي، من خلال الإحساس ببرودة جثته! ألم تسمع شيئًا عندما كنت تقترب من المكان، يا سيد هيو؟»

أجبت: «لم أسمع أيَّ شيء!»

فسأل: «ولم ترَ شيئًا؟»

قلت: «لا شيء ولا أحد!»

فقال: «حسنًا»، وتابع، ملتفتًا إلى الشرطي، «سيتعيَّن علينا إبعاده من هذا المكان. لذا يجب عليك إحضار مَن يساعدنا.» وأضاف: «أحضِر بعض الرجال لمساعدتنا في حملِه. يجب أن يُنقَل إلى أقرب نُزُل من أجل التحقيق؛ فهذا هو القانون. لم أكن سأسأل بينما كان ذلك الرجل هنا، يا سيد هيو»، تابع، بعدما كان تورنديل قد ذهب مُسرعًا نحو القرية؛ «لكنك لن تُمانع أن أسألك الآن؛ ماذا كنتَ تفعل هنا، في هذه الساعة؟»

قلت: «لديك الحقُّ تمامًا، يا تشيسهولم»؛ وسأُخبرك؛ لأنه من خلال ما يُمكنني رؤيته، لن يُوجَد سبيل لكتمان الأمر، ولا يُهمني كتمانه، ولا يُهمني مَن يعرف كلَّ شيءٍ عنه، ليس أنا! الحقيقة هي أن لدَينا مُستأجِرًا في منزلنا، هو السيد جيمس جيلفرثويت، وهو رجل غامض، يرقُد حاليًّا في سريره مُصابًا برجفةٍ أو شيءٍ من هذا القبيل يستلزم بقاءه هناك، والليلة طلب منِّي أن أقود دراجتي إلى هنا للقاء رجلٍ كان يجِب أن يُقابله هو بنفسه؛ ولهذا السبب أنا هنا، وهذه كل صِلتي بالأمر.»

صاح، وهو يُشير بإبهامه نحو الرجل الميت: «أنت لا تقصد أن تقول أن ... أن هذا! هذا ... هذا هو الرجل الذي كان من المُفترَض أن تُقابله؟»

قلت: «مَن غيره؟» ثم أضفت: «هل يُمكنك التفكير في أي شخصٍ آخر غيره؟ وأنا أتساءل عما إذا كان مَن قتل هذا الرجل، أيًّا كانت هويته، كان سيقتُل السيد جيلفرثويت أيضًا، لو كان قد جاء؟ هذه ليست جريمة قتل عرَضية، يا تشيسهولم، كما ستكتشف.»

قال، وهو يُنقِّل بصرَه بيني وبين الجثة: «حسنًا، حسنًا، لم أعرف أبدًا مثيلًا لها!» ثم أضاف: «ألم ترَ أحدًا في الجوار، أو في الحي، ولا غرباء على الطريق؟»

كنتُ مُستعدًّا لذلك السؤال. منذ العثور على الجثة، أخذتُ أتساءل ماذا يجب أن أقول عندما تسألني السلطة، سواء على هيئة مُحقق أو شرطي، عن مُغامراتي في تلك الليلة. من المؤكَّد أنني قد رأيتُ شخصًا غريبًا، ولاحظتُ أنه قد فقد أصبعَين، الأولى والثانية، من يده اليُمنى، وكان من المؤكَّد أن وجودَه في ذلك الحي تحديدًا وفي الوقت الذي لقِيَ فيه هذا الرجل البائس مصرعه أمر غريب. لكنني كنتُ أعتقد اعتقادًا قويًّا أن الرجل الذي كنتُ قد رأيته ينظر إلى خريطته كان سائحًا يسير في المنطقة، وكنتُ أعتقد بالمثل أن قدَمه لم تطأ بلودن فيلد وتلك الناحية التاريخية من البلد قبل ذلك، وأن الظلام كان قد داهمه قبل أن يتمكَّن من الوصول إلى مقرِّ إقامته أيًّا كان مكانه. ولم أكن سأُثير الشكوك حول مَن كان على الأرجح غريبًا بريئًا؛ لذلك أجبتُ على سؤال تشيسهولم مثلما نويتُ الإجابةَ على أي سؤالٍ مُشابه ... ما لم يكن لديَّ بالفعل سببٌ لتغيير رأيي.

فقلت: «لم أرَ أحدًا ولم أسمع شيئًا ... في الجوار.» وأضفت: «من المُستبعَد أن يُوجَد غرباء في هذه البُقعة في منتصف الليل.»

قال، وهو يسلِّط مصباحه مرةً أخرى على وجه القتيل: «فيما يتعلَّق بهذا الشأن، هذا الرجل المسكين هو نفسه غريب.» ثم تابع: «على أي حال، هو مجهول لي، وأنا أعمل في هذه المنطقة منذ عشرين عامًا. وبوجهٍ عام، لقد صادفتُ لغزًا كبيرًا، يا سيد هيو، وستحدُث أفعالٌ غريبة قبل أن نسبر غورَه، على ما أظن.»

إن وجود لغز في هذه القضية كان أمرًا يزداد تأكُّدًا أكثرَ من أي وقتٍ مضى، بعد نقل الرجل إلى أقرب نُزُل، وإحضار المزيد من المساعدة، بما في ذلك طبيب، عندما بدءوا في فحص جثته وملابسه. والآن بعد أن رأيته في ضوءٍ أقوى، وجدتُ أنه رجل قوي ذو بنيةٍ جيدة، في مثل عمر السيد جيلفرثويت؛ لنَقُل إنه قد تجاوز الستِّين عامًا أو نحو ذلك، يرتدي ملابس راقية، وحذاءً جيدًا وجوربًا من الكتان وبدلة من صوف التويد من النوع الذي يُفضِّله السائحون. كان يُوجد قدرٌ كبير من المال في جيوبه — أوراق نقدية وعملات ذهبية وفضية — وساعةٌ وسلسلة باهظتا الثمن، وأشياء أخرى من هذا القبيل من تلك التي يحملها رجلٌ نبيل؛ وبدا واضحًا جدًّا أن السرقة لم تكن الدافع الذي من أجله ارتكب القتلة جريمتهم. لكنه لم يكن يحمل أوراقًا يمكن أن تحدِّد هويته؛ حيث لم يكن يحمِل قصاصةَ ورقٍ واحدة في جميع ملابسه، باستثناء نصف تذكرة عودة بالقطار بين بيبلز وكولدستريم، وقطعة من رأس فاتورة مُمزقة عليها اسم وعنوان تاجر في دَندي.

«ثمة خيطٌ ما يمكن متابعته، على أي حال»، علَّق تشيسهولم، وهو يضع هذه الأشياء جانبًا بعنايةٍ بعد أن أوضح لنا أن التذكرة كانت بتاريخ ما أصبح الآن اليوم السابق (لأن الوقت بالفعل كان قد تجاوز منتصف الليل بكثير، وكاد الصبح أن يطلع)، وأنه لا بدَّ أن القتيل جاء إلى كولدستريم قبل سويعات من مصرعه، ثم أضاف: «ومن المُحتمَل أن نجد معلومات عنه في دندي أو بيبلز. لكنني أميل إلى التفكير، يا سيد هيو»، ثم تابع، وهو يجذبني مُنتحيًا بي جانبًا، «في أنه على الرغم من عدم سرقة مال الرجل وأشيائه الثمينة، فربما يكون قد سُرِقَ منه شيء آخر له قيمة أكبر بكثيرٍ من أيٍّ منهما.»

فسألت: «مثل ماذا؟»

قال: «أوراق!» ثم أضاف: «انظر إلى المظهر العام للرجل! إنه ليس رجلًا عاديًّا أو مِن العامة. هل مِن المحتمَل، الآن، ألَّا يحمل مثل هذا الرجل رسائل أو هذا النوع من الأشياء في جيوبه؟ ومن غير المُحتمَل كذلك أنه لم يكن يحمل دفترَ جيبه، وربما كان دفتر جيبه هذا بما كان فيه هو ما كانوا يسعَون إليه، ولم يكونوا يهتمُّون بحافظة نقوده على الإطلاق.»

قلت: «لقد تحقَّقوا منه، على أي حال»، ثم خرجتُ من الغرفة التي وضعوا فيها الجثة، غير مُهتمٍّ بالبقاء لفترة أطول. لأنني كنتُ قد سمعتُ ما قاله الطبيب؛ أن الرجل قُتِل في الحال بضربةٍ واحدة من سكينٍ أو خنجر غُرز في قلبه من الخلف بقوةٍ هائلة، وكان التفكير في ذلك يُزعجني. سألت تشيسهولم، الذي تبعني: «ماذا ستفعل الآن؟»

وأضفت: «وهل ما زلتَ بحاجةٍ إلى تواجُدي هنا، أيها الرقيب؟ لأنك، إن لم تكن بحاجةٍ إليَّ، فأنا أودُّ بشدة أن أعود إلى بيرويك.»

أجاب: «هذا هو بالضبط المكان الذي سأذهب إليه معك.» ثم أضاف: «إن درَّاجتي على مقربةٍ من هنا، وسنقود دراجتَينا إلى البلدة معًا في الحال. لأنه، كما ترى، يا سيد هيو، يُوجَد رجلٌ واحد فقط في هذه الأنحاء يُمكنه أن يكشف لنا بعضَ الغموض في هذه القضية على الفور، إن كان سيفعل، وهو ذلك المُستأجِر الذي أخبرتَني عنه. ويجب أن أدخل وأقابل مدير الشرطة، ولا بدَّ أن نتحدَّث مع السيد جيلفرثويت هذا؛ لأنه، إن لم يكن يعرف الكثير، فسوف يعرف مَن يكون هذا الرجل!»

لم أُجِب على ذلك. لم تكن لديَّ إجابة محدَّدة. كنتُ أتساءل بالفعل حول الكثير من التكهُّنات. هل يعرف السيد جيلفرثويت هوية الرجل؟ هل كان هو الرجل الذي كان يجب أن أُقابله؟ أم أن الرجل كان هناك، وشهد الجريمة، وهرب، خائفًا من التوقُّف في موقعها؟ أم، مُجددًا، كان رجلًا صادف مرسالَ السيد جيلفرثويت، ولسببٍ ما، قُتِل على يدَيه؟ ومع ذلك، فقد كان كل شيءٍ بعيدًا عن إدراكي آنذاك، وبعد برهةٍ كنت أنا والرقيب نقود دراجتَينا على الطريق نحو بيرويك. لكن لم تكن قد مرَّت سوى نصف ساعة، وكنَّا في موقعٍ يُمكِّننا من رؤية أضواء البلدة أمامنا في الليل، عندما جاء شخصان يركبان دراجتَين عبر الضباب الذي كان كثيفًا في مُنحدرٍ من الطريق، ولأنهما كانا يناديان عليَّ، تمكَّنتُ من معرفة أنهما كانا مايسي دنلوب وشقيقها توم الذي جعلَته يأتي معها، وبعد دقيقةٍ أخرى كنتُ أنا ومايسي نتهامس.

قالت بلهفة: «كل شيءٍ على ما يُرام الآن بعد أن علمتُ أنك سالم يا هيو.» وتابعت: «لكن يجب أن تعود معي بسرعة. لقد مات مُستأجِر الغرفة بمنزلكم، وأمُّك قلقة للغاية، وتتساءل أين أنت!»

الفصل الخامس

الصندوق المُحاط بالنحاس الأصفر

كان الرقيب قد ترجَّل من على دراجته في نفس الوقت الذي وثبتُ فيه مترجلًا من على دراجتي، وكان قريبًا خلفي عندما التقيتُ مايسي، وسمعته يطلِق صافرةً حادةً بعد سماعه أخبارها. أما أنا، فشعرتُ بالذهول؛ لأنه على الرغم من أنني كنتُ قد رأيت بنفسي أن السيد جيلفرثويت كان مريضًا للغاية عندما تركته، لم أكن أتوقَّع مُطلقًا أنه قد يموت. في الواقع، كنتُ مُندهشًا للغاية لدرجةِ أن كلَّ ما فعلته هو الوقوف مُحدِّقًا في مايسي وسط الضوء الرمادي الذي بدأ يسطع مُعلنًا انتهاء الليل وطلوع الصبح. لكن الرقيب تغلَّب على دهشته بسهولةٍ أكبر.

وسأل بهدوء: «أظنُّ أنه مات في سريره، أليس كذلك يا آنسة؟» ثم أضاف: «لقد قال السيد هيو إنه كان مريضًا؛ فلا شكَّ في أن حالته قد ساءت بعد أن تركه السيد هيو، أليس كذلك؟»

أجابت مايسي: «لقد مات فجأة بعد الساعة الحادية عشرة بقليل»؛ ثم تابعت، «وبحثَتْ والدتك عنك في مكتب السيد ليندسي، يا هيو، وعندما لم تجدك هناك، جاءت إلى منزلنا، وتعيَّن عليَّ أن أُخبرها أنك ذهبت في مهمةٍ من أجل السيد جيلفرثويت. وأخبرتُها، أيضًا، ما لم أكن متأكدةً منه بنفسي، وهو أنه لن يُصيبك أيُّ مكروه، وأنك ستعود بعد الثانية عشرة بقليل، وذهبتُ إلى منزلك وانتظرت معها؛ وعندما لم تأتِ وتأخَّرتَ كثيرًا، انزعجت، وجعلتُ توم يُخرِج دراجتَينا وجئنا للبحث عنك. والآن هيا نعود؛ لأن والدتك قلقة عليك، وقد أزعجها موت الرجل، حيث فارق الحياة فجأة، حسبما قالت، بينما كانت معه.»

ركبنا جميعًا دراجاتنا مرةً أخرى وانطلقنا إلى المنزل، وقاد تشيسهولم دراجته بجانبي وتأخَّرنا في الخلف قليلًا.

فقال، بصوتٍ خفيض: «هذه قضية غريبة»؛ وتابع، بصوتٍ خفيض، «ويبدو كأنها ازدادت غرابةً بالموت المفاجئ لهذا الرجل. لقد كنتُ أتطلَّع للحصول على خبرٍ منه عن هذا الرجل الآخر. ماذا تعرف عن السيد جيلفرثويت؟»

قلت: «لا شيء!»

فقال: «لكنه أقام معكم لمدة سبعة أسابيع؟»

أجبته: «لو أنك عرفته، أيها الرقيب، كنتَ ستعرف أنه كان من هذا النوع من الرجال، الذي لن تعرف عنه بعد سبعة أشهر أكثرَ مما كنتَ تعرف بعد سبعة أسابيع، وبعد سبع سنواتٍ لن تعرف أكثرَ مما عرفتَ بعد سبعة أشهر. لم نكن نعرف شيئًا، أنا وأُمي، باستثناء أنه كان رجلًا محترمًا، لبقًا، سخيًّا ويُنفق الكثيرَ من ماله، وأن اسمه هو ما قاله لنا، وأنه كان رئيس بحَّارة. أما مَن كان، أو مِن أين أتى، فأنا لا أعرف أكثرَ مما تعرف أنت.»

فقال: «حسنًا، من المؤكَّد أنه بلا شك سيكون لديه أوراق، أو رسائل، أو أي شيءٍ من شأنه أن يُلقي بعض الضوء على الأمور، أليس كذلك؟» وأضاف: «هل يُمكنك قول شيءٍ في هذا الصدد؟»

أجبته: «أستطيع أن أخبرك أن لديه صندوقًا في غرفته وهو ثقيل كما لو كان مصنوعًا من الرصاص المُصمت.» وتابعت: «ولا شكَّ أنه يحمل مفتاحه معه أو يحتفظ به في مكانٍ ما. لكني لا أعرف ما الذي يمكن أن يكون بداخله، فلم أرَه مُطلقًا يفتحه في أيِّ وقت.»

فقال: «حسنًا»، سأُضطر إلى إحضار مدير الشرطة إلى هنا، وسنُضطر إلى أن نُزعج والدتك ونجعلها تسمح لنا بإلقاء نظرةٍ على متعلقات السيد جيلفرثويت. هل زاره طبيب منذ أن أصابه المرض؟»

أجبته: «لقد زاره الطبيب واتسون بعد ظهر اليوم ... أعني ... أمسِ.»

قال الرقيب: «إذن لن يُجرى تحقيق في حالته؛ لأن الطبيب سيتمكَّن من التصديق عليها. ولكن سيُجرى تحقيق بحثٍ في قضية القتل هذه، وحيث إن جيلفرثويت أرسلك لمُقابلة الرجل الذي قُتِل ...»

فقلت: «تمهَّل قليلًا!» ثم تابعت: «أنت لا تعرف، وأنا لا أعرف، أن الرجل الذي قُتِلَ هو الرجل الذي أُرسلتُ لمقابلته. ربما كان الرجل الذي كان من المُقرَّر أن أقابله هو القاتل؛ فأنت لا تعرف مَن هو القتيل. لذا من الأفضل أن تصوغ الأمر على هذا النحو: حيث إن جيلفرثويت أرسلني لمقابلة رجلٍ ما في المكان الذي وقعَتْ فيه جريمةُ القتل؛ أليس كذلك؟»

قال بهدوء: «تلك ستكون إحدى مراوغات مُحاميك.» ثم أضاف: «إن المعنى الذي أقصده واضح بما فيه الكفاية؛ فنحن نُريد أن نكتشف — إذا استطعنا — هويةَ الشخص الذي أرسلك جيلفرثويت لمقابلته. ولأي سبب؟ وأين كان مِن المُفترَض أن ينتظره الرجل؟ وسأطلب من مدير الشرطة الحضور إلى هنا على الفور.»

فقلت: «اجعل ذلك بعد، لِنقُل، نصف ساعة.» ثم تابعت: «إن هذه قضية غريبة تمامًا، أيها الرقيب، وأنا مُتورِّط فيها كثيرًا لدرجة أنَّني لن أفعل أشياء على مسئوليتي الخاصة. سأستدعي السيد ليندسي من فراشه، وأجعله يحضر إلى هنا للحديث معه عما يجب فعله.»

فقال: «أجل، أنت على حقٍّ في ذلك.» ثم أضاف: «إن السيد ليندسي سيعرف كل الإجراءات القانونية في مثل هذه الأمور. سأنتظِر نصف ساعةٍ أو نحو ذلك، إذن.»

غادر إلى قسم شرطة المُقاطعة، وذهبتُ أنا ومايسي وتوم إلى منزلنا، ووصلنا بعد وقتٍ قصير. شعرتْ والدتي بالارتياح الشديد لرؤيتي لدرجةِ أنها امتنعت عن توبيخي في ذلك الوقت لأنني ذهبتُ في مثل هذه المهمَّة دون أن أُخبرها عن الأمر؛ لكنها فزعت للغاية عندما أخبرتُها بما صادفتُه، ونظرتْ إلى السُّلَّم وهزَّت رأسها.

قالت: «وبالفعل أتمنَّى لو لم يأتِ هذا الرجل المسكين إلى هنا أبدًا، إذا كان هذا النوع من الشقاء يتبعه!» ثم أضافت: «وعلى الرغم من أنَّني تأخرتُ في قول ذلك، يا هيو، إلا أنه كان لديَّ دائمًا شعور غامض تجاهه. على أي حال، لقد ذهب الآن؛ وتُوفِّي بكل هدوءٍ وعلى نحوٍ مفاجئ! وقد وضعناه في سريره، و... و... ما الذي يجب فعله الآن؟» وتابعت: «نحن لا نعرف مَن هو!»

فقلت: «لا تُزعجي نفسكِ، يا أُمي.» وتابعتُ: «لقد أدَّيتِ واجبكِ تجاهه. والآن بعد أن تأكدتِ أنني بأمان، سأذهب لإحضار السيد ليندسي إلى هنا وسيُخبرنا بكلِّ ما ينبغي فعله.»

تركتُ مايسي وتوم دنلوب مع والدتي وأسرعتُ إلى منزل السيد ليندسي، وبعد قليلٍ من العناء أيقظته من سريره وجعلته ينزل لُمقابلتي. في ذلك الوقت كان النهار قد طلع، وكان الصباح الرمادي يبزغ فوق البحر والنهر، بينما كنَّا نسير أنا وهو في الشوارع الخالية؛ حيث أخذتُ أخبره عن كل أحداث الليل، وأخذ هو يستمع ويتلفَّظ أحيانًا بكلمةٍ تُعبِّر عن اندهاشه. لم يكن مواطنًا من بلدتنا، ولكنه جاء من يوركشاير واشترى مكتبًا في

المدينة قبل بضع سنوات، واكتسب شخصيةً رائعة تتَّسِم بالذكاء والقدرة، وكنتُ أعلم أنه الرجل الذي يجب استشارته في قضية من هذا النوع.

علَّق قائلًا عندما أنهيتُ قصتي: «هذه القضية تنطوي على أكثر مما هو ظاهر على السطح، يا هيو يا ولدي.» ثم أضاف: «وسيُصبح عملًا رائعًا أن تكتشف كلَّ خباياها، وما إذا كان الرجل الذي قُتِلَ هو الرجل الذي أرسلك جيلفرثويت لمقابلته، أو أن شخصًا آخر قد وصل قبلك، وتخلَّص منه لسببٍ غريب لا نعرف عنه شيئًا. ولكن ثمة شيءٌ واحد مؤكَّد؛ علينا أن نجمع المزيد من المعلومات عن نزيلك المُتوفَّى. تلك هي الخطوة الأولى … والأكثر أهمية.»

كان مدير الشرطة، السيد موراي، وهو رجل ضخم وصاخب، يقف خارج منزلنا مع تشيسهولم عندما وصلنا إلى هناك، وبعد كلمةٍ أو كلمتَين بيننا، دخلنا المنزل، وعلى الفور كنا في الطابق العلوي في غرفة جيلفرثويت. استلقى هناك على سريره، وقد وُضِعَت ملاءةٌ على جسده ومنديلٌ على وجهه، وعلى الرغم من أن الشرطة ألقت نظرةً عليه بقيتُ بعيدًا؛ لأنني كنتُ منزعجًا للغاية من أحداث الليلة ولم أعُد أحتمِل المزيدَ في ذلك الوقت. ما كنتُ متلهفًا بشأنه هو معرفة بعض التفسيرات عما كان يَعنيه كلُّ هذا، وانتظرتُ بفارغ الصبر لأرى ما سيفعله السيد ليندسي. أخذ يبحث في الغرفة، وعندما أدار الآخرون ظهورهم للميت، أشار إلى ملابس جيلفرثويت، التي كانت مطوية وموضوعة بترتيبٍ على كرسيٍّ.

وقال: «أول ما يجب فعله هو البحث عن أوراقه ومفاتيحه.» ثم تابع: «فتِّش بحرصٍ في جيوبه، أيها الرقيب، ودعنا نرَ ما بها.»

ولكن لم يكن فيها أي أوراق، مثلما كان الأمر في حالة القتيل. لم تكن تُوجَد أي خطابات. لكن كانت تُوجَد خريطة للمنطقة، وقد وضعت علامات ثقيلة بقلم رصاص أزرق تحت أسماء العديد من القرى والأماكن على جانبي نهر تويد، بين بيرويك وكِلسو. وقد اعتبرت أنا، الذي كنتُ أعرف شيئًا عن عادات جيلفرثويت، أن هذه هي الأماكن التي زارها خلال الأسابيع السبعة التي أقامها معنا. ووُضِعَت في طيات الخريطة قصاصات صحف، كلُّ واحدةٍ منها عن بعض الآثار القديمة في الجوار، كما لو أن هذه الأشياء كانت تُهمه. وفي جيبٍ آخر، كان يُوجَد كتيِّب إرشادي، كان قد تُصُفِّح كثيرًا وطُبِعَت عليه علامات بإبهامه، ووُضِعَ مظروف مُسجَّل بين ورقتَين، كما لو كان علامةً على موضعٍ ما.

صحت قائلًا: «ذلك هو ما وصله بعد ظهر الأمس!» ثم أضفت: «أنا متأكِّد أن أيًّا كان ما بداخله فهو ما جعله يُرسلني في مهمةٍ الليلة الماضية، وربما تُخبرنا الرسالة التي بداخله بشيءٍ ما.»

ومع ذلك، لم تكن تُوجَد أيُّ رسالة في المظروف؛ لم يكن يُوجَد أيُّ شيء. ولكن على المظروف نفسه كان يُوجَد ختم بريدي، أشار إليه تشيسهولم على الفور.

وهو يقول: «بيبلز!» ثم تابع: «إن الرجل الذي وجدته أنت مقتولًا، كان يحمِل نصف تذكرة عودة إلى بيبلز. ثمَّة ما يمكن اعتباره دليلًا، على أي حال.»

استمروا في تفتيش الملابس، ولم يجدوا سوى نقود، الكثير منها، وملاحظاتٍ في دفتر جيبٍ قديم، وذهبٍ في حقيبةٍ من جلد شامواه، وساعة الرجل ذات السلسلة، وسكين جيبه وما شابَهَ، ومجموعة من المفاتيح. واتجه السيد ليندسي إلى الصندوق والمفاتيح في يده.

وقال: «إذا كنَّا سنجد أيَّ شيء يُلقي أيَّ ضوء على مسألة هوية هذا الرجل، فسيكون في هذا الصندوق.» ثم أضاف: «سأتحمَّل مسئولية فتحِه، لمصلحة السيدة مونيلوز، على أي حال. ارفعوه إلى تلك الطاولة، ودَعُونا نرَ ما إذا كان أحد هذه المفاتيح يُناسب القفل.»

لم يكن من الصعب العثورُ على المفتاح؛ إذ لم يكن يُوجَد سوى عددٍ قليل في مجموعة المفاتيح، وقد اكتُشف المفتاح الصحيح مباشرة، وتجمَّعنا جميعًا حوله وهو يُلقي الغطاء الثقيل للخلف. انبعثت رائحة عطرية غريبة من الداخل؛ نوع من اختلاط الأرز والكافور والتوابل، رائحة تجعلك تُفكِّر في بلادٍ أجنبية وأماكن بعيدة، وغريبة. وكانت بالفعل مجموعةً غريبة من الأشياء والأغراض التي أخرجها السيد ليندسي من الصندوق ووضعها على الطاولة. كان يُوجَد صندوق سيجار قديم، مربوط بخيط سميك، مُمتلئ حتى آخره بالنقود؛ أكثر من ألفي جنيه من الأوراق النقدية والذهب، حسبما وجدنا عندما أحصينا لاحقًا، وكانت توُجَد صناديق أخرى مملوءة بالسيجار، وكذلك أخرى عبَّأ فيها الرجل تحفًا من كل نوعٍ لم يرَ ثلاثتنا مثلها مُطلقًا. لكن السيد ليندسي، الذي كان هو نفسه جامعًا للتُّحف، أومأ برأسه عندما رأى بعضًا منها.

وقال: «أيًّا كانت الأماكن التي ذهب إليها هذا الرجل في حياته المليئة بالتَّرحال، فثمة شيءٌ واحد مؤكَّد؛ لقد أمضى الكثير من الوقت في المكسيك وأمريكا الوسطى. و... ماذا كان الاسم الذي قال لك أن تستخدِمه ككلمة مرور إذا قابلتَ رَجُلَه، يا هيو ... ألم يكن بنما؟»

أجبت: «بنما!» وتابعت: «هذا بالضبط ... بنما.»

فقال: «حسنًا، لقد جمع الكثيرَ من هذه الأشياء في تلك البلاد؛ بنما، ونيكاراجوا، والمكسيك.» ثم أضاف: «وهي أشياء مُثيرة للاهتمام للغاية. لكن ... هل تُلاحِظ، أيها

الرئيس؟ لا تُوجَد حتى ورقة أو أي شيء في هذا الصندوق يُخبِرنا عن هوية هذا الرجل، ولا من أين أتى عندما أتى إلى هنا، ولا أين يمكن العثور على أقاربه، إن كان لديه أيٌّ منهم. حرفيًّا لا يُوجَد أي شيءٍ من هذا القبيل.»

أومأ ضباط الشرطة في صمت.

واختتم السيد ليندسي حديثه قائلًا: «وهكذا … هذه هي القضية التي تواجهونها.» ثم تابع: «لديكم رجُلان ميتان، ولا تعرفون أيَّ شيءٍ عن أيٍّ منهما!»

الفصل السادس

السيد جون فيليبس

بدأ في إعادة وضع الصناديق والطرود المختلفة في الصندوق الكبير بينما كان يتحدَّث، ونظرنا جميعًا بعضنا إلى بعض مثلما يمكن أن ينظر الرجال الذين، بعد أن سلكوا طريقًا غير معروف لهم، وجدوا أنفسهم أمام جدارٍ مُصمت. لكن تشيسهولم، الذي كان رجلًا ذكيًّا، ذا عقل راجح، تحدَّث فجأة.

وقال: «تُوجَد حقيقة أن القتيل أرسل تلك الرسالة من بيبلز، ويبدو أنه سافر بنفسه من بيبلز بالأمس فقط. ربما نجِد بعض المعلومات عنه في بيبلز، ومما قد نجده، هناك أو في أي مكان آخر، قد نحصل على صلةٍ ما بينهما.»

قال السيد ليندسي: «أنت مُحقٌّ في كل ذلك، أيها الرقيب، وسيتعيَّن أن يذهب أحدكم إلى بيبلز. لأن الأمر واضح؛ لقد قُتِلَ هذا الرجل على يد شخصٍ ما، والخطوة الأولى للتوصُّل إلى ذلك الشخص هي معرفة هوية القتيل، وسبب مجيئه إلى هذه الأنحاء. أما بشأن هذا الرجل هنا»، تابع، وهو يشير باهتمامٍ نحو السرير، «فإن سِرَّه، أيًّا كان، قد ذهب معه. وسؤالنا الآن هو، هل يُمكننا معرفته بأيِّ طريقةٍ أخرى؟»

أجرَينا المزيدَ من الحديث في الطابق السفلي، واتُّفِق على أن أذهب أنا وتشيسهولم إلى بيبلز على متن أول قطارٍ في ذلك الصباح، ونكتشف قدرَ ما نستطيع هناك، ونعود للبحث في محطة كورنهيل، حيث وفقًا لنصف التذكرة التي وُجِدَتْ معه، بدا أن القتيل جاء منها مساء يوم مقتله. في هذه الأثناء، كان موراي سيجعل رجاله يفتِّشون مسرحَ الجريمة بدقةٍ وتمعُّن؛ إذ قد يكشف ضوءُ النهار عن أشياءَ لم نتمكَّن من اكتشافها بواسطة ضوء المصابيح.

قال ليندسي: «وثمة شيءٌ آخر يُمكنكم فعله.» وتابع: «تلك القصاصة من رأس فاتورة المكتوب عليها اسم وعنوان في دندي، والتي وجدتموها معه، يمكنكم إرسالُ برقية إلى هناك ومعرفة أيِّ معلومةٍ عن الرجل. أي معلومة يُمكنكم الحصول عليها بتلك الطريقة …»

اعترض تشيسهولم قائلًا: «لقد نسيت، يا سيد ليندسي، أنَّنا لا نعرف أيُّ اسمٍ يُمكننا أن ندعو به الرجل.» ثم أضاف: «سيتعيَّن علينا العثور على اسمٍ له قبل أن نُرسِل برقيةً إلى دندي أو أي مكانٍ آخر. ولكن إذا تمكَّنا من العثور على اسمٍ له في بيبلز …»

قال موراي: «أجل، ستكون تلك هي الطريقة.» ثم أضاف: «لنحصل على كل المعلومات التي يمكننا الحصول عليها خلال اليوم، وسأرتِّب الأمر مع ضابط تحقيق الوفيات من أجل الاستجواب في ذلك النُّزُل حيث أخذتموه؛ لا يمكن إجراؤه قبل صباح الغد. يا سيد ليندسي»، تابع، «ماذا ستفعل بخصوص هذا الرجل الذي يرقُد ميتًا في الطابق العلوي؟ تقول السيدة مونيلوز إن الطبيب قد زاره مرَّتَين، وسيكون بمقدوره تقديمُ شهادة؛ لذلك لن يُجرى تحقيق بشأنه، ولكن ما الذي يجب فعْله بشأنِ أصدقائه وأقاربه؟ من المُحتَمَل أنه سيكون ثمة شخصٌ ما، في مكانٍ ما. وماذا عن … كل هذه الأموال التي بحوزته وفي صندوقه؟»

هزَّ السيد ليندسي رأسه وابتسم.

ثم قال: «إذا كنتَ تظنُّ أن كلَّ هذه الأحداث ستظلُّ طي الكتمان، أيها الرئيس، فأنت لستَ رجلًا حكيمًا كما أحسبك. ليُباركك الرب، يا رجل، ستنتشر الأخبار في البلاد في غضونِ ثمانٍ وأربعين ساعة! إن كان لهذا الرجل جيلفرثويت أهلٌ، فسيُهرعون إلى هنا سريعًا كما تُهرَع الغربان إلى حقلٍ نُثِرتْ فيه البذور حديثًا! دعِ الخبر ينتشر، وستتمنَّى لو لم يُولد مراسلو الصحف أبدًا. لا يمكنك إبقاء هذه الأشياء هادئة، وإذا كنَّا نريد كشف غموض هذه القضية، فإن الدعاية هي الشيء الذي نحتاجه.»

قيل كل هذا في حضور والدتي التي، لأنها بطبيعتها هادئة للغاية، لم تكن بأي حالٍ من الأحوال مسرورةً بمعرفة أن منزلها، كما هو مُتوقَّع، سيتحوَّل إلى مركز جذب. وعندما غادر السيد ليندسي والشرطة، وبدأتْ في إعداد بعض الإفطار لي قبل ذهابي لمقابلة تشيسهولم في المحطة، شرعتْ في ندب سوءِ حظِّنا لتأجيرنا غرفةً لجيلفرثويت في المنزل، وتورُّطنا بهذا في أشياء فظيعةٍ مثل القتل. وقالت إنه كان ينبغي أن تتحقَّق من هوية الرجل، قبل أن تستقبله، وأن تعرف مع مَن كانت تتعامل. ولم يكن أيُّ شيءٍ يمكن أن أقوله أنا أو مايسي — التي كانت لا تزال موجودة هناك؛ إذ بقِيَت لتمدَّ يد العون، بعد

أن عاد توم دنلوب إلى المنزل لإخبار والده بالأخبار الهامة — سيُخرِج من رأسها فكرةَ أن جيلفرثويت، بطريقةٍ أو بأخرى، كان له علاقة بمقتل الرجل الغريب. وبصفتها أنثى، ولا تحتكِم للمنطق، لم تجد أيَّ سببٍ يدعو إلى ضجةٍ كبيرة حول هذه القضية في منزلها، بأي حالٍ من الأحوال. حيث قالت إن الرجل قد مات، وليأخذوه بعيدًا بطريقةٍ لائقة، وليحتفظوا بأمواله حتى يتقدَّم شخصٌ ما للمطالبة بها؛ كل ذلك بهدوءٍ ودون إحداث ضجة في الصحف مثلما قال السيد ليندسي.

فسألت: «وكيف لنا أن نجعل الناس يعرفون أيَّ شيءٍ عنه إذا لم تُنْشَر أخبارُ القضية في الصحف؟» ثم أضفت: «بهذه الطريقة فقط يُمكننا جعل أقاربه يعرفون أنه مات، يا أمي. أنت تنسين أنَّنا لا نعرف حتى من أين جاء الرجل!»

ردَّت بحدَّة، وهي ترمقني أنا ومايسي بنظرةٍ حادة: «ربما يكون لديَّ تصوُّر أفضل عن المكان الذي جاء منه عندما أتى إلى هنا، من أيِّ مُحامٍ أو ضابط شرطة أيضًا، يا رجلي!» ثم تابعت: «لديَّ عينان في رأسي، على أي حال، ولا يستغرق الأمر منِّي وقتًا طويلًا لأرى شيئًا كان واضحًا أمامهم.»

قلت، وقد أدركتُ بسرعةٍ كافية أن لدَيها فكرةً ما في عقلها: «ماذا؟» وتابعت: «هل اكتشفتِ شيئًا ما؟»

دون أن تجيب على السؤال بالكلمات خرجتْ من المطبخ وصعدتِ السُّلَّم، ثم عادت إلينا بعد قليل، وهي تحمِل في يدٍ ياقةَ قميص رجلٍ وفي الأُخرى سترةَ جيلفرثويت الزرقاء. وأدارت داخل الياقة نحونا، مُشيرة بإصبعها إلى بعض الكلمات المختومة باللون الأسود على الكتان.

وقالت: «انتبِها لذلك!» وتابعت: «كان لدَيه عشْر من تلك الياقات، جديدة تمامًا، عندما جاء، وهذا، كما تريان، هو المكان الذي اشتراها منه، كما اشترى، من هناك، أيضًا، بدلات جاهزة — كانت جديدة أيضًا — ها هو ذا الاسم على بطاقةٍ داخل السترة: براون برادزرز، ملابس للرجال، إكستشينج ستريت، ليفربول. ما الذي يُثبته كلُّ هذا سوى أنه جاء من ليفربول؟»

قلت: «أجل!» وتابعت: «ويثبت، أيضًا، أنه كان يريد ملابس جديدة عندما جاء إلى ليفربول من … من أين؟ من مكان بعيد للغاية، حسبما أظن! لكنه أمر تلزم معرفته بقدرِ ذلك الأمر، ولا شك أنكِ قد اكتشفتِ دليلًا قد يكون مُفيدًا يا أمي. وإذا اكتشفنا أن الرجل الآخر قد جاء من ليفربول، أيضًا، فبالقطع عندئذٍ …»

لكنني توقَّفت فجأة عند هذا الحد؛ إذ راودتني رؤيةٌ مفاجئة لعالمٍ واسعٍ للغاية لم تكن ليفربول سوى منفَذٍ له. من أين جاء جيلفرثويت عندما وصل إلى ليفربول، وتزوَّد بملابس جديدة؟ وهل أيضًا جاء هذا الرجل الغامض الذي واجه ذلك المصيرَ الرهيب من مكان بعيد، لينضم إليه في الهدف الذي جاء من أجله إلى بيرويك؟ كذلك، وهو الأمر الأكثر أهمية، وبنفس قدرِ غموض هذين الرجُلَين، ماذا عن الرجل الغامض بنفس القدر الذي كان في مكانٍ ما في الخلفية؛ القاتل؟

لم نُواجِه أنا وتشيسهولم صعوبةً كبيرة؛ في الواقع، لم نُواجه أيَّ شيءٍ يمكن أن تُسميه صعوبة، في اكتشاف شيءٍ ما في بيبلز عن القتيل. أخذنا نصف التذكرة معنا، وسرعان ما قابلنا موظف الحجز الذي أصدرها بعد ظهر اليوم السابق. وقد تذكَّر ملامح الرجل الذي كان قد باعها له ووصفه لنا على نحوٍ جيد. علاوة على ذلك، أرشدَنا إلى مُحصِّل تذاكر تذكَّر وصول نفس الرجل إلى بيبلز قبل ذلك بيومَين، وترك تذكرةَ سفرٍ من جلاسجو. كان لديه سبب لتذكُّره؛ لأن الرجل كان قد طلب منه أن يُرشِّح له فندقًا جيدًا، وأعطاه شلنَين مقابل جهده. حتى هذا، آنذاك، كانت مُهمتنا سهلة، واستمرَّت بسيطةً وسهلة خلال الفترة القصيرة التي قضيناها في بيبلز. وقد توصَّلنا إلى ما يلي: جاء الرجل الذي كنَّا نسأل عنه إلى المدينة في وقتٍ مبكِّر من بعد ظهر اليوم السابق للجريمة؛ وأقام في أفضلِ فندقٍ فيها؛ وكان يغادر ويعود طَوال فترةِ ما بعد الظهر والمساء، ومكث هناك حتى منتصف عصر اليوم التالي، عندما دفع فاتورته وغادر. وكان الاسم الذي كتبه في سجل النزلاء هو: السيد. جون فيليبس، جلاسجو.

أخرجني تشيسهولم من الفندق حيث سمعنا كلَّ هذا وسحب قصاصة رأس الفاتورة من دفتر جيبه.

وقال: «الآن بعد أن حصلنا على الاسم الذي يجب أن نتتبَّعه، سنرسل برقيةً إلى هذا العنوان في دندي ونسأل عما إذا كان يُوجَد أيُّ شيء معروف هناك عن السيد جون فيليبس. وسنطلب إرسال الرد إلى بيرويك، وسيكون في انتظارنا عندما نعود هذا الصباح.»

كان الاسم والعنوان في دندي يخصان جافين سميتون، آيجنت، ١٣١ إيه بانك ستريت. وكان السؤال الذي أرسله تشيسهولم إليه في البرقية واضحًا ومباشرًا للغاية: هل يمكنه إعطاء شرطة بيرويك أيَّ معلومات عن رجلٍ يُدعى جون فيليبس، وُجِدَ مقتولًا، واكتُشِفَ اسم السيد سميتون وعنوانه ضمن متعلقاته؟

قال تشيسهولم، عندما غادرنا مكتب البريد: «قد نحصل على شيء من ذلك، وقد لا نحصل على شيء على الإطلاق. والآن بعد أن علمنا أن هذا الرجل قد غادر من هنا إلى كولدستريم، فلنعُد إلى هناك، ونمضي قُدُمًا في تتبُّعنا لتحركاته الليلة الماضية.»

لكن عندما عُدنا إلى مَنطقتنا سرعان ما صِرنا في حيرةٍ كبيرة. حيث تذكَّر العاملون في محطة كورنهيل الرجل جيدًا. كان قد وصل إلى هناك في حوالي الساعة الثامنة والنصف من مساء اليوم السابق. وشُوهد وهو يسير في الطريق المؤدِّي إلى الجسر الذي يمرُّ فوق نهر تويد نحو كولدستريم. ولم نتمكَّن من معرفةِ ما إذا كان قد سأل أيَّ شخصٍ عن الطريق؛ بدا أنه سار في هذا الطريق فحسْب، كما لو أنه كان على دراية جيدة بالمكان. لكنَّنا حصلنا على أخبارٍ عنه في حانةٍ في الناحية الأخرى من الجسر مباشرةً. كان رجلٌ كهذا، رجل نبيل، هكذا وصفه العاملون بالحانة، قد دخل هناك، وطلب كأسًا من الويسكي، وظلَّ بضع دقائق بينما كان يشربها، وخرج مرة أخرى. ومن تلك النقطة فقدْنا كل أثرٍ له. كنا حينئذٍ، بالطبع، على بُعد أميالٍ قليلة من المكان الذي قُتِلَ فيه الرجل، وكان الناس على جانِبَي النهر جميعهم في حالةٍ من الانفعال الشديد حيال ذلك، لكن لم نتمكَّن من معرفة أيِّ معلوماتٍ أخرى. منذ اللحظة التي غادر فيها الرجل الحانة على جانب كولدستريم من الجسر، بدا أن لا أحد قد رآه حتى وجدتُ جثته بنفسي.

كانت بانتظارنا انتكاسةٌ أخرى عندما وصلنا إلى بيرويك؛ في الرَّد القادم من دندي. كان موجزًا وحاسمًا للغاية. «ليس لدَينا أيُّ معرفةٍ بأي شخصٍ يُدعى جون فيليبس — جافين سميتون.» وهكذا، في ذلك الوقت، لم يكن يُوجَد أيُّ شيءٍ يمكن الحصول عليه من تلك الجهة.

كنتُ أنا والسيد ليندسي في النُّزُل حيث نُقِلت الجثة، وحيث كان من المقَّرر إجراء التحقيق، في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، بصحبة الشرطة، ووسط حشدٍ تَجَمَّع من جميع أنحاء البلاد. بينما كنَّا نُمضي الوقت، في انتظار وصول المُحقِّق، جاء رجلٌ نبيل يركب حصانًا رائعًا كستنائي اللون؛ كان رجلًا مُسنًّا حسنَ المظهر، جذب قدومُه الكثيرَ من الاهتمام. ترجَّل عن حصانه وجاء باتجاه باب النُّزل، وبينما كان يسحب القفاز من يده اليمنى رأيتُ أن الأصبع الأولى وكذلك الثانية من تلك اليد مفقودتان. كان هذا، بلا شك، هو الرجل الذي رأيته عند مُفترق الطرق قبل اكتشاف الجريمة!

الفصل السابع

التحقيق بشأن جون فيليبس

كان العديد من أعيان المنطقة قد جاءوا إلى النُّزل بالخيول أو السيارات، يجتذبهم، الفضول، بالطبع، وانضمَّ إليهم الرجل ذو اليد المشوهة على الفور بينما وقفوا يتحدثون بعيدًا عن بقيتنا. حينئذٍ عرفت كل هؤلاء الأشخاص من منطقتنا جيدًا عندما رأيتهم، لكنني لم أكن أعرف هذا الرجل، الذي كان ينتمي بالتأكيد إلى طبقتهم، والتفتُّ إلى السيد ليندسي، وسألته عن هذا الرجل النبيل الذي كان قد وصل للتوِّ على صهوة حصانه. فنظر إليَّ في دهشةٍ واضحة من سؤالي.

وقال: «ماذا؟» ثم تابع: «ألا تعرفه؟ ذلك هو الرجل الذي دار حوله الكثير من الحديث مؤخرًا؛ السير جيلبرت كارستيرز من هاثركلو هاوس، الوريث الجديد للقب البارونية العتيق.»

عرفت على الفور ما كان يقصده. إذ بين نورهام وبيرويك، المُطلَّتين على نهر تويد، وعلى الجانب الإنجليزي من النهر، يُوجَد مكان عتيق، ورائع، وخيالي، شبْه قصر، وشبْه قلعة، يقع في أراضيه الخاصة، ومعزول عن بقية العالم بجدرانٍ عالية وبساتين من الصنوبر والتنوب، وكان مملوكًا منذ عدة أجيال إلى عائلة كارستيرز العتيقة. وكان آخر مالك له، السير ألكساندر كارستيرز، البارونيت السادس، منعزلًا إلى حدٍّ كبير، ولا أتذكَّر مُطلقًا أنني رأيته سوى مرةٍ واحدة، عندما لمحتُه يقود سيارته في البلدة؛ كان رجلًا مُسنًّا للغاية بدا مثلما كان عليه حقًّا، ناسكًا. كان أرملًا لسنواتٍ عديدة، وعلى الرغم من أنه كان لدَيه ثلاثة أطفال، بدا أنه لم يتمتَّع بصحبتهم إلَّا قليلًا؛ لأن ابنه الأكبر، السيد مايكل كارستيرز، كان قد رحل منذ فترة طويلة إلى بلادٍ أجنبية ومات هناك، وكان ابنه الأصغر، السيد جيلبرت، حسبما علمنا، طبيبًا في لندن، ولم يَدنُ مُطلقًا من القصر العتيق؛ وابنته الوحيدة، السيدة رالستون، على الرغم من أنها كانت تعيش على بُعد عشرة أميال من

والدها، لم تكن على علاقةٍ جيدة به. قيل إن الرجل العجوز كان غريب الأطوار وغير طبيعي، ومن الصعب إرضاؤه أو التعامُل معه؛ أيًّا كان الأمر، من المؤكَّد أنه عاش حياةً وحيدةً حتى تجاوز الثمانين من عمره. وكان قد مات فجأة، قبل قدوم جيمس جيلفرثويت ليسكن في منزلنا بمدةٍ قصيرة؛ ونظرًا لوفاة السيد مايكل، دون أن يتزوَّج، ومن ثَمَّ دون عائلة، فقد انتقل اللقب والملكية إلى السيد جيلبرت، الذي كان قد جاء مؤخرًا إلى هاثركلو هاوس واستحوذ عليه، وأحضر معه — رغم أنه هو نفسه كان كبيرًا في السن، وبالتأكيد تجاوز الخمسين — زوجةً شابةً جميلةً كان، كما قالوا، قد تزوَّجها مؤخرًا، وكانت، وفقًا للروايات المتنوِّعة التي انتشرت، هي نفسها امرأةً ثرية جدًّا.

إذن كان السير جيلبرت كارستيرز، البارونيت السابع، واقفًا أمامي، يتبادل الحديث مع بعض السادة الآخرين من المنطقة، ولم يكن يُوجَد شكٌّ في ذهني في أنه هو الرجل الذي رأيتُه على الطريق ليلةَ وقوع الجريمة. كنتُ حينئذٍ قريبًا منه بما يكفي للنظر إلى يدِه بتدقيقٍ أكبر، ورأيتُ أن الأصبعَين الأُوليَين كانتا قد اختفتا تمامًا، وأن ما تبقَّى منها كان مُجرَّد مخلب. كان من المُستبعَد أنه يمكن أن يُوجَد رجلان في منطقتنا لديهما نفس الإعاقة. علاوة على ذلك، أقنعتني البنية العامة للرجل، وبدلة التويد الرمادية التي كان يرتديها، والأسلوب الذي كان يقف به، أن هذا هو الشخص الذي رأيتُه عند مُفترَق الطرق، مُسلِّطًا مصباحه الكهربي على خريطته. واتخذتُ قراري في التوِّ واللحظة ألَّا أذكر شيئًا خلال استجوابي عن ذلك اللقاء؛ لأنه لم يكن لديَّ سبب لربط رجلٍ نبيل مثل السير جيلبرت كارستيرز بجريمة القتل، وبدا لي أنَّ تَواجُدَه عند مُفترق الطرق كان يمكن تفسيره بسهولةٍ كافية. إذ كان رجلًا رياضيًّا، ضخمَ الجثة، ومن المُحتمَل أنه كان مولعًا بالمشي، وأراد التنزُّه في ذلك المساء، ولأنه لم يكن حتى ذلك الوقت على درايةٍ كافية بالمنطقة — إذ عاش بعيدًا عنها لفترة طويلة — فقد ضلَّ بطريقةٍ ما عن طريق العودة إلى المنزل. كلَّا، لن أقول شيئًا. كنت قد نشأت على إيمانٍ راسخ بالمَثَل القديم الذي يقول إن الكلام القليل يسهُل إصلاحه. اكتظَّت بنا جميعًا القاعة الكبيرة في النُّزل عندما بدأ مُحقِّق الوفيات تحقيقه. وفي بداية الإجراءات أدلى بملاحظةٍ توقَّعناها جميعًا، نحن الذين كنا نعرف كيف تجري هذه الأمور وتمضي خطواتها. لم نتمكَّن من فعلِ الكثير في ذلك اليوم، ووجب التأجيل، بعد الاطلاع على ما قد يُسمِّيه الأدلة الظاهرية. وأشار إلى أنه قد فهِم، مع توجيه نظرةٍ ذاتِ مغزًى نحو مسئولي الشرطة ومحامٍ واحدٍ أو اثنين حضرا الجلسة، أن ثمَّة بعضَ الغموض غير العادي في خلفية هذه القضية، وأنه يجب تسليط

الضوء على أشياء كثيرةٍ قبل أن تتوصَّل هيئة المُحلَّفين حتى إلى فكرةٍ عمَّن قتل الرجل الذي عُثِرَ على جثته، وعن سبب مقتله. وتابع قائلًا إن كلَّ ما يُمكنهم فعله في ذلك اليوم، هو سماع تلك الأدلة، التي لم تكن كثيرة، كما جُمِعتْ بالفعل، ثم رفع الجلسة.

كان السيد ليندسي قد قال لي أثناء ذهابنا بالسيارة إلى النُّزل أنني سأُعتَبَر الشاهد الرئيسي، وأن جيلفرثويت سيكون عنصرًا جوهريًّا في القضية على نحوٍ أكبرَ مما تخيَّل أيُّ أحد. وبالطبع، سرعان ما تأكَّد هذا. ما كان يمكن أن يُقال عن القتيل، حتى ذلك الوقت، كان قليلًا. كان يُوجَد دليل طبي على أنه تعرَّض للطعن حتى الموت بضربةٍ من سكينٍ أو خنجر كبير، سُدِّدَ إلى قلبه من الخلف. وكانت تُوجَد الأدلة التي جمعتُها أنا وتشيسهولم في بيبلز ومحطة كورنهيل، وفي الحانة على الجهة الأخرى من جسر كولدستريم. وكانت لديهم البرقية التي أرسلها السيد جافين سميتون، أيًّا كان، من دندي. وكان هذا كلَّ شيءٍ تقريبًا، ومن ثم خَلُصَ الأمر إلى هذا: كان ثمَّة رجل، أثناء التسجيل في أحد فنادق بيبلز، أطلق على نفسه اسم جون فيليبس وكتب أنه جاء من جلاسجو، حيث، حتى تلك اللحظة، كانت الشرطة قد أخفقت في تتبُّع أيِّ شيءٍ له صلة بهذا الشخص؛ وسافر هذا الرجل إلى محطة كورنهيل من بيبلز، وشُوهد في حانةٍ مجاورة، ثم اختفى، وعُثِرَ عليه، بعد حوالي ساعتَين، مقتولًا في مكانٍ منعزل.

قال مُحقِّق الوفيات: «والسؤال الذي يطرح نفسه هو، ماذا كان هذا الرجل يفعل في ذلك المكان، ومن الذي كان من المُحتمَل أن يلتقي به هناك؟ لدينا بعض الأدلة في تلك النقطة»، ثم أضاف، مع نظرةٍ ذكية نحو رجال القانون أمامه وأُخرى نحو أعضاء هيئة المُحلَّفين إلى جانبه، «وأظن أنكم، أيها السادة المُحلَّفون، ستجدون هذا كافيًا لإثارة شهيَّتكم للمزيد.»

كانوا قد أبقوا شهادتي للنهاية، وإن كان ثمة قدرٌ كبير من الإثارة المكبوتة في الغرفة المزدحمة أثناء تقديم تشيسهولم والطبيب ومالك الحانة على الجانب الآخر من جسر كولدستريم شهاداتهم؛ فقد كان أكثر بكثيرٍ عندما نهضتُ لأروي قصتي، ولأجيب على أي أسئلةٍ يرغب أيُّ شخصٍ في طرحها عليَّ. كانت قصتي، بالطبع، مباشِرة للغاية، حكيتها في بِضع جُمل، ولم أُدرك القدرَ الكبير من الاستجواب الذي يُمكن أن ينشأ عنها. ولكن سواء كان ذلك بسبب تخيُّله أنني أُخفي معلومةً ما، أو أنه أراد، حتى في تلك المرحلة الأولية من الإجراءات، أن يجعل الأمور واضحةً قدرَ الإمكان، فقد بدأ مُحامٍ كان يمثِّل شُرطة المقاطعة في طرح الأسئلة عليَّ.

حيث سأل: «هل كان يُوجد أيُّ شخصٍ آخر معك في الغرفة عندما أعطاك ذلك الرجل جيلفرثويت أوامره؟»

أجبته: «كلَّا، لم يكن يُوجَد أحد.»

«وهل أخبرتني بكلِّ ما قاله لك؟»

«بقدرِ ما يُمكنني أن أتذكَّر كل كلمة.»

«ألم يصف الرجل الذي كنتَ ستُقابله؟»

«لم يفعل ذلك مطلقًا.»

«ولا أخبركَ باسمه؟»

«ولا أخبرني باسمه.»

«حتى لا يُصبح لديك أيُّ فكرةٍ عن الشخص الذي ستُقابله، ولا لأيِّ غرضٍ كان آتيًا لمقابلة جيلفرثويت، لو كان جيلفرثويت قادرًا على مقابلته؟»

قلت: «لم يكن لدي أيُّ فكرة.» وأضفت: «لم أكن أعرف شيئًا سوى أنني سألتقي برجلٍ وأعطيه رسالة.»

بدا وكأنه يفكِّر في الأمور قليلًا، ملتزمًا الصمت، ثم انطلق في مسار آخر.

وسأل: «ماذا تعرف عن تحرُّكات هذا الرجل جيلفرثويت أثناء إقامته مع والدتك؟»

فأجبته: «لا شيء تقريبًا.»

وسأل: «ولكن ما مقدارُ ما تعرفه؟» وتابع: «لعلَّك تعرف شيئًا.»

كرَّرت: «بحسْب معرفتي، لا شيء تقريبًا.» ثم أضفت: «لقد رأيته في الشوارع، وعلى الرصيف، ويتمشى بجوار الأسوار وفوق جسر بوردر بريدج، وسمعتُه يقول إنه زار الريف. وهذا كل شيء.»

سأل: «هل كان دائمًا بمُفرده؟»

فأجبته: «لم أرَه مع أحدٍ مُطلقًا، ولم أسمع أبدًا أنه تحدَّث مع أحد، ولا عن رغبته في مقابلة أحدٍ في المكان.» ثم أضفت: «وأولًا وأخيرًا، لم يأتِ بأيِّ أحدٍ إلى منزلنا، ولا حضر أيُّ أحدٍ ليسأل عنه.»

قال: «وباستثناء ذلك الخطاب المُسجَّل الذي سمعنا عنه، لم يتسلَّم أيَّ خطاباتٍ طوال الوقت الذي أقامه معكم؟»

قلت: «ولا خطابًا واحدًا.» «من بداية إقامته وحتى نهايتها، ولا واحدًا.»

سكتُّ مرةً أخرى لبعض الوقت، وكان كل الناس يُحدِّقون فيه وفيَّ؛ ولم أستطِع التفكيرَ في الأسئلة الأخرى التي يمكن أن يُخرجها من دماغه ليطرحها عليَّ. لكنه وجد واحدًا، وطرحه مع نظرةٍ حادة من عينه.

سأل: «الآن، هل أعطاك هذا الرجل، بينما كان في منزلكم، أيَّ سببٍ كان لمجيئه إلى بيرويك؟»

أجبت: «أجل؛ فعل ذلك عندما جاء ليطلُب غرفةً للإيجار. حيث قال إن لديه أقاربَ دُفنوا في الجوار، وكان لديه رغبة في إلقاء نظرةٍ على قبورهم والأماكن القديمة التي عاشوا فيها.»

سأل: «يُعطيك هذا، في الواقع، انطباعًا بأنه إما كان مواطنًا من هذه الأنحاء، أو أنه عاش هنا في وقتٍ ما، أو كان لدَيه أقارب؟»

أجبته: «بالضبط.»

فسأل: «هل أخبرك بأسماء هؤلاء الأقارب، أو أين دُفنوا، أو أي شيءٍ من هذا القبيل؟»

قلت: «لا ... مُطلقًا.» وأضفت: «لم يذكرِ الأمرَ مرةً أخرى.»

سأل: «ولا تعلَم أنه قد ذهب إلى أيِّ مكانٍ مُعيَّن لزيارةٍ في أيِّ قبرٍ أو منزل معيَّن؟»

أجبته: «كلَّا؛ لكننا عَلِمنا أنه تنزَّه في الريف على ضفتي نهر تويد.»

تردَّد قليلًا، ونظر إليَّ ثم إلى أوراقه، وبعد ذلك، جلس، وهو يُلقي نظرةً خاطفة على مُحقِّق الوفيات. فأومأ له المُحقق، كما لو كان هناك ثمَّة تفاهمٌ ما بينهما، والتفت إلى المُحلَّفين.

وقال: «قد يبدو الأمر خارج نطاق هذا التحقيق، أيها السادة، ولكن من الواضح أن وجود هذا الرجل جيلفرثويت في الحي له علاقة كبيرة بمَوت الرجل الآخر، الذي نعرفه باسم جون فيليبس، بحيث يجب ألا نتجاهل أيَّ دليلٍ ذي صلة. ثمة رجل محترم موجود هنا يمكنه إخبارنا بشيءٍ ما. استدعِ القسَّ سيبتيموس ريدلي.»

الفصل الثامن

سجلَّات الأبرشية

كنتُ قد لاحظتُ القسَّ السيد ريدلي جالسًا في القاعة مع بعض السادة الآخرين من الحي، وتساءلت عما أتى به، وهو رجل دين، إلى هناك. كنتُ أعرفه جيدًا بالنظر. حيث كان نائبًا لأبرشية وحيدة مُنعزلة بعيدًا أعلى التلال؛ وهو رجل طويل، ونحيف، ذو مظهرٍ مُتأمِّل قد تراه أحيانًا في شوارع بيرويك، يمشي بسرعةٍ كبيرة وعيناه على الأرض، كأنه، كما يقول الصغار، كان يبحث عن ستة بنسات؛ وما كنتُ أظن أنه من المُحتمل أن ينجذِب إلى قضيةٍ من هذا النوع لمجرَّد الفضول. وأيًّا كانت شخصيته فوق منبر الوعظ، فقد بدا مُتوترًا وخجولًا جدًّا وهو يقف بين مُحقق الوفيات وهيئة المُحلَّفين للإدلاء بشهادته.

همس السيد ليندسي في أذني: «ما الذي سنسمَعه الآن؟» وتابع: «ألم أُخبرك أنه سيكون ثمة اكتشافات حول جيلفرثويت، يا هيو، يا بني؟ حسنًا، شيءٌ سينكشف! ولكن ما الذي يمكن أن يعرفه هذا القس؟»

حسبما اتضح سريعًا، كان السيد ريدلي يعرف الكثيرَ. بعد قليلٍ من الاستجواب الأوَّلي، الذي أُجري بالطريقة القانونية الصحيحة فيما يتعلَّق بالتحقق من هويته، وما إلى ذلك، طرح عليه المُحقِّق استفسارًا واضحًا. وسأل: «يا سيد ريدلي، هل تعاملتَ مؤخَّرًا مع هذا الرجل جيمس جيلفرثويت، الذي ذُكِر للتوِّ فيما يتَّصِل بهذا التحقيق؟»

أجاب رجل الدين: «بعض التعامُلات في الآونة الأخيرة، أجل.»

قال المُحقِّق: «إذن أخبِرنا، بطريقتك، عن ماهية تلك التعامُلات.» وأضاف: «و، بالطبع، متى حدثت.»

قال السيد ريدلي: «لقد جاء جيلفرثويت إليَّ، في مقرِّ إقامتي، منذ حوالي شهر أو خمسة أسابيع. وكنت قد رأيتُه سابقًا حول الكنيسة وفِنائها. وأخبرني أنه مُهتم بسجلات الأبرشية، وبالآثار عمومًا، وسأل عما إذا كان يُمكنه الاطلاع على سجلاتنا، وعرض دفْع

أيِّ رسوم يجب تحصيلها. فسمحتُ له بالاطلاع على السجلَّات، لكنني سرعان ما اكتشفتُ أن اهتمامه كان مقتصرًا على فترةٍ معينة. كانت الحقيقة، أنه يرغب في فحص البيانات المُختلفة التي سُجِّلت بين عامي ١٨٧٠ و١٨٨٠. أصبح ذلك واضحًا جدًّا؛ ولكن بما أنه لم يُعبِّر عن رغبته بكلماتٍ كثيرة، فقد سايرته. ومع ذلك، بما أنني كنتُ معه طوال الوقت الذي كان يفحص فيه السجلات، فقد رأيتُ ما كان يفحصه.»

عندئذٍ توقَّف السيد ريدلي، ناظرًا إلى المُحقِّق.

ثم قال: «ذلك في الحقيقة كلُّ ما يُمكنني قوله.» وأضاف: «لقد جاء إليَّ في تلك المناسبة فقط.»

علَّق المُحقِّق مبتسمًا: «ربما يُمكنني الحصول على المزيد منك، يا سيد ريدلي.» ثم أضاف: «سؤال أو اثنان، الآن. ما هي تحديدًا السجلات التي فحصها هذا الرجل؟ المواليد، الوفيات، الزيجات؛ أيها؟»

أجاب السيد ريدلي: «ثلاثتها جميعًا، بين التواريخ التي ذكرتها؛ من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٠.»

«هل ظننتَ أنه كان يبحث عن بياناتٍ مُعينة؟»

«لقد ظننتُ ذلك بالتأكيد.»

سأل المُحقِّق، مع نظرةٍ ذكية: «هل بدا أنه وجدها؟»

أجاب السيد ريدلي ببطء: «لو كان قد وجد تلك البيانات، فهو لم يُعطِ أيَّ إشارةٍ على ذلك؛ ولم ينسخ أو يكتُب ملاحظةً عنها، ولم يطلُب مني أيَّ نسخةٍ منها. إن انطباعي، لو كان ذا قيمة، هو أنه لم يجد ما يُريده في سجلاتنا. أنا مُقتنع للغاية بذلك لأن ...»

هنا توقَّفَ السيد ريدلي، كما لو كان غير مُتأكِّدٍ هل يجب أن يتابع أم لا؛ ولكن مع إيماءةٍ مُشجِّعةٍ من المُحقِّق تابع حديثه.

وأضاف: «كنتُ سأقول فقط، ولا أفترض أن هذا دليل، إنني قد فهمتُ أن هذا الرجل زار العديد من إخوتي من رجال الدين في المنطقة لنفس المهمة. وقد تحدَّثنا عن ذلك في الاجتماع الأخير بمقرِّ عمادتنا الريفية.»

قال المُحقِّق باهتمام: «أه!» وتابع: «يبدو، إذن، أنه كان يتنقَّل لفحص سجلات الأبرشية، يجب أن نحصُل على المزيد من الأدلة على ذلك لاحقًا، لأنني مُقتنع أن له تأثيرًا على موضوع هذا التحقيق الحالي. ولكنْ لديَّ سؤال أو سؤالان آخران، يا سيد ريدلي. تُوجَد رسوم مُحدَّدة مقابل البحث في السجلات، حسبما أعتقد. هل دفعها جيلفرثويت في حالتك؟»

ابتسم السيد ريدلي.

وأجاب: «إنه لم يدفع الرسوم فقط، لكنه أجبرني على قَبول تبرُّعٍ من أجل صندوق الفقراء. لقد استرعى انتباهي أنه كان رجلًا يميل إلى التصرُّف بكرَم في أمواله.»

نظر المُحقِّق إلى المحامي الذي يُمثِّل الشرطة.

وسأل: «هل تُريد أن تُوجِّه إلى هذا الشاهد أيَّ أسئلة؟»

قال المحامي: «أجل.» ثم التفت إلى السيد ريدلي. «هل سمعتَ ما قاله الشاهد هيو مونيلوز؛ إن جيلفرثويت كان قد ذكر عند مجيئه إلى بيرويك أنَّ لديه أقاربَ مدفونين في المنطقة؟ هل سمعته؟ حسنًا، يا سيد ريدلي، هل تعرف ما إذا كان يُوجَد أشخاص بهذا الاسم مدفونون في فناء كنيستك؟»

أجاب السيد ريدلي على الفور: «لا يُوجَد.» ثم أضاف: «علاوة على ذلك، فإن اسم جيلفرثويت غيرُ مُسجَّل في سجلات أبرشيتنا. إن لديَّ فهرسًا كاملًا للسجلات منذ عام ١٥٨٠، عندما بدأ الاحتفاظ بها، ولا يُوجَد مثل هذا الاسم فيها. يُمكنني أيضًا أن أُخبرك بهذا»، أضاف، «وأظن أنه يُمكنني القول، إنني أُمثِّل ما يمكن اعتباره سلطةً على سجلَّات الأبرشية في هذه المقاطعة، لقد أعددتُ وكتبتُ العديد منها للنشر، وأنا على درايةٍ بمعظمها. ولا أظنُّ أن ذلك الاسم، جيلفرثويت، قد ورد في أيٍّ منها.»

سأل المحامي: «ماذا تستنتج من ذلك، إذن؟»

أجاب السيد ريدلي: «إن أيًّا ما كان الذي يبحث عنه الرجل — وأنا مُتأكد من أنه كان يبحث عن شيءٍ ما — فلم يكن ذا صلةٍ ببيانات عائلة والده.» ثم أضاف: «هذا، بالطبع، إن كان اسمه حقًّا هو ما أطلقه على نفسه؛ جيلفرثويت.»

قال المُحقِّق: «بالضبط!» وتابع: «ربما كان اسمًا مُستعارًا.»

علَّق المحامي قائلًا: «ربما كان الرجل يبحث عن بيانات عائلة والدته.»

قال المُحقِّق: «ذلك الخطُّ الفكري سيقودنا بعيدًا جدًّا الآن.» ثم التفت إلى هيئة المُحلَّفين. وقال: «لقد سمحتُ بهذه الشهادة عن الرجل جيلفرثويت، أيها السادة، لأنه من الواضح جدًّا أن جيلفرثويت جاء إلى هذه المنطقة لغرضٍ خاص، وأراد الحصول على بعض المعلومات المُحدَّدة، ومِن المُحتمَل جدًّا أن يكون الرجل الذي نُحقِّق في ظروفِ وفاته شريكًا له في غرضه. ولكن لا يُمكننا إجراء المزيد من التحقيق اليوم»، وقال مُختتمًا، «وسأُرجِئ التحقيقَ لمدة أسبوعين، عندما يُوجَد، بلا شك، المزيدُ من الأدلة لعرضها عليكم.»

أظن أن الناس الذين كانوا قد احتشدوا في تلك القاعة مُفعَمين جميعًا بالحماس لسماعِ أيٍّ مما يمكن قوله، قد خرجوا منها في حيرةٍ أكثر مما كانوا عليه عندما دخلوا. انقسموا إلى مجموعاتٍ خارج النُّزل، وبدءوا في مناقشة الأمور فيما بينهم. وبعد قليل، جاء إليَّ شابان أنيقا المظهر، كنتُ قد رأيتُهما يُدوِّنان الملاحظات عند طرَف الطاولة الكبيرة حيث يجلس المُحقِّق والمسئولون، وأخبراني أنهما صحفيَّان، أُرسِلا خصيصًا، أحدهما من إدنبرة، والآخر من نيوكاسل، وتوسَّلا إليَّ أن أُقدِّم لهما سردًا أمينًا ومُفصلًا لأفعالي وخبراتي في ليلة وقوع الجريمة؛ كان يُوجَد بالفعل اهتمام كبير بهذه القضية في جميع أنحاء البلاد، حسبما أكَّدا، وكلُّ ما يُمكنني إخبارهما به سيُحقِّق نسبة قراءةٍ رائعة وسيُطبع بالبُنط العريض في صحيفتيهما. لكن السيد ليندسي، الذي كان قريبًا، أمسك بذراعي وأبعدَني عن هؤلاء الباحثين اللحوحين في طلب الأخبار.

وقال بلطف: «ليس الآن، أيها الشابان!» وأضاف: «إن لديكما الكثير لتُتابعاه؛ لقد سمعتُما الكثير بالداخل هذا الصباح مما سيُبقي قرَّاءكُما مُنشغِلين لفترة. لا تُصرِّح بكلمةٍ واحدة، يا هيو! أما أنتما، أيها السيدان، إن كنتما تُريدان أن تفعلا شيئًا من أجل كشف هذا الغموض، والمساعدة في تحقيق العدالة، فثمَّة شيء يمكنكما فعله، ولا يمكن لأحدٍ أن يفعله على نحوٍ أفضل.»

سأل أحدهما بلهفة: «وما هو؟»

أجاب السيد ليندسي: «اسألا من خلال صحيفتيكما عن الأقارب، والأصدقاء، والمعارف، وأيِّ شخص يعرفهما أو يعرف عنهما أيَّ معلومات، عن هذين الرجُلين، جيمس جيلفرثويت وجون فيليبس.» ثم أضاف: «وانشُرا الخبرَ في الخارج بقدرِ ما ترغبان وتستطيعان! إن كان لديهما أقارب ومعارف، فليتقدَّموا. لأنه»، تابع، وهو يَحدِجهم بنظرةٍ مدروسة، «ثمة غموض في هذه القضية أكبر مما قد يتصوَّر أيُّ شخص، وكلَّما اكتشفنا معلوماتٍ أكثرَ حُلَّت في وقتٍ أبكر. وسأقول هذا لكما أيها الشابان: يُمكن للصحافة أن تفعل أكثر من الشرطة. ثمة فرصة أمامكما!»

ثم قادني مُبتعدًا، وركبنا العربةَ التي كنَّا قد خرجنا بها أنا وهو من بيرويك، وبمجرَّد أن بدأنا طريقَ العودة إلى المنزل، استغرق في تفكيرٍ عميق واستمرَّ فيه حتى أصبحت البلدة على مرمى البصر.

ثم صاح فجأة، وقد انتفض أخيرًا من حلم يقظته: «هيو، يا ولدي!» وتابع: «سأدفع نصف عمري إن استطعتُ أن أرى غموض هذه القضية ينكشف! إن لديَّ خبرةً في القانون

تبلغ اثنين وعشرين عامًا، وقد صادفتُ بعض الأمور الغريبة، وبعض الأمور الغامضة، وبعض الأمور السيئة في حياتي؛ لكني أُقسِم أنني لم أصادِف يومًا ما هو أغرب وأسوأ وأكثر غموضًا مثل هذه القضية؛ هذه حقيقة!»

سألته، وقد عهدتُه رجلًا فطنًا بشكلٍ غير مألوف: «هل تظنُّ أن هذه القضية تنطوي على كل هذا، يا سيد ليندسي؟»

أجاب: «أظنُّ أنه يُوجَد الكثير من الجوانب الخفية.» ثم أضاف: «نعرف أنه تُوجَد جريمة قتل دموية قد وقعت — وربما سيقع المزيد، أو ربما وقع المزيد بالفعل. ما الذي كان ذلك العجوز الغامض جيلفرثويت يسعى خلفه؟ وما الذي حدث في الفترة بين خروج فيليبس من تلك الحانة عند كولدستريم بريدج وعثورك على جثته؟ مَن قابل فيليبس؟ مَن الذي أودى به إلى مقتله؟ وما الذي كان الاثنان يسعيان خلفه في هذه الناحية من الريف؟ ثمَّة غموض أسود، يا ولدي، على كل الأصعدة!»

لم أجد إجابةً آنذاك. كنتُ أفكِّر، وأتساءل عما إذا كان ينبغي أن أخبره بأمر مُشاهدتي للسير جيلبرت كارستيرز عند مُفترق الطرق. كان السيد ليندسي هو بالضبط الرجل الذي يمكنك إخباره بأي شيء، وربما كان مِن الأفضل لو أنني كنتُ قد أخبرته بهذا الأمر في التوِّ واللحظة. ولكن تُوجَد نزعةٌ غريبة من الحذَر والتحفُّظ في عائلتنا. تعلَّمتُها من أبي وأمي، وتعمَّقَت في شخصيتي مع الوقت، ولم أستطِع أن أجبر نفسي على الاشتباه في الرجل الذي قد يكون وجوده بالقُرب من مكان القتل بريئًا بدرجة كافية. لذلك أمسكتُ لساني.

قال، بعد برهة: «أتساءل هل كل الدعاية في الصحف ستؤدي إلى تقدُّم أيِّ شخصٍ من معارفهما؟» وتابع: «يجِب أن تفعل! إن كان يُوجَد أيُّ معارف لهما.»

ولكن، لم نسمع نحن أو الشرطة أيَّ أخبارٍ جديدة طيلة ثلاثة أو أربعة أيام؛ وبعد ذلك — أظن أنه كان اليوم الرابع بعد التحقيق — نظرت من فوق طاولتي في مكتب السيد ليندسي الخارجي بعد ظُهر أحد الأيام لأرى مايسي دنلوب تدخُل من الباب، وتتبعها امرأة مُسنَّة، ترتدي ملابس متواضعة ولكن محترمة، وهي غريبة عن البلدة.

قالت مايسي، وهي تقترب إلى جانبي: «هيو، لقد طلبَتْ منِّي والدتك إحضار هذه المرأة لمقابلة السيد ليندسي. لقد جاءت للتوِّ من الجنوب، وتقول إنها أخت جيمس جيلفرثويت.»

الفصل التاسع

تاجر الأدوات البحرية

كان السيد ليندسي يقف داخل غرفته عندما جاءت مايسي والمرأة الغريبة إلى المكتب، وعند سماعه ما قيل، دعانا ثلاثتنا جميعًا للدخول إليه. ومثلما فعلت، نظر إلى المرأة بقدرٍ كبيرٍ من الفضول، وأراد، مثلما فعلت، أن يلحَظ بعض الشَّبه بينها وبين الرجل المُتوفَّى. لكن لم يكن يُوجَد أي شبهٍ يمكن ملاحظته؛ لأنه في حين أن جيلفرثويت كان رجلًا ضخمًا وقويًّا، كانت هذه المرأة هزيلة وضئيلة الحجم، وجعلتها ملابسها السوداء الباهتة تبدو أكثر نحافةً وضآلة مما كانت عليه في الواقع. على الرغم من ذلك، عندما تحدَّثت أدركتُ أنه يُوجَد شبهٌ بينهما؛ لأن حديثها كان، مثل حديثه، مختلفًا تمامًا عن حديثنا في بوردر.

بدأ السيد ليندسي الحديث، مُشيرًا للزائرة بالجلوس، وأومأ لمايسي بالبقاء معنا، وقال: «إذن أنتِ تعتقدين أنكِ أخت هذا الرجل جيمس جيلفرثويت، يا سيدتي؟» وتابع: «ما اسمكِ، إذن؟»

أجابت المرأة: «أعتقد أن هذا الرجل الذي تحدَّثت عنه الصحف هو أخي، يا سيدي.» وتابعت: «وإلا ما كنتُ سأتكبَّد عناء قطع كل هذا الطريق. اسمي هانسون، السيدة هانسون. أتيت من جارستون، بالقُرب من ليفربول.»

قال السيد ليندسي، وأومأ برأسه: «أجل، هكذا إذن، امرأة من لانكشاير.» ثم أضاف: «إن اسمكِ هو جيلفرثويت، إذن، قبل أن تتزوَّجي، أليس كذلك؟»

أجابت: «بالتأكيد، يا سيدي، مثل جيمس.» وتابعت: «هو وأنا الشخصان الوحيدان اللذان يحمِلان هذا الاسم. لقد أحضرتُ معي أوراقًا تثبت ما أقول. لقد ذهبتُ إلى محامٍ قبل أن آتي، وطلب مني الحضورَ على الفور، وإحضارَ شهادة زواجي، ونسخةً من شهادة ميلاد جيمس، وشيئًا أو شيئين آخرَين من هذا القبيل. لا شك أن هذا الرجل الذي قرأنا

عنه في الصحف هو أخي، وبالطبع أودُّ تقديم مُطالبتي بما تركه، إن لم يكن قد تركه لأي شخصٍ آخر.»

قال السيد ليندسي: «قطعًا.» وتابع: «حسنًا، وكم مرَّ من الوقت منذ آخر مرةٍ رأيتِ فيها أخاكِ؟»

هزَّت المرأة رأسها وكأن هذا السؤال كان صعبًا.

ثم أجابت: «لا أستطيع أن أجزم إن كانت مدة عامٍ أو عامَين، كلَّا، ولا حتى بضعة أعوام.» وأضافت: «وعلى حدِّ علمي يا سيدي، منذ ثلاثين عامًا، على الأقل. كان ذلك مباشرةً بعد زواجي من هانسون، وكنتُ آنذاك في حوالي الثالثة والعشرين، وأنا الآن في السادسة والخمسين. لقد جاء جيمس، مرةً واحدة، لرؤيتي أنا وهانسون بعد فترةٍ وجيزة من استقرارنا، ولم أرَه منذ ذلك اليوم حتى هذه اللحظة. لكن، أستطيع أن أُميز ملامحه الآن.»

قال السيد ليندسي: «لقد دُفن بالأمس.» ثم أضاف: «إنه لأمر مؤسِف أنكِ لم تُرسلي برقية لأحدنا.»

ردَّت السيدة هانسون: «إن المُحامي الذي ذهبتُ إليه، يا سيدي، قال: «اذهبي بنفسكِ»!» وأضافت: «لذا سافرتُ إلى هنا، على الفور هذا الصباح.»

قال السيد ليندسي: «دعيني أُلقي نظرةً على تلك الأوراق.»

أشار لي كي أنتقل إلى جانبه، وفحصنا معًا وثيقتَين أو ثلاثًا أخرجتها المرأة.

كان أهمها نسخةً موثَّقة من شهادة ميلاد جيمس جيلفرثويت، والتي أثبتت أن هذا الرجل وُلِد في ليفربول قبل حوالي ٦٢ عامًا؛ وذلك، كما أشار السيد ليندسي سريعًا، كان يتوافَق مع ما قاله جيلفرثويت لي ولأُمِّي عن عمره.

قال، وهو يلتفت إلى السيدة هانسون: «حسنًا، يُمكنكِ الإجابةُ على بعض الأسئلة، بلا شك، حول أخيك، وحول الأمور ذات الصلة به. وأولها هو، هل تعرفين ما إذا كان أيٌّ من أفراد عائلتك ينحدِر من هذه البلدة؟»

فأجابت: «لم أسمع عن هذا الأمر من قبل يا سيدي.» وتابعت: «كلَّا، أنا مُتأكدة من أنهم لم يكونوا كذلك. كانوا جميعًا من لانكشاير، من كِلا الجانبَين. أعرف كلَّ شيءٍ عنهم منذ عهد جدي الأكبر وجدتي الكبرى.»

سألها السيد ليندسي، وهو ينظر نحوي نظرةً خاطفةً: «هل تعرفين إن كان أخوكِ قد جاء إلى بيرويك وهو صبي؟»

قالت السيدة هانسون: «ربما يكون قد فعل ذلك، يا سيدي.» وأضافت: «لقد كان فتًى ضخمًا، بارعًا، قويًّا، وقد فرَّ للعمل في البحر عندما كان في العاشرة من عمره؛ لم يكن قد وجد أيَّ عملٍ البتة لمدة عامَين قبل ذلك. وعلمتُ أنه عندما كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره تقريبًا عمل على متن باخرةٍ ساحلية بين سندرلاند ونيوكاسل، وربما حطَّ رحاله هنا.»

قال السيد ليندسي: «بالتأكيد.» وتابع: «ولكن الأهم من ذلك هو الانتقال إلى تاريخه اللاحق. أنت تقولين إنك لم ترَيه مُطلقًا طيلة ثلاثين عامًا، أو أكثر، أليس كذلك؟ ولكن ألم تصلك أيُّ أخبارٍ عنه؟»

أومأت برأسها إيجابًا بحسمٍ على هذا السؤال.

وأجابت: «بلى، لقد وصلتني أخبارٌ عنه، مرة واحدة فقط. كان رجل، جار لنا، قد عاد إلى الوطن من أمريكا الوسطى، ربما قبل خمس سنوات، وأخبرَنا أنه رأى جيمس هناك، وأنه يعمل مقاولًا من الباطن، أو شيئًا من هذا القبيل، في قناة بنما تلك التي كان يدور الكثير من الحديث عنها في تلك الأيام.»

نظرتُ أنا والسيد ليندسي أحدُنا إلى الآخر. بنما! كانت تلك هي كلمة السرِّ التي أعطاني إيَّاها جيمس جيلفرثويت. لذلك، ها هو ذا، على أي حال، شيء، مهما كان ضئيلًا، له مقومات القرينة.

قال: «أجل!» وتابع: «بنما، أليس كذلك؟ هل كان هناك؟ وهل ذلك آخر ما سمعتِ من أخبارٍ عنه؟»

أجابت: «ذلك آخر ما سمعت يا سيدي.» ثم أضافت: «بالطبع، حتى طالعنا هذه الأخبار في الصحف في اليوم أو اليومين الأخيرَين.»

دار السيد ليندسي حولها وهو يتفحَّصها بنظرةٍ حادة.

ثم سأل: «هل تعرفين أيَّ شيءٍ عن ذلك الرجل، جون فيليبس، الذي ورد اسمه في الصحف أيضًا؟»

ردَّت على الفور: «كلَّا يا سيدي، لا شيء!» وأضافت: «لم أسمع به من قبلُ!»

تابع قائلًا: «ولم تسمعي قطُّ عما إذا كان أخوك قد شُوهد في ليفربول مؤخرًا؟» وأضاف: «ألم تسمعي قطُّ أنه ذهب لرؤية أيِّ أصدقاء قُدامى على الإطلاق؟ لأننا نعلم، كما طالعتِ في الصحف، يا سيدة هانسون، أن من المؤكد أنه كان في ليفربول، واشترى ملابس من هناك، خلال الأشهر الثلاثة الماضية.»

فقالت: «لم يزُرني قط يا سيدي.» وتابعت: «ولم أسمع قط كلمةً من أي أحدٍ عن وجوده هناك.»

ساد الصمت قليلًا، وفي النهاية طرحت المرأة السؤال الذي كان واضحًا أنها كانت مُتلهفةً على الحصول على إجابةٍ قاطعة له.

حيث سألت: «هل تعتقد أنه تُوجَد وصية يا سيد؟» وأضافت: «لأنه، إن لم يكن الأمر كذلك، فإن المحامي الذي ذهبت إليه قال إن ما كان معه سيئول لي — ويُمكنني أن أنتفع به.»

أجاب السيد ليندسي: «لم نرَ أيَّ وصية.» ثم أضاف: «وبوسعي أن أقول إنه لا تُوجَد وصية، وبناءً على دليل مُقنع على كونكِ أقرب أقربائه، ستحصُلين على كلِّ ما تركه. ليس لديَّ شك في أنكِ أخته، وسأتحمَّل مسئولية فحص مُتعلقاته معكِ. هل ستظلِّين في البلدة يومًا أو يومَين؟ ربما تستطيع والدتك، يا هيو، أن تجد غرفةً للإيجار للسيدة هانسون؟»

أجبتُ بأن والدتي ستفعل بلا شكٍّ ما في وسعها لرعاية السيدة هانسون، وبعد برهةٍ ذهبت المرأة مع مايسي، تاركةً أوراقها مع السيد ليندسي. والتفت نحوي عندما أصبحنا وحدنا.

وقال: «قد يظن بعض الناس أن ذلك يساعدني قليلًا في كشف الغموض يا هيو، لكنني أقسم أنني أظنُّ أن هذا يجعل الأمر برمَّته أكثرَ غموضًا من أي وقتٍ مضى! وهل تعرف، يا ولدي، أين، في رأيي، قد يكون من الضروري البحث عن أول طرف الخيط؟»

أجبته: «ليس لديَّ إجابة على ذلك يا سيد ليندسي.» وتابعتُ: «أين يا سيدي؟»

صاح، مع هزةٍ من رأسه: «بنما!» وأضاف: «بنما! بكل تأكيد! لقد بدأ الأمر بعيدًا؛ في بنما، بحسب ما أرى. وما الذي بدأ هناك، وماذا كان يحدث؟ الرجلان اللذان كانا يعرفان، وكان بوسعهما أن يجيبا، قد انتهت حياتهما، ودُفِنا، بسبب ذلك الأمر.»

لذلك، على الرغم من مجيء السيدة هانسون وكشفها عن بعض ماضي جيمس جيلفرثويت، على أي حال، كان لا يزال لدينا نفس القدْر من المعلومات التي كانت لدينا في نهاية الأسبوع الأول بعد مقتل جون فيليبس. وفي الليلة الثامنة بعد عثوري على الجثة وَقَعتُ بين يدَي أبيل كرون.

كان أبيل كرون رجلًا أتى إلى بيرويك منذ حوالي ثلاث سنوات قبل هذه الواقعة، ولم يكن أحد يعلَم من أين أتى، وافتتح متجر أدواتٍ بحرية، في شارعٍ خلفي يمتد إلى ضفة نهر تويد. كان رجلًا أحمر الشعر، شاحِب العينَين كجرذ، ذا لحيةٍ كلِحية العنزة، وكان

هادئًا ومُسالمًا في طباعه وغير مؤذٍ بدرجةٍ كافية، ولكن كان لدَيه مَيل غريب إلى أن ينخرط في النميمة عند الشاطئ والأسوار؛ كان يُمكنك أن تجده في جميع الأوقات غير المُعتادة سواءً في هذه الأماكن العامة أو على باب متجره، يُمضي الوقت في الحديث مع أي شخصٍ خامل مثله. أما كيف تصادف أن تورَّطتُ في التحدُّث معه في تلك الليلة بالذات فقد كان الأمر هكذا: في ذلك الوقت كان توم دنلوب، شقيق مايسي الصغير، يهوى تربية الأرانب الداجنة، وكنتُ أساعده في بناء أقفاصٍ لها في الفناء الخلفي لمنزل والده، وكنَّا نُريد بعض الأغراض؛ حديدًا وأسلاكًا وما شابه، ولعِلمي أنه كان يُمكنني أن أحصل عليها مقابل بنساتٍ قليلة من متجر كرون، ذهبتُ إلى هناك وحدي. وقبل أن أعرف كيف حدث ذلك، كان كرون قد انخرط في الحديث حول جريمة القتل.

قال، وهو ينظر نحوي بفضولٍ على ضوء المصباح النفطي الوحيد الذي يتراقَص لهبُه في متجره غير المُرتَّب: «لن يكون رجال الشرطة، أولئك، قد توصَّلوا للكثير من المعلومات حتى الآن، بلا شك، يا سيد مونيلوز، أليس كذلك؟» ثم أضاف: «إنهم مجموعة بطيئة لا تتَّسِم بالكفاءة، رجال الشرطة هؤلاء، ليس لدَيهم خيال في أدمغتهم ولا براعة في عقولهم. إن مَن يلزم في قضيةٍ كهذه هو أحد أولئك العباقرة الذين تقرأ عنهم في الروايات البوليسية؛ الرجال الذين يُمكنهم تتبُّع جريمة قتْلٍ من الطريقة التي يُحرِّك بها الرجل أصابع قدمَيه، أو من الطريقة التي قضم بها قطعة الخبز التي تركها في طبقه، أو ما شابه ذلك؛ شيء فوق العادة، أتفهم ما أعني، يا سيد مونيلوز؟»

قلت، وأنا أفكِّر في المزاح معه: «لمَ لا تشارك بنفسك في هذه المطاردة يا سيد كرون؟» وأضفت: «يبدو أنك تمتلك الغريزة الصحيحة لذلك، على أي حال.»

أجاب: «أجل، حسنًا، وقد أُحسن صنعًا بقدرِ أيِّ شخصٍ آخر، وليس أسوأ. أنت لم تفكِّر في تتبُّع أيِّ شيءٍ بنفسك، يا سيد مونيلوز، أليس كذلك؟»

صحتُ قائلًا: «أنا!» وأضفت: «ما الذي يُمكنني أن أتتبَّعه، يا رجل؟ أنا لا أعرف أكثرَ من مجرد الحقائق السطحية للقضية.»

ومِن ثم ألقى نظرةً حادةً على بابه المفتوح عندما أجبتُه هكذا، وفي اللحظة التالية اقترب منِّي في العتمة ونظر بحدَّةٍ إلى وجهي.

همس بمكر: «هل أنت مُتأكد من ذلك؟» ثم أضاف: «هيا، سأطرح سؤالًا عليك، يا سيد مونيلوز. لماذا لم تذكُر في شهادتك أنك رأيتَ السير جيلبرت كارستيرز عند مُفترق الطرُق ذاك قبل أن تجد الرجل المقتول مباشرةً؟ هيا!»

كان من المُمكن أن تسقطني على الأرض بريشة، كما يقول المثل، عندما قال ذلك. وقبل أن أتمالك نفسي من المفاجأة، أمسك بذراعي.

وقال: «تعالَ معي.» وتابع: «سأتحدَّث معك على انفراد.»

الفصل العاشر

الشاهد الآخر

تبِعتُ أبيل كرون بقلبٍ تتسارَع دقاته وأعصابٍ مُتوترة للغاية إلى خارج واجهة متجره إلى ما يُشبه حجرةَ مكتبٍ كائنة في الجزء الخلفي منه، كانت عبارةً عن حفرة صغيرة، قذرة، فيها طاولة مُتهالكة، وكرسيٌّ أو اثنان، ومنضدة مرتفعة، وخزانة، ومجموعة متنوعة من الأدوات الغريبة التي جمعها في تجارته. كان كشْف الرجل المفاجئ عن معرفة السرِّ قد أطاح بكل ثقتي في نفسي. إذ لم يخطر ببالي أبدًا أنَّ أيَّ مخلوقٍ كان لدَيه أي عِلم بسرِّي؛ لأنه كان سرًّا، بالطبع، وما كنت لأفصح به لكرون، من بين جميع الرجال في العالم، مع معرفتي بكونه شخصًا يهوى النميمة. وقد ألقى عليَّ هذا الدفع بحدَّة شديدة، وأخذني على حين غِرة وأنا وحدي معه، وتحت رحمته، كما كان الأمر، قبل أن أتمكَّن من أن أستجمع فطنتي. كان كلُّ شيءٍ بداخلي مُرتبكًا. كنتُ أفكِّر في عدة أشياء في وقتٍ واحد. كيف عرف؟ هل كنتُ مُراقَبًا؟ هل تبعني شخصٌ ما من بيرويك في تلك الليلة؟ هل كان هذا جزءًا من الغموض العام؟ وماذا كان سينتج عن ذلك، بعد أن أدرك أبيل كرون أنَّني كنت أعرف شيئًا ما، ولم أفصِح عنه حتى ذلك الحين؟

وقفتُ أُحدِّق فيه مشدوهًا وهو يرفع فتيل مصباح زيت وُضِع على رفِّ مَوقد تتناثر عليه فوضى من الأشياء الصغيرة، ولمح وجهي عندما صار هناك المزيد من الضوء، وبينما كان يُغلق الباب ضحك، ضحك كما لو كان يعرف أنه قد وضعني في فخ. وقبل أن يتكلم مرةً أخرى ذهب إلى الخزانة وأخرج زجاجة وكأسين.

وسأل، وهو ينظر نحوي بخُبث: «هل ترتشف بعض المشروب؟» وأضاف: «قطرة ضئيلة؟ ستُجديك نفعًا.»

فقلت: «كلا!»

أجاب، وهو يسكب مقدارَ نصف كأسٍ من الويسكي، أضاف إليه القليل من الماء: «إذن سأشرب نيابةً عني وعنك.» ثم أضاف: «نخبُك، يا ولدي؛ وأتمنَّى أن تتحلَّى بفضيلة الاستفادة من فُرَصك!»

غمز من فوق حافة كأسه وهو يأخذ جرعةً كبيرة من محتواها، وبدا الشرُّ في نظرته لدرجةٍ استفزَّتني كي أتمالك أعصابي مرةً أخرى. إذ أدركتُ حينئذٍ أنني أتعامل مع رجلٍ سيئٍ لدرجةٍ استثنائية، وأنه من الأفضل أن أتوخَّى الحذر.

فقلت وأنا أحدِّق فيه مباشرةً: «سيد كرون، ماذا تريد أن تقول لي؟»

أجاب، وهو يشير إلى كرسيٍّ دُفِع تحت أحد جانبي الطاولة الصغيرة: «اجلس.» وتابع: «اسحب ذلك الكرسي واجلس. ما سيقوله أحدنا للآخر لن يُقال في غضون خمس دقائق. دعنا نتناقش بطريقةٍ مناسبة ومريحة.»

فعلت ما طلب، وسحب هو كرسيًّا آخر وجلس قبالتي، مُسندًا كوعه على الطاولة ومال للأمام عبْرَها، لدرجةِ أن عينَيه الحادتَين وشفتيه المتسائلتين كانت قريبة مني أكثر مما كنت أود، نظرًا لأن الطاولة كانت صغيرة. وبينما كان يميل إلى الأمام في جِلسته، أسندتُ أنا ظهري على مقعدي، مُبتعدًا عنه قدرَ المُستطاع، ومحدِّقًا فيه فقط؛ كما لو كنتُ حيوانًا محاصرًا لا يستطيع الابتعاد عن عينَي آخرَ يرغب في قتله على الفور. وسألته مرةً أخرى عما يريد.

فقال: «لم تُجِب عن سؤالي.» وأضاف: «سأطرحه مرةً أخرى، ولا داعي للخوف من أن يسمعنا أحد في هذا المكان، إنه آمِن! أقول مرةً أخرى، لماذا لم تقُل في شهادتك خلال ذلك التحقيق إنك قد رأيت السير جيلبرت كارستيرز عند مفترق الطرُق في ليلة الجريمة! هه؟»

قلت: «هذا شأني!»

قال: «بالضبط.» وتابع: «وسأتفق معك في ذلك. هذا شأنك. ولكن إن كنتَ تقصد بذلك أنه شأنك وحدك، ولا يخصُّ أيَّ شخصٍ آخر، فأنا لا أتفق معك. ولن تتفق معك الشرطة.»

حدَّق أحدُنا في الآخر عبر المنضدة لمدة دقيقة في صمت، ثم طرحت عليه مباشرةً السؤال الذي كنتُ أرغب في طرحه منذ أن تحدَّث في البداية. وطرحته عليه بغلظةٍ كافية.

سألته: «كيف عرفت؟»

فضحك على ذلك؛ بسخرية، بالطبع.

وقال: «حسنًا، هذا بسيط للغاية.» ثم أضاف: «لا مراوغة في ذلك! كيف عرفت؟ لأنه عندما رأيتَ السير جيلبرت كنتُ أقف على بُعد خمسة أقدامٍ منك، وما رأيتَه أنت، رأيتُه أنا. رأيتكما كليكما!»

فصحتُ قائلًا: «هل كنتَ هناك؟»

أجاب: «مختبئًا خلف السياج الشجري الذي كنتَ مندسًّا أمامه.» ثم أضاف: «وإذا كنتَ تريد أن تعرف ما كنتُ أفعله هناك، فسوف أخبرك. كنت أنجز — أو كنت قد انتهيتُ من — بعض الصيد غير القانوني. وكما قلت، ما رأيتَه أنت رأيتُه أنا!»

قلت: «إذن سأطرح عليك سؤالًا، يا سيد كرون.» وتابعت: «لماذا لم تفصح عن ذلك، بنفسك؟»

قال: «حسنًا!» وتابع: «يحقُّ لك أن تسألني هذا السؤال. لكنني لم أُستَدعَ شاهدًا في ذلك التحقيق.»

قلت: «كان يُمكنك أن تتقدَّم للإدلاء بشهادتك.»

أجاب بحدة: «لم أختَر ذلك.»

نظر أحدُنا إلى الآخر مرةً أخرى، وبينما كنَّا ننظر، تجرَّع كأسه بالكامل وصبَّ لنفسه، بسخاء، كأسًا أخرى. وإذ ازددتُ جرأةً بحلول ذلك الوقت، بدأت العمل على استجوابه.

فقلت: «هل ستُولي بعض الأهمية لما رأيته؟»

أجاب ببطء: «حسنًا، ليس شيئًا يبعث على السرور، من أجل سلامة المرء، أن يكون قريبًا مثلما كان عليه من مكانٍ قُتِل فيه رجل آخر لتوِّه.»

قلت له: «أنت وأنا كنا قريبين للغاية، على أي حال.»

ردَّ عليَّ بحدة مرةً أخرى: «نحن نعرف لماذا كنَّا هناك.» وأضاف: «ولا نعرف سبب وجوده هناك.»

قلت بجرأة: «قُلها، يا سيد كرون.» وأضفت: «الحقيقة هي، أنك تشتبِهُ فيه، أليس كذلك؟»

أجاب: «أنا أشتبه فيه بقدرٍ كبير، ربما.» وأضاف: «ففي نهاية الأمر، حتى الرجل الذي في مثل مكانته هو مجرد رجل، عندما يُقال ويُفعَل كل شيء، وقد تكون ثمة أسبابٌ لا نعرف أنا وأنت عنها شيئًا. دعني أطرح عليك سؤالًا»، تابع، وهو يقترب منِّي عبر المنضدة. «هل ذكرتَ ذلك لأي أحد؟»

أخطأت في ذلك، لكنه كان حادًّا جدًّا معي، وكان أسلوبه شديدَ الإصرار، لدرجةِ أن الكلمة خرجت من بين شفتَيَّ قبل أن أُفكِّر.

حيث أجبت: «كلَّا!» «لم أفعل.»

قال: «ولا أنا.» وتابع: «ولا أنا. إذن، أنت وأنا الشخصان الوحيدان اللذان يعرفان.»

سألت: «وماذا في ذلك؟»

تجرَّع بعض المشروب مرةً أخرى وجلس صامتًا لحظةً أو اثنتَين، وهو ينقر بأظافر أصابعه على حافة الزجاج.

قال أخيرًا: «إنها قضية غريبة، يا مونيلوز.» وتابع: «انظر إلى الأمر بأيِّ طريقةٍ تُعجبك، ستُدرك أنها قضية غريبة! لدَينا رجل، مُستأجِر لغرفةٍ بمنزل والدتك، يأتي إلى البلدة ويتجوَّل في الجوار ويقرأ سجلات الأبرشية القديمة ويطرح أسئلة على القس، أجل، وتجوَّل على كِلا ضفتي نهر تويد؛ لقد علمت ذلك بنفسي! لأي غرض؟ هل يتعلَّق الأمر بأموال، أو مُمتلكات، أو شيء من هذا القبيل، يعتمد على كشف جيلفرثويت هذا عن بعض الحقائق أو غير ذلك من تلك السجلات القديمة؟ ثم يأتي رجل آخر، غريب، غامض في تحركاته بقدرِ ما كان جيلفرثويت، من المُفترَض أن يلتقي بجيلفرثويت في بقعةٍ مُنعزلة مُعينة، وفي ساعة غريبة جدًّا، ولا يستطيع جيلفرثويت الذهاب، ويجعلك تذهب، وتجد الرجل ... مقتولًا! وبالقُرب من المكان ... رأيتَ هذا الرجل الآخر، الذي يتَّسِم، بيني وبينك، على الرغم من أنه ليس سرًّا، بأنه غريب عن المنطقة بقدرِ ما كان جيلفرثويت أو فيليبس!»

قلت: «لا أفهم ما تقصد من ذلك.»

قال: «ألم تفهم؟» تابع: «إذن سأبسط لك الأمر أكثر. هل تعلم أنه حتى جاء السير جيلبرت كارستيرز إلى هنا، منذ فترةٍ ليست بالطويلة، ليأخذ لقبه ومنزله والضيعة، لم تكن قدمُه قد وطئت المكان مُطلقًا، ولم يقترِب من المكان مُطلقًا، طوال الثلاثين عامًا هذه؟ عجبًا يا رجل! إن والده، السير أليك العجوز، وشقيقته، السيدة رالستون بارونة كريج، لم يكونا قد رَأَياه مُطلقًا منذ رحيله عن هاثركلو، وهو شابٌّ في الحادية والعشرين من عمره!»

صحتُ قائلًا، وقد فوجئت كثيرًا بكلماته: «أحقًّا تقول، يا سيد كرون؟» وتابعت: «لم أكن أعرف ذلك. أين كان، إذن؟»

قال: «الربُّ يعلم!» ثم أضاف: «وكذلك هو. قيل إنه كان طبيبًا في لندن، وفي بلاد أجنبية. تشاجر هو وأخوه — الأخ الأكبر، كما تعلم، السيد مايكل — مع البارونيت العجوز

عندما كانا في سنِّ الشباب، وهجراه، وسلك كلٌّ منهما في طريقه. ووصلت الأخبار عن وفاة مايكل، والأدلة عليها، إلى المنزل قبل وقتٍ قصير من وفاة السير أليك، وبما أن مايكل لم يكن قد تزوَّج أبدًا، فقد آلت التركة إلى الأخ الأصغر بالطبع عندما تُوفِّي والده في الشتاء الماضي. وكما قلت، مَن ذا الذي يعرف أيَّ شيءٍ عن أفعاله الماضية عندما كان بعيدًا لأكثر من ثلاثين عامًا، ومَن كانوا أصحابه، وما هي أسراره؟ هل تفهم ما أقول؟»

أجبته: «أجل، أفهمك، يا سيد كرون.» ثم أضفت: «خُلاصة الأمر، أنت تشتبه في السير جيلبرت، أليس كذلك؟»

أجاب: «ما أقوله، هو هذا: ربما كانت له علاقة بالقضية. لا يمكنك الجزم. لكن أنا وأنت نعلم أنه كان بالقُرب من المكان، قادمًا من اتجاهه، وقتَ ارتكاب جريمة القتل. ولا أحد يعرف غيرك ... وغيري!»

سألت: «ماذا ستفعل حيال ذلك؟»

أخذ فترةً أخرى من التفكير قبل أن يُجيب، وعندما تحدَّث كان حديثه مصحوبًا بنظرة تحذير.

قال: «ليس من الحِكمة الحديث عن الرجال الأغنياء.» وأضاف: «ذلك الرجل لا يملك فقط ماله الخاص، الذي يُمكن أن تصفه بأنه كمية كبيرة، ولكن زوجته التي أحضرها معه هي امرأة ذات ثروة هائلة، كما علمت. لن يكون من الحِكمة أن تُثير الشائعات، يا مونيلوز، ما لم تتمكَّن من إثباتها.»

سألت: «وماذا عنك؟» وتابعت: «أنت تعرف بقدرِ ما أعرف.»

قال: «أجل، وتُوجَد كلمة واحدة تُلخِّص كلَّ شيء.» وتابع: «وهي كلمة قصيرة. تمهَّل! سيُكْتَشَف المزيد من الأمور. احتفظ بخططك قليلًا. وعندما تأتي اللحظة المناسبة، وإذا حانت تلك اللحظة، قطعًا، تعرف أنني وراءك لأدعمك. وهذا كل شيء!»

ثم نهض، مع إيماءة، كما لو أنه يُعلِن أن المقابلة قد انتهت، وكنت سعيدًا جدًّا بالابتعاد عنه لدرجةِ أنني غادرتُ دون كلمةٍ أخرى.

الفصل الحادي عشر

توقيعات على الوصية

ابتعدتُ عن المسار المعتاد للأمور على خلفية هذه المحادثة مع كرون لدرجةِ أنني غادرتُ ونسيتُ الأشياء التي كنتُ قد اشتريتُها لأقفاص أرانب توم دنلوب ونسيتُ توم نفسه، ونسيتُ مايسي أيضًا، وبدلًا من أن أعود إلى منزل آل دنلوب، سرتُ على ضفة النهر، أُفكِّر. عجزت في تلك اللحظة عن فهْم الوضع الجديد بوضوح. لم أتمكَّن من معرفةِ ما يهدف إليه كرون. كان من الواضح أنه كانت لدَيه شكوك قوية في أن السير جيلبرت كارستيرز كانت له علاقة، أو بعض المعرفة، بمقتل فيليبس، وكان حينئذٍ يعلم أنَّنا نحن الاثنين سيؤكد كلٌّ منَّا شهادةَ الآخر بأن السير جيلبرت كان بالقُرب من موقع الجريمة وقت ارتكابها. فلماذا، إذن، ينصح بالتمهُّل؟ لماذا لا نذهب نحن الاثنين إلى الشرطة ونشهد بما نعرفه؟ ما الذي نصح كرون بضرورة التمهُّل لأجله؟ هل كان ثمة شيءٌ ما يجري، بعض التحريات التي تُجرى في خلفية الأحداث، والتي عرفها ولم يُخبرني بها؟ والتساؤل التالي، هو، على ما أظن، ما كان يدور في ذهني بشكلٍ رئيسي؛ هل كان كرون يلعب لعبةً خاصة به ويُخطِّط ليستخدمني دميةً فيها؟ وذلك لأنه كان ثمة جوٌّ عام من المكر والدهاء يُحيط بالرجل وفرض نفسه عليَّ، مع حداثة سنِّي كما كنتُ آنذاك؛ كما أن الطريقة التي ظلَّ يَرمقني بها أثناء حديثنا جعلتني أشعُر أنه كان يتعيَّن عليَّ التعامُل مع شخصٍ يصعب التحايُل عليه إن تعلَّق الأمر بالخداع. وأخيرًا، بعد الكثير من التفكير، بينما كنتُ أتجوَّل وقت الغسق، خطر لي أنه ربما كان كرون ينوي المشاركة في اللعبة التي كنتُ قد سمعتُ عنها، لكنَّني لم أُشاهدها من قبل؛ لعبة الابتزاز.

كلما كنت أفكِّر في هذه الفكرة، كنت أزداد تيقُّنًا منها. إذ بدا أن تلميحاته حول أموال السير جيلبرت وزوجته الثرية، ونصيحته بالتمهُّل حتى نعرف المزيد، كانت تُشير

جميعها إلى هذا؛ ذلك الدليل الذي قد يظهر والذي لن يتطلَّب سوى شهادتنا المشتركة؛ شهادة كرون وشهادتي، لإكماله. إن كان الأمر كذلك، إذن، بالطبع، سنُصبح، كرون أو أنا، أو نحن الاثنين، كما يُحتَمَل أن يكون قد خطَّط، في وضعٍ يسمح لنا بالذهاب إلى السير جيلبرت كارستيرز وإخباره بما نعرفه، وسؤاله كم سيُعطينا لنُمسك ألسنتنا. أدركتُ كامل النظرية أخيرًا، بوضوح كافٍ، وكان هذا بالضبط ما توقَّعته من أبيل كرون، من خلال معرفتي البسيطة به. تمهَّل حتى نتأكد، ثم اضرب! كانت تلك هي لعبته. ولن يكون لي أي علاقة بها.

عُدت إلى البيت ودخلتُ إلى سريري حاسمًا أمري على ذلك. كنتُ قد سمعتُ عن الابتزاز، وكانت لديَّ فكرة جيدة عن شرِّه، وخطرِه، ولم أكن سأُشارك كرون في أي مُجازفة من هذا النوع. ولكن كرون كان حقيقةً واقعية ملموسة تعيَّن عليَّ التعامُل معها، والتوصُّل إلى بعض التفاهم معها، لأنه ببساطة كان يعلَم أن بحوزتي معلوماتٍ كان يتعيَّن عليَّ، بالطبع، أن أُبلغها إلى الشرطة في الحال. وظللتُ مُستيقظًا أثناء الليل، أُقلِّب الأمور في رأسي، وبحلول وقت نهوضي من الفِراش في الصباح كنتُ قد توصَّلت إلى قرار. سأُقابل كرون في الحال، وسأُعطيه نوعًا من الإنذار النهائي. وسأدعوه أن يأتي، في الحال، معي إلى السيد موراي، ونُخبره بما نعرفه نحن الاثنين وننتهي من الأمر، وإن لم يفعل، فسأذهب بنفسي مباشرة إلى السيد ليندسي وأخبره.

انطلقتُ إلى المكتب في وقتٍ أبكرَ من المُعتاد في ذلك الصباح، وسلكتُ شارعًا خلفيًّا يقع متجر كرون في نهايته أمام النهر. كنتُ أحيانًا أسلك هذا الطريق في الصباح، وعرفتُ أن كرون عادةً ما يكون هناك في وقتٍ مُبكر جدًّا، وسط خُردته القديمة، أو يُمارس لعبته المفضَّلة المُتمثلة في النميمة مع الصيادين الذين كانت قواربهم راسيةً هناك. لكن عندما وصلتُ إلى المتجر، كان لا يزال مُغلقًا، وعلى الرغم من أنني انتظرتُ وقتًا طويلًا قدرَ استطاعتي، لم يأتِ كرون. كنت أعرف المكان الذي يقطن فيه، في أقصى البلدة، وظننتُ أنني سأُقابله أثناء سيري إلى مكتب السيد ليندسي، لكنني لم أُقابله إلى أن وصلتُ إلى باب مكتبنا؛ لذلك نحَّيت الأمر جانبًا حتى الظهر، مُنتويًا أن أتحدَّث معه في طريق عودتي إلى المنزل لتناوُل العشاء. وعلى الرغم من أنه كان بإمكاني فعْل ذلك في الحال، فقد قرَّرتُ ألا أقول أيَّ شيءٍ للسيد ليندسي إلى أن أمنح كرون الفرصة لقول ذلك معي؛ له أو للشرطة. توقَّعت، بالطبع، أن يُجَن كرون غضبًا من اقتراحي؛ وإن حدث ذلك، عندئذٍ سأُخبره، مباشرةً، بأنني سأمضي في طريقي الخاص، وسأمضي فيه في الحال.

ولكن قبل الظهر حدث تطوُّر آخر في هذه القضية. خلال الصباح، طلب منِّي السيد ليندسي أن أذهب معه إلى منزل والدتي، حيث كانت السيدة هانسون قد أمضت الليلة السابقة هناك، وكنا سنتفحَّص مُتعلقات جيلفرثويت معها، حسبما قال، بهدف تمكينها من حيازتها. وقد يُصبح هذا — على الأرجح — عملًا طويلًا وصعبًا، كما أوضح هو، نظرًا لأنه كان يُوجَد الكثير من الغموض حول تحرُّكات أخيها الأخيرة؛ وبما أن المرأة كانت فقيرة فقرًا واضحًا، كان من الأفضل أن نتحرَّك نيابةً عنها. لذلك ذهبنا إلى هناك، وفي رَدهة منزل أُمي الأمامية، وهي نفسها التي كان جيلفرثويت قد اختارها غرفةَ جلوسه، فتح السيد ليندسي الصندوق الثقيل للمرة الثانية، بحضور السيدة هانسون، وبدأتُ أنا في إعداد قائمةٍ بمحتوياته. وعندما رأت المرأة الأموالَ التي كان يحتوي عليها، بدأت ترتجِف.

وصاحت، وهي تكاد تبكي: «آه، يا سيدي! كل هذا المال موضوع هنا، دون نفع! آمُل أن تكون ثمة طريقة يئول بها لي ويُصبح ملكي، يُمكننا أن ننتفع به، أعدك!»

قال السيد ليندسي: «سنبذل قصارى جهدنا يا سيدتي.» ثم أضاف: «حيث أنكِ قريبة من الدرجة الأولى، لن يكون في الأمر صعوبة كبيرة، وسأُعجِّل الأمور لكِ بأسرعِ ما في وسعي. ما أريده هذا الصباح هو أن تُلقي نظرةً على كلِّ ما في هذا الصندوق؛ يبدو أنه لم يكن لديه مُتعلقات أخرى غير هذا وملابسه، هنا في منزل السيدة مونيلوز، على أي حال. وكما ترين، بخلاف المال، لا يُوجَد شيء آخر في الصندوق سوى علب السيجار، وصناديق كثيرة من التُّحَف التي من الواضح أنه جمعها في أسفاره؛ عملات معدنية، وأصداف، وزخارف، وجميع أنواع الأشياء الغريبة، بعضها بلا شك له قيمة. ولكن لا أوراق، ولا رسائل، ولا وثائق من أيٍّ نوع.»

فجأة خطرت لي فكرة.

فقلت: «يا سيد ليندسي، أنت لم تفحص محتويات أيٍّ من هذه الصناديق الصغيرة في تلك الليلة. قد تُوجَد أوراق في أحدها.»

فصاح: «فكرة جيدة، يا هيو، يا ولدي!» ثم أضاف: «صحيح — ربما يكون بها أوراق. فلنبدأ إذن، سنفحصها بطريقةٍ منهجية.»

بالإضافة إلى نصف دزينة صناديق مليئة بسيجار هافانا الفاخر، والتي تقع في الجزء العلوي من الصندوق، كان يُوجَد دزينة من صناديق مماثلة، فارغة من السيجار ومُعبَّأة عن آخِرها حرفيًّا بالتُّحف التي تحدَّث عنها السيد ليندسي للتو. وقد أفرغ، وأعاد تعبئة، محتويات ثلاثة أو أربعة منها بعناية، عندما عثر، في قاع أحدها، والذي كان مليئًا

بعملات معدنية قديمة، قال إنها كانت مكسيكية وبيروفية، وربما كانت ذات أهمية كبيرة لهواة جمع العملات، على ورقةٍ مطوية ومُصَدَّقٍ عليها بأحرفٍ عريضة. وأطلق صيحةً أثناء إخراج هذه الورقة وأشار لنا نحو المُصادَقة.

وقال: «هل ترون ذلك؟» ثم أضاف: «إنها وصية الرجل!»

كانت المصادقة واضحة للغاية؛ «وصيتي: جيمس جيلفرثويت.» وتحتها كُتِبَ تاريخ، ٢٧-٨-١٩٠٤.

ساد صمت تامٌّ بيننا نحن الأربعة — كانت والدتي معنا طوال الوقت — بينما فتح السيد ليندسي الورقة؛ نصف ورقة، سميكة من الحجم المتوسِّط، وقرأ ما كان مكتوبًا فيها.

«هذه هي وصيتي الأخيرة، أنا جيمس جيلفرثويت، مواطن بريطاني، مولود في ليفربول، وسابقًا من جارستون، في لانكشاير، إنجلترا، ومُقيم الآن مؤقتًا في كولون، في جمهورية بنما. أهبُ وأُورِّث كلَّ مُمتلكاتي ومتعلقاتي، الحقيقية والشخصية، التي قد تكون في حوزتي أو تحقُّ لي، لأختي، سارة إلين هانسون، زوجة ماثيو هانسون، المُقيمة في ٣٧ بريستون ستريت، جارستون، لانكشاير، إنجلترا، بشكلٍّ مُطلَق، وفي حال وفاتها تُمْنَح لأي أطفالٍ ربما تكون قد أنجبتهم من زواجها من ماثيو هانسون، بحصصٍ مُتساوية. وأُعيِّن سارة إلين هانسون المذكورة — أو في حالةِ وفاتها، ابنها الأكبر — مُنفِّذًا لوصيتي هذه، وأُبطِل كلَّ الوصايا السابقة. بتاريخ اليوم السابع والعشرين من أغسطس ١٩٠٤م. جيمس جيلفرثويت. مُوقَّعة من الموصي في حضورنا نحن ...»

توقَّف السيد ليندسي فجأة. ورأيت، بينما أنظر إليه، عينيه تدوران في محجرَيهما بدهشةٍ شديدة من شيءٍ رآه. ودون أن ينطق بأي كلمةٍ أخرى، طوى الورقة، ووضعها في جيبه، والتفت إلى السيدة هانسون، وربَّت على كتفها.

وقال بحرارة: «كل شيءٍ على ما يُرام، يا سيدتي!» وتابع: «هذه وصية سليمة، ومُوقَّعة ومُصدَّقة على النحو الواجب، ولن تُوجَد أي صعوبةٍ في الإقرار بصحَّتها؛ اتركيها لي، وسأفعل ذلك، وسأُعطيها لكِ في أقرب وقتٍ مُمكن. وعلينا أن نفعل كلَّ ما بوسعنا لمعرفة ما إذا كان أخوك هذا قد ترك أيَّ ممتلكاتٍ أُخرى؛ وفي غضون ذلك، سنُعيد مرة أخرى كل شيءٍ أخرجناه من هذا الصندوق ونُغلقه.»

كان الوقت قد اقترب من مَوعد العشاء عندما انتهَينا، لكن السيد ليندسي، وهو يُغادر، أشار إليَّ بالخروج إلى الشارع معه. وفي زاوية هادئة، التفت نحوي وأخرج الوصية من جيبه.

وقال: «هيو!» وتابع: «هل تعرف مَن هو أحد الشاهدَين على هذه الوصية؟ أجل، مَن هما الشاهدان؟ يا رجل! لقد كدتُ أُصعق عندما رأيتُ الأسماء! انظر بنفسك!»

سلَّمني الورقة وأشار إلى بند الشهود في نهايتها. ورأيت الاسمَين في الحال: جون فيليبس، ومايكل كارستيرز، وأطلقتُ صيحةَ ذهول.

وقال، وهو يأخذ الوصية: «أجل، يحقُّ لك أن تندهش!» ثم أضاف: «جون فيليبس! هو الرجل الذي قُتل في تلك الليلة! مايكل كارستيرز؛ هو الأخ الأكبر للسير جيلبرت هناك في هاثركلو، الرجل الذي كان سيرِث اللقب والمُمتلكات لو لم يكن قد تُوفِّي قبل السير ألكساندر. كيف كان صديقًا لجيلفرثويت؟»

قلتُ مُعلِّقًا: «سمعتُ أن السيد مايكل كارستيرز هذا قد سافر إلى الخارج عندما كان شابًّا، يا سيد ليندسي، ولم يَعُد إلى الوطن مرةً أخرى.» ثم أضفت: «من المُحتمل أنه تقابَل مع جيلفرثويت هناك بالخارج.»

قال: «بالضبط.» ثم أضاف: «ذلك ما حدث، بلا شك. هذا مُؤكَّد! لقد كتب في بند الشهود أنه مايكل كارستيرز، مهندس، الحي الأمريكي، كولون؛ وجون فيليبس موصوف بأنه مقاول من الباطن، من نفس العنوان. لقد كان ثلاثتهم يعملون في أعمالٍ ذات صلةٍ بقناة بنما. ولكن — ليُباركنا الرب! — بعض الحقائق الغريبة تتكشَّف، يا ولدي! يتعرَّف مايكل كارستيرز على جيلفرثويت وفيليبس في ذلك الجزء البعيد من العالم؛ يعود فيليبس وجيلفرثويت، بعد وفاة مايكل كارستيرز، للوطن إلى هذا الجزء من العالَم الذي نشأ فيه مايكل كارستيرز. ويُقْتَل فيليبس بمجرد وصوله إلى هنا، ويموت جيلفرثويت فجأةً حتى إنه لا يستطيع أن يُخبرنا بكلمةٍ عن حقيقة الأمر! ما حقيقة الأمر؛ ومَن الذي سيكشفها لنا؟ يا رجل! — يوجد ما هو أكثر من جريمة قتل وراء كل هذا!»

من العجيب أنني لم أفصح عن كلِّ ما كنتُ أعرفه في تلك اللحظة. وربما كان على طرَف لساني، ولكن حينئذٍ بالضبط دفعني نحو باب منزلنا.

وقال: «سمعتُ والدتك تقول إن الغداء في انتظارك.» ثم أضاف: «ادخل الآن؛ وسنتحدَّث أكثر بعد ظهر اليوم.»

سار مُبتعدًا في الشارع، واستدرتُ وأسرعت في تناول الغداء. أردتُ أن أذهب إلى متجر كرون قبل أن أذهب مرةً أخرى إلى المكتب: ما حدث للتوِّ جعلني أُقرِّر أنني وكرون يجب أن نُفصح عما لدَينا؛ وإن لم يفعل، فسأفعل أنا. وبعد قليلٍ كنتُ أمضي مُسرعًا إلى متجره، وعندما دلفتُ إلى الحارة الخلفية التي تقود إليه، قابلت الرقيب تشيسهولم.

فقال: «ها هو ذا لغطٌ غريب آخر، يا سيد مونيلوز!» ثم أضاف: «أتعرف ذلك الرجل أبيل كرون، صاحب متجر الأدوات البحرية؟ أجل، حسنًا، لقد عُثر عليه غريقًا، منذ أقل من ساعة، ومن كذا وكذا، تُوجَد علامات غريبة عليه، تُشير إلى تعرُّضه للعنف!»

الفصل الثاني عشر

رُمح السَّلمون

فزعتُ للغاية عند سماع هذا لدرجةِ أن تشيسهولم نفسه انتفض، وحدَّق في وجهي بتساؤلٍ بادٍ في عينَيه. لكنَّني كنتُ سريعًا بما يكفي في جعله يعرف أنه كان يُبلغني أخبارًا لم أكن قد سمعتُها حتى فتحَ شفتَيه.

صحت: «هذا أمر غير معقول!» ثم أضفت: «ماذا! جريمة أخرى؟»

قال: «أجل.» وأضاف: «سوف تظنُّ أن هذه الجريمة ذات صِلة بالقضية الأخرى. والأمر المؤكَّد هو أنهم وجدوا جثة كرون بالقُرب من المكان الذي وُجِدَت فيه جثة الرجل الآخر ... فيليبس.»

سألت: «أين، إذن؟» وتابعت: «ومتى؟»

أجاب: «قلت لك، منذ أقل من ساعة.» ثم أضاف: «ورد الخبر للتو. وكنتُ قادمًا إلى هنا لأرى إن كان أيٌّ من جيران المتجر قد رأى كرون مع أيِّ غريبٍ الليلة الماضية.»

تردَّدتُ لثانية أو ثانيتَين، ثم تكلَّمت.

قلت: «رأيته بنفسي الليلة الماضية.» وأضفت: «ذهبت إلى متجره — ربما كان ذلك في الساعة التاسعة — لشراء بعض الأدوات لصُنع بابٍ لقفص الأرانب من أجل توم دنلوب، وأمضيتُ هناك عشْر دقائق أو نحو ذلك في التحدُّث معه. كان على ما يُرام في ذلك الوقت، ولم أرَ أيَّ شخصٍ آخر معه.»

قال تشيسهولم: «آه، حسنًا، لم يَعُد إلى منزله الليلة الماضية.» ثم أضاف: «لقد ذهبت إلى هناك في طريقي إلى هنا؛ إذ كان يعيش، كما تعلم، في كوخٍ بالقُرب من قسم الشرطة، وقد دخلت وسألت المرأة التي تتولَّى له التنظيف والطهي إن كانت قد رأته هذا الصباح، فقالت إنه لم يَعُد إلى المنزل الليلة الماضية مُطلقًا. ولا عجبَ في ذلك، من الحال الذي عليه الأمور!»

قلت: «لكنك كنتَ تقول أين حدث هذا.»

قال: «تقصد أين وجدْنا جُثته؟» ثم تابع: «حسنًا، كانت في موضع التقاء نهر تيل بنهر تويد؛ على الأقل، أقرب إلى نهر تيل. هل تعرف ابن جون ماكلورايث، ذلك الفتى الذي كان يُزعجهم بشأن المدرسة، الذي يهرب دائمًا كي يلعب، ويُغادر في الليل، وما شابه، وكان ثمة تفكير في مسألة إرساله إلى إصلاحية، هل تتذكَّر؟ أجل، حسنًا، اتضح أن الفتى المُشاغِب كان بالخارج الليلة الماضية في تلك الغابة بعد تويزل، وفي وقتٍ مُبكِّر هذا الصباح — على الرغم من أنه لم يُبلِغ بالأمر إلا بعد فترةٍ من الوقت — رأى جثةَ رجلٍ مُلقاةً في إحدى تلك المناطق العميقة في نهر تيل. وعندما أُلقي القبض عليه على يد تورنديل، الذي كان يبحث عنه، أبلغ بما رأى، فذهب تورنديل وبعض الرجال الآخرين إلى هناك، ووجدوا ... جثة كرون!»

قلت: «كنتَ تقول إنه كانت تُوجَد علامات تُشير إلى العنف.»

أجاب: «لم أرَها بنفسي.» ثم أضاف: «ولكن حسب رواية تورنديل — فهو مَن أبلغني بالخبر — تُوجَد علامات غريبة على الجثة. كما لو أن — على حدِّ وصف تورنديل — كما لو أن الرجل قد ضُرِبَ قبل أن يغرق. كدمات، كما تفهم.»

سألت: «أين هو؟»

أجاب تشيسهولم: «إنه في نفس المكان الذي أخذوا إليه فيليبس.» ثم أضاف: «يا إلهي! اثنان نُقِلا إلى هناك خلال ... أجل، خلال أسبوع تقريبًا!»

سألت: «ماذا ستفعل الآن؟»

أجاب: «كنتُ ذاهبًا للتو، كما قلت، لطرح سؤالٍ أو سؤالَين هنا ... هل سمع أيُّ شخصٍ كرون يقول أيَّ شيءٍ الليلة الماضية عن الذهاب إلى ذلك المكان؟» ثم أضاف: «ولكن، مع ذلك، لا أرى أيَّ فائدةٍ من هذا. بيني وبينك، كان كرون نوعًا ما مُحبًّا للخروج في الليل؛ لقد اشتبهتُ في إقدامه على الصيد غير القانوني، مرارًا وتكرارًا. حسنًا، لن يفعل ذلك مُجددًا! أنت في طريقك إلى المكتب، على الأرجح، أليس كذلك؟»

قلت: «ذاهب إلى هناك مباشرة.» وتابعت: «سأُخبر السيد ليندسي بهذا.»

لكن عندما وصلت إلى المكتب، كان السيد ليندسي، الذي كان قد خرج لتناول طعام الغداء، يعرف كلَّ شيءٍ عن الأمر. كان واقفًا خارج الباب، يتحدَّث إلى السيد موراي، وبينما كنتُ أصعد، كان رئيس الشرطة يُغادر إلى قسم الشرطة، وتقدَّم السيد ليندسي خطوةً أو خطوتَين نحوي.

وسأل: «هل سمعتَ بما حدث لذلك الرجل كرون؟»

أجبت: «لقد علمتُ للتو.» ثم أضفت: «أخبرني تشيسهولم.»

نظر نحوي، ونظرتُ نحوه؛ وحملت عيوننا تساؤلات. لكن بين مُفارقتي لرقيب الشرطة ومقابلتي للسيد ليندسي، كنتُ قد اتخذتُ قراري، من خلال القليل من التفكير والتأمُّل، بشأن الكيفية التي ستكون عليها خطة تصرُّفي بشأن كلِّ هذا، قرارًا نهائيًّا، وتحدَّثتُ قبل أن يسأل عن أي شيء.

قلت: «كان تشيسهولم في ذلك الطريق، يتساءل إن كان يمكن أن يصل إلى سمعه أن كرون شُوهِد مع أي شخصٍ الليلة الماضية. لقد رأيت كرون الليلة الماضية. ذهبت إلى متجره، لأشتري بعض الأدوات القديمة. كان بخيرٍ آنذاك، ولم أرَ شيئًا. وقال تشيسهولم إن كرون كان يُمارس الصيد غير القانوني. من المُحتمَل أن يكون ذلك سببًا لوجوده هناك.»

قال السيد ليندسي: «عجبًا!» ثم أضاف: «لكنهم يقولون إنه تُوجَد علامات عُنف على الجثة. وخلاصة القول، يا ولدي!» وتابع، بعد أن توقَّف عن الحديث أولًا، ثم رمقني بنظرةٍ غريبة؛ «خلاصة القول، أنه من الغريب أن يلقى كرون حتفَه بالقُرب من البقعة التي عثرت فيها على جثة ذلك الرجل فيليبس! قد يكون الأمر مجرد صدفة، ولكن لا يمكن إنكار أنه أمر غريب. اذهب واطلُب لنا عربة، وسوف نذهب إلى هناك.»

عملًا بما عزمتُ عليه، لم أقل المزيد عن كرون للسيد ليندسي. كنتُ قد اتخذتُ قراري بأن أسلك مسارًا مُعينًا، وإلى أن أسلكه لم أستطِع أن أُفصِح بكلمةٍ عما كان في ذلك الوقت سرِّي أنا وحدي، لا له، ولا لأيِّ شخص، ولا حتى لمايسي دنلوب، والتي كنتُ قد تعمَّدتُ ألا أقول لها شيئًا بعدُ عن رؤيتي للسير جيلبرت كارستيرز ليلة مقتل فيليبس. وطوال الطريق إلى النُّزل، ساد الصمت بيني وبين السيد ليندسي، ولم نتحدَّث مُطلقًا عما حدث في الصباح، بشأن وصية جيلفرثويت، والظروف الغريبة لشهادة مايكل كارستيرز. لقد التزمْنا الصمت، في الواقع، حتى وصلنا إلى المكان الذي نقلوا إليه جثة كرون. كان السيد موراي والرقيب تشيسهولم قد وصلا إلى هناك قبلَنا، وكان بصُحبتهما طبيب — هو نفسه الذي أُحضِرَ من أجل فيليبس — وكانوا جميعًا يتبادلون الحديث بهدوء عندما دخلنا. ثم أقبل رئيس الشرطة على السيد ليندسي.

وهمس، وهو يُشير برأسه إلى الجثة الموضوعة على طاولة وفوقها ملاءة: «بحسب ما يقوله الطبيب هنا، ثمة شك حول ما إذا كان الرجل قد مات بسبب الغرق. انظر هنا!»

قادنا نحو الطاولة، وسحب الملاءة كاشفًا عن الرأس والوجه، وأشار إلى الطبيب أن يأتي، ثم أشار إلى علامةٍ بين الصدغ الأيسر وأعلى الأذن، حيث كان الشَّعر أقلَّ غزارة.

وتمتم: «هل ترى ذلك، الآن؟» وتابع: «ستُلاحظ أن سلاحًا ما اخترق هذا الجزء، اخترقه! لكن يمكن للطبيب أن يقول أكثرَ مما أستطيع قوله حول تلك النقطة.»

قال الطبيب: «لقد ضُرِبَ الرجل، قُتِلَ، بسلاحٍ ما.» ثم أضاف: «الرأس مُختَرَقٌ، في رأيي من مجرد الفحص الظاهري، إلى المخ. ستلاحظ وجود كدمة في الخارج؛ أجل، لكن هذا كان سلاحًا حادًّا أيضًا، شيئًا ذا سنٍّ مُدبَّب، ويُوجَد ثُقب؛ لا أستطيع حتى الآن تحديد إلى أي عُمق يصِل. ولكن من ظاهر الأمور، يا سيد ليندسي، يُمكنني أن أميل إلى الرأي القائل بأن الرجل المسكين كان ميتًا، أو يحتضر، عندما أُلقي في تلك البِركة. على أي حال، بعد ضربةٍ كتلك، سيكون فاقدًا الوعي. لكنني أظنُّ أنه قد مات قبل أن تلمس جثته المياه.»

تفحَّص السيد ليندسي العلامة عن كثب، والثُّقب الموجود في وسطها.

ثم سأل فجأة: «ألم يخطُر على بالِ أيٍّ منكم الكيفية التي يمكن أن يحدُث بها ذلك؟» وتابع: «لم يخطُر على بالكم، أليس كذلك؟ إذن سأقترح عليكم شيئًا ما. تُوجَد أداةٌ شائعة الاستخدام في هذه الأنحاء من شأنها أن تُحدِثَ ذلك بالضبط؛ رُمح سلمون!»

انتفض ضابطا الشرطة، وأومأ الطبيب برأسه.

وقال: «أجل، وتلك ملاحظة معقولة.» ثم أضاف: «يمكن لرُمح سلمون أن يُحدِثَ ذلك.» والتفت إلى تشيسهولم بنظرةٍ حادة. وسأل: «كنتَ تقول إن هذا الرجل مُشتبه في ممارسته الصيدَ غير القانوني، أليس كذلك؟» وتابع: «من المُحتمَل أنه كان يمارس الصيد غير القانوني في الليلة الماضية، هو وآخرون. وربما تشاجروا وتطوَّر الأمر للعراك؛ فحدثت الجريمة!»

سأل السيد ليندسي: «هل كانت تُوجَد أيُّ آثارٍ تدل على وقوع مشاجرة عند أو بالقُرب من ضفة النهر؟»

أجاب السيد موراي: «نحن ذاهبون الآن بأنفسنا إلى هناك لنُلقي نظرة حول المكان.» ثم أضاف: «ولكن وفقًا لتورنديل، كانت الجثة طريحة في منطقةٍ عميقة في نهر تيل، تحت الأشجار على الضفة؛ وربما كانت ستظلُّ هناك لعدة أشهر لو لم يكن ذلك الفتى ماكلورايث مُحبًّا للتجول في الزوايا المُظلمة النائية. حسنًا، ها هي ذي مسألة أخرى لينظر فيها مُحقِّق الوفيات.»

عُدتُ أنا والسيد ليندسي إلى بيرويك بعد ذلك. ومجددًا، لم يتحدَّث إلا قليلًا خلال الرحلة، عدا قوله إنه سيكون من الجيد إذا تبيَّن أن هذه لم تكن سوى قضية صيدٍ جائر تورَّط فيها كرون مع بعض رفاقه؛ وطوال بقية فترةٍ ما بعد الظهر لم يُبدِ لي أيَّ ملاحظاتٍ أخرى حول الأمر، ولا عن الاكتشاف الذي جرى في الصباح. لكن بينما كنتُ أُغادر المكتب ليلًا، قال لي شيئًا.

قال: «لا تقُل شيئًا عن تلك الوصية لأي شخص.» وتابع: «سأُفكِّر في هذا الأمر الليلة، وأرى ما قد أتوصَّل إليه. الأمر كما قلتَ من قبل، يا هيو؛ لكشف غموض كل هذا، علينا العودة للماضي، ربما لماضٍ بعيد.»

لم أقُل شيئًا وعُدت إلى البيت. في الوقت الحالي كان لديَّ عمل خاص بي؛ كنتُ سأنفِّذ ما كنتُ قد قرَّرته بعدما أبلغني تشيسهولم بالأخبار عن كرون. لن أُفصح عن سرِّي للسيد ليندسي، ولا للشرطة، ولا حتى لمايسي. سأذهب مباشرةً وأكشفه للرجل الوحيد المَعني به؛ السير جيلبرت كارستيرز. سأتحدَّث إليه بصراحة، وأنتهي من ذلك الأمر. وبمجرد أن تناولت العشاء، ركبتُ دراجتي، ومع اقتراب الغسَق، انطلقت إلى هاثركلو هاوس.

الفصل الثالث عشر

سير جيلبرت كارستيرز

ربما من أجلِ تبرير تصرُّفي الحالي لنفسي أخذتُ، خلال تلك الرحلة، أُراجع الأسباب التي كانت قد جعلتني أُمسك لِساني حتى ذلك الوقت، وقادتني الآن للذهاب إلى السير جيلبرت كارستيرز. لقد شرحتُ بالفعل السببَ في أنني لم أُخبِر الشرطة ولا السيد ليندسي بما رأيته؛ أن طبيعتي المُتسمة بالحذَر والكتمان جعلتني خائفًا من قول أي شيءٍ يمكن أن يُثير الشكَّ في رجل بريء؛ وأردتُ أيضًا أن أنتظر تطوُّرات الأحداث. لم أكن مُهتمًّا كثيرًا بتلك السمة التي كانت للأمر. لكن انتابَتْني بعض الهواجس لأنني لم أُخبِر مايسي دنلوب؛ إذ منذ الوقت الذي كنتُ قد توصَّلتُ فيه أنا وهي إلى تفاهُمٍ جادٍّ ورصين، اتفقنا على أنَّنا لن نُخفي أيَّ أسرار عن بعضنا. فلماذا، إذن، لم أخبرها بهذا الأمر؟ استغرق ذلك الكثير من الشرح بعد ذلك، عندما تبيَّن من الأمور أن أفضلَ شيءٍ كان يُمكنني فعله في حياتي هو لو كنتُ ائتمنتها على السر؛ لكن هذا التفسير كان، في نهاية الأمر، في صالحي؛ فأنا لم أُخبِر مايسي لأنني كنتُ أعرف، مع أخذ جميع المُلابسات في الاعتبار، أن نفسها كانت ستُفعَم بالشكوك والمخاوف من أجلي، وستعيش إلى الأبد في جوٍّ من الرهبة خشيةَ أن يُعثَر عليَّ، مثل فيليبس، مقتولًا بسكينٍ مغروز في جسدي. من أجل كلِّ ما سبق، كان هذا في مصلحة مايسي. ولماذا، بعد التزام الصمت مع الجميع، قرَّرتُ أن أُفضي بالأمر للسير جيلبرت كارستيرز؟ هنا، خطر على بالي أندرو دنلوب، بالطبع، لا شعوريًّا. لأنه في تلك المُحاضرات التي كان مغرمًا جدًّا بإعطائها لنا ونحن صغار، كان يُكرِّر باستمرار مبدأً أخلاقيًّا بدا أنه كان يُعلِّق أهميةً كبيرة عليه؛ حيث كان يقول: «إذا كان لديك أي شيءٍ ضدَّ رجل، أو سبب لعدم الثقة به، لا تحتفظ به لنفسك، ولا تُلمِّح به إلى أشخاصٍ آخرين من وراء ظهره، ولكن اذهب إليه مباشرةً وأخبِره في وجهه، وتناقَش فيه معه.»

كان أندرو دنلوب رجلًا حكيمًا، مثلما كان يعرف جميع معارفه، وشعرتُ أنَّ أفضل ما يُمكنني فعله هو أن أتعلَّم درسًا منه في هذا الأمر. لذلك سأذهب مباشرةً إلى السير جيلبرت كارستيرز، وأُخبِره بما يدور في ذهني؛ أيًّا كانت العواقب.

كانت الشمس قد غربت، والغسق يعلو التلال والنهر، عندما وصلتُ إلى أراضي هاثركلو ونظرتُ حولي في مكانٍ، على الرغم من أنني كنتُ أعيش بالقُرب منه منذ ولادتي، لم تكن قدماي قد وطئته من قبل. كان المنزل قائمًا على هضبةٍ مرتفعة تطلُّ على نهر تويد، وخلفه إزار عميق من الأشجار وتُخوم من المزروعات على كِلا الجانبَين، وكان يُحيط بالمنزل والحديقة جدار مُرتفع من جميع الجوانب؛ بحيث لا يُمكنك إلا رؤية القليل من أيٍّ منهما إلى أن تعبُر البوابات. بدا، في ضوء المساء، مكانًا قديمًا رومانسيًّا ورائعًا يُمكنك أن تتوقَّع أن ترى فيه أشباحًا، أو جنيَّاتٍ، أو ما شابَهَ ذلك. كان المنزل نفسه شيئًا بين قصرٍ من القرن الثامن عشر وحصنٍ حدودي قديم، وكان الجزء الأوسط منه ذا سقفٍ مُرتفع للغاية، وله أبراج، ذات سلالم خارجية، عند الزوايا؛ كانت الشرفات ذات متاريس، والأبراج تحتوي على فتحاتٍ لرمي السهام. لكن مع أن المكان كان رومانسيًّا، لم يكن فيه قتامة، وعندما مررتُ إلى الواجهة، بين الأسوار الرمادية وحديقة درابزين منخفضة في أسفل شرفة، سمعتُ من خلال النوافذ المفتوحة لإحدى القاعات ذات الإضاءة الباهرة نقر كرات بلياردو وصوتَ رجالٍ يضحكون من القلب، ومن خلال نافذة أخرى نغمات بيانو.

قابلني خادم عجوز عند باب القاعة، ونظر نحوي عابسًا وأنا أسند درَّاجتي على أحد الأعمدة وأعود له. ازداد عبوسه عندما طلبتُ مقابلة سيده، وهزَّ رأسه نحوي، وهو يتفحَّصني من أعلى لأسفل كما لو كنتُ شخصًا غير مرغوب فيه.

وقال: «لا يمكنك مقابلة السير جيلبرت في هذا الوقت من المساء.» ثم أضاف: «ماذا تريد؟»

أجبته وأنا أنظر بحدَّة إلى وجهه: «هلا أخبرتَ السير جيلبرت أن السيد مونيلوز، كاتب السيد ليندسي، المحامي، يرغب في رؤيته بخصوص أمرٍ هام؟» ثم أضفت: «أظن أنه سيُسرع إلى مُقابلتي عندما تُبلغه تلك الرسالة.»

حدَّق في وجهي لثانيةٍ أو ثانيتَين قبل أن يبتعِد في استياء، وتركني على الدَّرَج. ولكن، كما توقَّعت، عاد على الفور تقريبًا، وأشار لي أن أدخل وأتبعه. فتبعتُه، مرورًا بالمزيد من الخدم الذين حدَّقوا في وجهي كما لو كنتُ قد أتيت لسرقة الفضيَّات، وعبر ممرَّاتٍ مُغطَّاة بأبسطةٍ ناعمة، قادني بقليلٍ من التهذيب إلى إحدى الغُرَف.

وقال بفظاظة: «عليك أن تجلس وتنتظر.» وتابع: «سيُقابلك السير جيلبرت بعد قليل.»

وأغلق عليَّ الباب، فجلستُ ونظرت حولي. كنتُ في غرفةٍ صغيرة مليئة بالكتب من الأرض إلى السقف؛ كُتب كبيرة وصغيرة، مُجَلَّدة بالجلد الفاخر، تلمع حروفها وعناوينها المُذهَّبة في أشعة مصباحٍ طويل موضوع على مكتبٍ كبير في الوسط. كانت غرفةً رائعة، ذات أثاثٍ وتجهيزات فاخرة؛ لدرجة أن قدمَيك كان يمكن أن تغوصا في دفء الأبسطة والسجاجيد، وكان بها أشياءُ للراحة والرفاهية لم أسمع بها من قبل. لم يكن قد سبق لي أن وُجِدتُ في منزل رجل ثري من قبل؛ لقد جعلَتْني فخامته، والفكرة التي كانت تُعطيها عن الثروة، أشعر بهوةٍ شاسعة بين هؤلاء الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون. ووسط هذه الأفكار الفلسفية، فُتِحَ الباب فجأة، ودخل السير جيلبرت كارستيرز، فوقفتُ وانحنيتُ له بأدب. فأومأ برأسه بلُطف، وضحك وهو يومئ.

وقال: «أوه!» وتابع: «سيد مونيلوز! لقد رأيتُك من قبل؛ في ذلك التحقيق منذ أيام، على ما أظن. أليس كذلك؟»

أجبته: «بالفعل، يا سير جيلبرت.» وتابعت: «كنتُ هناك مع السيد ليندسي.»

قال: «عجبًا، بالطبع، وقد أدليتَ بشهادتك.» ثم أضاف: «أذكر ذلك. حسنًا، ولماذا أردتَ مقابلتي، يا سيد مونيلوز؟ هل ترغب في تدخين سيجار؟» تابع، وهو يلتقط صندوقًا من على المنضدة ويُقدِّمه لي. وقال: «تفضَّل.»

أجبته: «شكرًا لك، يا سير جيلبرت، لكنني لم أبدأ في ذلك بعد.»

ضحك، والتقط سيجارًا، وأشعله، وألقى بنفسه على كرسي مُريح، مُشيرًا لي أن أجلس على آخرَ قبالته تمامًا وقال: «حسنًا، إذن سأُدخِّن أنا.» ثم أضاف: «الآن، إذن، هاتِ ما عندك!» وتابع: «لن يُقاطعنا أحد، ووقتي لك. هل لديك رسالة لي؟»

ألقيتُ عليه نظرةً فاحصة قبل أن أتحدَّث. كان رجلًا ضخمًا، ورائعًا، ووسيمًا، عمره نحو خمسة وخمسين عامًا، في رأيي، لكنه كان لا يزال مُحتفظًا بشبابه على غير العادة؛ حليق الذقن، ذا ملامح قوية، وعينَين حادَّتَين ونظرة مُنتبهة للغاية؛ إن كان أي شيء فيه قد استرعى انتباهي بخاصة، فهو حدة نظراته ويقظتها، وفكُّه المُربَّع الذي يوحي بالتصميم، وقوَّته غير العادية وبياض أسنانه. كان سريع الابتسام، وسريعًا، أيضًا، في استخدام يدَيه اللَّتين كانتا تتحرَّكان دائمًا أثناء حديثه، كما لو كان ذلك للتأكيد على ما كان يقوله. وقد بدا في هيئةٍ رائعة وأنيقة للغاية وهو جالس هناك بملابسه المسائية

الراقية، وكنتُ في حيرة لمعرفةِ ما الذي استرعى انتباهي أكثر؛ حقيقة ما كان عليه، كونه البارونيت السابع وكبير عائلة عريقة، أم الطريقة المألوفة، البسيطة، الطيبة التي عاملَني بها، وتحدَّث بها معي، كما لو كنتُ رجلًا من نفس طبقته.

كنتُ قد قرَّرتُ ما سأفعله وأنا جالس في انتظاره، والآن بعد أن طلب منِّي التحدُّث، أخبرته القصة بأكملها من البداية إلى النهاية، بدءًا من جيلفرثويت وانتهاءً بكرون، دون حجْب أيِّ تفاصيل أو تفسيرٍ لتصرُّفي. استمع في صمت، وباهتمامٍ ويقظة يفوقان ما رأيته من أيِّ رجلٍ في حياتي، ومن حينٍ لآخر كان يُومئ برأسه ويبتسِم، وعندما انتهيتُ طرح سؤالًا بحدة.

سأل، وهو يتفحَّصني بتمعُّن: «إذن، بخلاف كرون الذي، حسبما سمعت، قد مات، لم تُخبِر أحدًا بهذا على الإطلاق؟»

أكَّدت له: «لا أحد، يا سير جيلبرت.» وأضفت: «ولا حتى ...»

سأل بسرعة: «ولا حتى مَن؟»

قلت: «ولا حتى حبيبتي.» وتابعت: «وهو أول سرٍّ أُخفيه عنها.»

ابتسم لذلك، ونظر لي نظرةً سريعة كما لو كان يحاول الحصول على فكرةٍ أكثرَ اكتمالًا عني.

ثم قال: «حسنًا، لقد فعلتَ الصواب. لا يعني ذلك أنني قد أهتمُّ مُطلقًا، يا سيد مونيلوز، لو كنتَ قد قلتَ كلَّ هذا في التحقيق. ولكن الشك تسهُل إثارته، وينتشر، أجل، مثل النار في الهشيم! وأنا غريب، كما هو الحال، في هذا البلد، حتى الآن، ويُوجَد أشخاص قد يفكِّرون في أشياء لا أُفضِّل أن يفكِّروا فيها، وباختصار، أنا مُمتنٌّ لك كثيرًا. وسأُخبرك بصراحة، كما كنتَ صريحًا معي، السبب في تواجُدي عند مُفترق الطرق هذا في ذلك الوقت تحديدًا وفي تلك الليلة بالذات. إنه تفسير بسيط، ويمكن تأكيده بسهولة، إذا لزم الأمر. فأنا أُعاني حالةً مُزعجة من الأرق، عدم القدرة على النوم؛ لذا أنا مُعتاد على أن أمشي مسافاتٍ طويلة في وقتٍ متأخِّر من الليل. ومنذ أن جئتُ إلى هنا، كنتُ أذهب في ذلك الطريق كلَّ ليلةٍ تقريبًا، كما يمكن أن يؤكد خدمي. فأنا أمشي، عادةً، من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة — لأستحثَّ نفسي على النوم. وفي تلك الليلة مشيتُ أميالًا وأميالًا باتجاه يثهولم، وعُدت؛ وعندما رأيتني مع خريطتي ومصباحي الكهربي، كنتُ أبحث عن أقرب مُنعطف إلى البيت؛ فأنا لستُ على درايةٍ جيدة بالطرُق بعد»، واختتم حديثه بابتسامةٍ أظهرت أسنانه البيضاء، «ويجب أن أحمِل معي خريطة. وهكذا كان الأمر؛ وهذا كل شيء.»

عندئذٍ نهضتُ من مقعدي. فقد تحدَّث بسهولةٍ وبراعة لدرجةِ أنه لم يَعُد لديَّ شكٌّ في حقيقةِ ما كان يقوله مِثلما لم يكن لدي شكٌّ في وجودي.

وقلت: «إذن هذا كلُّ شيءٍ لي، أنا أيضًا، يا سير جيلبرت.» ثم أضفت: «لن أنطق بكلمةٍ أخرى عن هذا الأمر لأي أحد. إنه ... كما لو أنه لم يحدُث من الأساس. لقد كنتُ أفكِّر طوال الوقت في أن ثمَّة تفسيرًا مُقنعًا للأمر. لذا سأتمنَّى لك ليلة سعيدة.»

قال، مشيرًا إلى الكرسي المريح: «اجلس مرةً أخرى لدقيقة.» وتابع: «لا داعي للعجلة. أنت مُتدرب لدى السيد ليندسي، المحامي، أليس كذلك؟»

أجبته: «بلى.»

سأل: «هل أنت مُلتزم بعقد للتدريب عنده؟»

قلت: «كلَّا.» وتابعت: «أنا مُتدرب عاديٌّ ... منذ سبع سنوات.»

سأل: «هل لديك الكثير من الخبرة في العمل المكتبي والروتين؟»

أجبت: «أجل.» وأضفت: «خبرة طويلة جدًّا يا سير جيلبرت!»

سأل: «هل أنت جيد في الأرقام والحسابات؟»

أجبت، متسائلًا عن سبب كلِّ هذه الأسئلة: «لقد توليتُ جميع حسابات السيد ليندسي — والعديد من حسابات الائتمان — على مدى السنوات الخمس الماضية.»

فسأل: «إذن، هل أنت جيد تمامًا في جميع الأمور الكتابية؟» وأضاف: «مسك الدفاتر، كتابة الرسائل، كل تلك الأمور؟»

أكدت له: «أستطيع أن أقول بأمانةٍ إنني خبير في كل شيءٍ من هذا القبيل.»

ألقى عليَّ نظرةً سريعة، كما لو كان يُقيِّمني بوجهٍ عام.

وقال: «حسنًا، سأقترح عليك أمرًا يا سيد مونيلوز.» وتابع: «حقيقة الأمر أنني أريد مدير أعمال من نوعٍ ما، ويبدو لي أنك بالضبط الرجل الذي أبحث عنه!»

الفصل الرابع عشر

أموال الرجل الميت

اندهشتُ كثيرًا من هذا الاقتراح الْمُذهل، لدرجةِ أنني لم أملك عندئذٍ سوى التحديق فيه، وقبل أن يكون بوسعي أن أستجمِع قُدرتي على الحديث، طرح عليَّ سؤالًا سريعًا.

حيث سأل: «أظنُّ أن ليندسي لن يقِف في طريقك، أليس كذلك؟» وتابع: «مثل هذه الوظائف يتهافت عليها الجميع، كما تعلم.»

أجبتُه: «لن يقِف السيد ليندسي في طريقي، يا سير جيلبرت.» وأضفت: «ولكن ...»

قال، وقد لاحظ تردُّدي: «ولكن ماذا؟» ثم أضاف: «هل هي وظيفة لا تهتمُّ بها، إذن؟ إن راتبها هو خمسمائة جنيه في السنة؛ وهي وظيفة دائمة.»

مع الغرابة التي ربما بدا عليها الأمر، مع أخْذ جميع الظروف في الاعتبار، لم يخطر ببالي للحظةٍ واحدة مُطلقًا أن الرجل كان يشتري صمتي، ويشتريني. لم يجُل طيفُ مثل هذه الفكرة في رأسي، وعبَّرت عمَّا كان في ذهني في كلماتي التالية.

فقلت: «بالطبع أودُّ الحصول على وظيفةٍ كهذه، يا سير جيلبرت.» وتابعت: «لكن ما أُفكِّر فيه هو: هل أنا مُناسب لها؟»

ضحك من ذلك، وكأن إجابتي أعجبته.

وقال: «حسنًا، لا شيء أفضل من لمحة تواضُع، يا مونيلوز.» وتابع: «إذا كنتَ تستطيع أن تؤدي كلَّ ما تحدَّثنا عنه للتو، فأنت مناسِب لي جدًّا. أنا مُعجَب بمظهرك، وأنا مُتأكد من أنك من النوع الذي سيؤدي مهام الوظيفة على أكمل وجه. إن الوظيفة تحت تصرُّفك، إن كنتَ ترغب في شغلها.»

كنتُ لا أزال أُغالب دهشتي. خمسمائة جنيه في السنة! ووظيفة دائمة! بدت ثروةً لشابٍّ في سِني. وكنتُ أحاول أن أجد الكلمات المناسبة لأقول كلَّ ما كنتُ أشعر به، عندما تكلَّم مرة أخرى.

وقال: «انظر هنا!» وتابع: «دعْنا لا نُرتِّب هذا كما لو كنَّا قد فعلناه من وراء ظهر صاحب عملك الحالي؛ فأنا لا أودُّ أن يظنَّ السيد ليندسي أنني تجاهلتُه كي أحصل عليك. دعِ الأمر يتمُّ على هذا النحو: سأزور السيد ليندسي بنفسي، وأُخبره أنني أُريد مديرًا لأعمالي ومُمتلكاتي، وأنني سمعتُ كلامًا طيبًا عن مُتدرِّبه، وأنني سأوظِّفك بناءً على توصيته. وهو من النوع الذي سيمنحك توصيةً قوية على سبيل المرجع، أليس كذلك؟»

صِحتُ قائلًا: «أوه، سيفعل ذلك، يا سير جيلبرت!» وأضفت: «أي شيء سيُساعدني في ...»

قال: «إذن دعْنا نترك الأمر عند هذا الحد.» وتابع: «سوف أزوره في مكتبه؛ ربما غدًا. في هذه الأثناء، أبقِ الأمر طيَّ الكتمان. ولكن ... أنت ستقبل عرضي، أليس كذلك؟»

قلت: «سأقبله بكلِّ فخرٍ وسرور، يا سير جيلبرت.» وأضفت: «وإذا سمحتَ ببعضٍ من قلة الخبرة ...»

ضحِك قائلًا: «ستبذل قصارى جهدك، أليس كذلك؟» ثم أضاف: «لا بأس في ذلك يا مونيلوز.»

صحبني إلى الباب، وظل مُرافقًا لي إلى الشرفة. وبينما كنتُ أجرُّ دراجتي بعيدًا عن المدخل، سار خطوةً أو خطوتين بجانبي، ويداه في جيوبه، وشفتاه تُصدران نغمةً مُبهمة. وفجأة التفت نحوي.

وسأل: «هل سمعت أيَّ أخبارٍ أخرى عن تلك القضية الليلة الماضية؟» وأضاف: «أعني عن كرون؟»

أجبته: «لا شيء، يا سير جيلبرت.»

علَّق قائلًا: «سمعتُ أن الرأي السائد أن الرجل طُعِنَ برُمح سلمون.» وتابع: «وربما قُتِلَ قبل أن يُلقى به في نهر تيل.»

قلت: «هذا ما بدا أن الطبيب يظن.» وأضفت: «والشرطة، أيضًا، على ما أعتقد.»

قال: «آه، حسنًا، لا أعرف ما إذا كانت الشرطة على علمٍ بذلك، لكنني مُتأكد جدًّا من أن صيدًا جائرًا لسمك السلمون في الليل يحدُث في هذه الأنحاء يا مونيلوز. لقد تصوَّرت ذلك لبعض الوقت، وفكَّرت في التحدُّث مع الشرطة حول هذا الأمر. لكن كما ترى، أرضي لا تقع على نهر تيل أو نهر تويد، لذلك لم أهتم بأن أتدخَّل. لكنَّني متأكد من أن الأمر كذلك، ولن تكون مفاجأة لي أن يكون هذان الرجلان، كرون وفيليبس، قد لقيا حتفهما

على يد العصابة التي أفكِّر فيها. إنها فكرة تستحقُّ المتابعة، على أي حال، وسأتحدَّث مع موراي بشأنها عندما أذهب إلى البلدة غدًا.»

ثم، بتحيةٍ مُقتضبة تمنَّى لي فيها ليلة طيبة، تركني ودخل المنزل، وخرجتُ من هاثركلو وقُدت دراجتي إلى المنزل وسط دوامة من الأفكار. وسأعترف دون تردُّد أن تلك الأفكار لم يكن لها علاقة بما تحدَّث عنه السير جيلبرت كارستيرز في نهاية حديثه؛ لم تكن عن فيليبس ولا كرون ولا عن اقتراحه بوجود عصابةٍ مُحتملة للصيد الليلي الجائر، بقدرِ ما كانت عن نفسي وهذه الفرصة المفاجئة لتغيُّرٍ كبيرٍ في حظوظي. لأنه، في نهاية المطاف، يجب علينا أن نعتني بأنفسنا، وعندما يُسأل شابٌّ في مثل عمري إن كان يرغب في استبدال وظيفةِ تدريب مهني براتبِ مائة وعشرين جنيهًا في السنة بوظيفة مدير أعمال براتبٍ يتجاوز أربعة أضعاف ذلك، وفي وظيفة دائمة، يجب عليك أن تُقِرَّ بأنَّ عقله سوف يركِّز على ما يَعنيه مثل هذا التغيير له، مُستبعدًا جميع الشئون الأخرى. كان راتب خمسمائة جنيه في السنة يعني لي كل أنواع الأشياء الجميلة؛ الاستقلال بحياتي، ومنزلًا خاصًّا بي، وفي القريب العاجل، الزواج من مايسي دنلوب. وكان من المدهش أني حافظت على هدوئي، وأمسكتُ لِساني عندما وصلتُ إلى البيت؛ لكنني فعلت ذلك، ولغرضٍ ما، ولأكثر من مرة. خلال نصف الساعة التي تمكَّنت فيها من مقابلة مايسي في نهاية تلك الليلة، سألتني عن السبب وراء صمتي الشديد، ولم أفصح لها عن شيء، رغم صعوبة الامتناع عن فعل ذلك.

كانت الحقيقة أن السير جيلبرت كارستيرز قد فتنني، ليس فقط بعرضه الكبير، ولكن أيضًا بأخلاقه اللطيفة الارتجالية والرائعة. لقد جعلَني على راحتي في الحال؛ وتحدَّث بصراحةٍ شديدة وبصِدق واضح عن أفعاله في تلك الليلة الحافلة بالأحداث، حتى إنني قبلتُ كلَّ كلمةٍ قالها. وفي المرَّات القليلة التي فكَّرتُ فيها في الأمر، كنتُ مُستعدًّا للغاية لقبول نظريته حول كيفية مقتل هذَين الرجلَين، وكانت بالتأكيد معقولة، وتستحقُّ المتابعة. تذكَّرت أنه قبل بضع سنوات، حدث شيءٌ من هذا القبيل، وأدَّى إلى شجارٍ بين صائدي سمك السلمون بطريقةٍ جائرة ومُراقبي النهر؛ فلماذا يُستبعَد حدوثه مرةً أخرى؟ كلما فكَّرتُ في الأمر، ازداد شعوري بمنطقية اقتراح السير جيلبرت. وفي هذه الحالة، سينكشف كل الغموض عن هذه القضايا؛ فقد يثبت أن مَقتل فيليبس، وموت كرون، كان نتيجةً لبعض المواجهات العنيفة بينهما وبين الخارجِين على القانون الذين هربوا لاحقًا إلى برِّ الأمان وكانوا لا يزالون بلا شكٍّ يرتجفون على مقربة، خوفًا من انكشاف أفعالهم الآثمة؛

فما بدا أمرًا مُعقَّدًا قد يكون أبسط أمرٍ في العالَم. هكذا قدَّرتُ الأمر؛ وفي صباح اليوم التالي أتت أخبار بدا أنها تُشير إلى أن الأمور كانت ستُفَسَّر على غرارِ ما اقترحه السير جيلبرت.

جلب تشيسهولم تلك الأخبار إلى مكتبنا، بعد وصول السيد ليندسي مباشرةً. وأخبر كِلَينا بها؛ ومن طريقته في روايتها، أدركنا — ربما لم أُدركها بنفس القدْر من الوضوح الشديد الذي أدركها به السيد ليندسي — أن الشرطة اتَّبعت بالفعل أسلوبها المُفضَّل في البحث عما بدا لها خطَّ المطاردة الواضح.

وأعلن تشيسهولم، والارتياح بادٍ عليه: «أظنُّ أننا حصلنا على الدليل الصحيح أخيرًا، حول مقتل ذلك الرجل؛ فيليبس.» وأضاف: «وإذا كان هذا هو الدليل الصحيح، كما يبدو، يا سيد ليندسي، فلن يُوجَد غموضٌ كبير في هذه القضية، في نهاية الأمر. مجرد قضية قتل واضحة من أجل السرقة — هذا كلُّ ما في الأمر!»

سأل السيد ليندسي بهدوء: «ما دليلك؟»

أجاب تشيسهولم، مع غمزةٍ خبيثة: «حسنًا، ستفهم، يا سيد ليندسي، أننا فعلنا كلَّ ما يمكن فعله في هذه الأيام القليلة الماضية، منذ ذلك التحقيق عن فيليبس، كما تعلم. في الحقيقة، كنا نُجري تحرياتٍ حيثما كان يبدو أنه تُوجَد فرصة لاكتشاف أيِّ شيء. واكتشفنا شيئًا ما، من خلال أحد البنوك الموجودة هناك في بيبلز.»

نظر إلينا كما لو كان يرغب في أن يرى إن كنَّا قد تأثَّرنا بما قال؛ ومع إدراكه، على أي حال، أننا مُهتمَّان للغاية، تابع الحديث.

وقال: «يبدو — سأُخبركما بالقصة بتسلسُلها، كما حدثت — يبدو أنه منذ زهاء ثمانية أشهر تلقَّى وكيل بنك الكتان البريطاني في بيبلز خطابًا من رجلٍ يُدعى جون فيليبس، مُرسَلًا من مكانٍ يُدعى كولون، في بنما — التي تقع في أمريكا الوسطى، كما تعرفان — ومرفقًا به كمبيالة بثلاثة آلاف جنيه على المؤسَّسة المصرفية الدولية في نيويورك. وحمل الخطاب تعليماتٍ لوكيل بيبلز بتحصيل هذا المبلغ ووضْعه في مصرفه لحساب مُرسِل الخطاب. علاوة على ذلك، طُلِبَ فيه أن تظلَّ الأموال هناك حتى عودة فيليبس إلى موطنه في اسكتلندا، في غضون بضعة أشهر من تاريخ كتابة الخطاب. وقد نُفِّذ كل هذا، بالطبع، في حينه؛ ووُضِع مبلغ ثلاثة الآلاف جنيه باسم فيليبس. وجرى تبادُل مُراسَلات قليلة في كولون بينه وبين البنك في بيبلز، وأخيرًا كتب أنه سيغادر بنما إلى اسكتلندا، وسيزور البنك بُعَيْدَ وصوله. وفي صباح اليوم الذي قُتل فيه، زار فيليبس البنك وأثبت هويته، وما إلى ذلك، ثم سحب خمسمائة جنيه من ماله؛ مائتي جنيه عملات

ذهبية، والباقي عملات ورقية من فئاتٍ صغيرة، وحمل هذا المبلغ معه، يا سيد ليندسي، في حقيبة يدٍ صغيرة كانت معه.»

أومأ السيد ليندسي، الذي كان يستمع باهتمامٍ كبير.

وقال: «أجل!» وتابع: «حمل معه خمسمائة جنيه. أكمل، إذن.»

تابع تشيسهولم، الذي كان واضحًا رضاه الشديد عن نفسه بسبب الطريقة التي كان يَنْظُم بها حقائقه: «الآن، نحن الشرطة — مُمثلة، دون مواربة، من خلالي أنا — كنا نُجري المزيد من التحريات حول كورنهيل وكولدستريم. وسيُقْسِم رجلان في محطة كورنهيل على أنه عندما نزل فيليبس من القطار هناك، في مساء يوم الجريمة، كان يحمِل حقيبة يدٍ صغيرة مثلما يتذكَّر موظف البنك — حقيبة جلدية بنية، صغيرة، جديدة. وهما مُتأكدان من ذلك — ويتذكَّر محصل التذاكر أنه وضعها تحت ذراعه بينما كان يُفتِّش في جيبه عن تذكرته. والأكثر من ذلك، أن مالك الحانة بجوار الجسر هناك في كولدستريم يتذكَّر الحقيبة، بوضوح كافٍ، وأن فيليبس لم يتركها من يدِه مُطلقًا أثناء وجوده هناك. وبالطبع، يا سيد ليندسي، الاحتمال المُرجَّح هو أن المال كان في تلك الحقيبة؛ تمامًا مثلما سحبه من البنك.»

علَّق السيد ليندسي قائلًا: «لديك المزيد لتقوله.»

أجاب تشيسهولم: «بالضبط.» ثم أضاف: «ويُوجَد عنصران. أولًا؛ وجدنا تلك الحقيبة! فارغة بكل تأكيد. في الغابة بالقُرب من تلك الأطلال القديمة على ضفة نهر تيل. مُلقاة تحت الكثير من الأشياء؛ الأشياء العتيقة، وكما ستفهم، كان من الممكن أن تظلَّ هناك حتى يوم القيامة لو لم أُجرِ بحثًا دقيقًا للغاية. ولكن هذا ليس كل شيء. العنصر الثاني هنا هو ما يلي: يُجْمِع موظفو السكك الحديدية في كورنهيل على قول إنه في نفس القطار الذي جلب فيليبس إلى هناك، وصل أيضًا رجلان غريبان، يُشبهان السياح، وكانت تذكرتاهما صادرتان من ... من أين تظن، إذن، يا سيد ليندسي؟»

أجاب السيد ليندسي: «من بيبلز، بالطبع.»

صاح تشيسهولم، بنبرة انتصار: «تخمينك صحيح!» وتابع، «بيبلز بالفعل ... والآن، كيف تبدو هذه القضية في ظنك؟ يُوجَد سيَّاح كثيرون جدًّا في تويدسايد في هذا الوقت من العام ومن ثَمَّ لم يولِ أيُّ أحدٍ اهتمامًا كبيرًا في تلك الليلة بهذَين الرجُلَين، ولا إلى أين ذهبوا. ولكن ما الذي يُمكن أن يكون أكثر وضوحًا، حسب ظنك؟ بالطبع، كان هذان الشخصان قد تعقَّبا فيليبس من البنك، وتبِعاه حتى تمكَّنا منه في ذلك المكان الذي عُثِرَ عليه فيه، وقتلاه ... لسرقته!»

الفصل الخامس عشر

خمسمائة جنيهٍ في السنة

كان من الواضح جدًّا أن تشيسهولم في حالة من التيقُّن المُتسم بالابتهاج بشأن نظريته، ولا أظنُّ أنه كان مسرورًا جدًّا عندما بدأ السيد ليندسي في طرح الأسئلة عليه، بدلًا من الإشادة بحماسٍ بكونها نظرية واعدة.

حيث سأل: «لقد وجدتَ مبلغًا كبيرًا مع فيليبس عندما فتَّشت جثته، أليس كذلك؟»

أجاب تشيسهولم: «أجل ... مبلغ كبير!» وتابع: «لكنه كان في دفتر جيبه داخل الجيب الداخلي لمعطفه، وفي محفظته.»

استفسر السيد ليندسي: «لو كان الغرَض هو السرقة، فلماذا لم يأخذوا كلَّ شيء؟»

أجاب تشيسهولم: «أجل، كنتُ أعرف أنك ستسأل ذلك السؤال.» ثم أضاف: «ولكن ما حدث أنهم تعرضوا للمقاطعة. فأخذوا الحقيبة التي يُمكنهم حملها؛ لكن من المُحتمل أنهم سمعوا السيد مونيلوز ينزل عبر المجاز الضيق قبل أن يتمكَّنوا من تفتيش جيوب الرجل.»

قال السيد ليندسي: «عجبًا!» وأضاف: «وكيف تُفسِّر هروب رجُلَين من المنطقة دون أن يلفتا الانتباه؟»

قال تشيسهولم: «أمرٌ سهلٌ للغاية.» وتابع: «كما قلت توًّا، تُوجَد أعداد كبيرة من الغرباء الذين يأتون إلى تويدسايد في هذا الوقت من العام، ومن سيُفكِّر في أيِّ شيءٍ عند رؤيتهم؟ هل كان ثمة أمرٌ أسهل من أن ينفصل هذان الاثنان، وأن يظلَّا قريبَين من المكان بقية الليل، ثم يهربا بالقطار من محطة فرعية أو أخرى في صباح اليوم التالي؟ كان يمكنهما فعل ذلك بسهولة؛ ونحن نُجري تحرياتٍ في جميع المحطات في المنطقة على جانبي نهر تويد، اتِّساقًا مع هذه الفكرة.»

علَّق السيد ليندسي بطريقةٍ جافة: «حسنًا — سيكون لديك الكثير من الأشخاص الذين يتعيَّن عليك تتبُّعهم، إذن.» وتابع: «إذا كنتَ ستتتبَّع كل سائحٍ ركب قطارًا في صباح اليوم التالي بين بيرويك وولر، وبيرويك وكيلسو، وبيرويك وبورنماوث، وبيرويك وبليث، فستحتاج إلى مجموعةِ عمل، على ما أظن!»

قال تشيسهولم في تحدٍّ: «ومع ذلك، هكذا جرى الأمر. والبنك في بيبلز لدَيه أرقام الأوراق النقدية التي حملها فيليبس في حقيبته الصغيرة؛ وسأظلُّ أقتفي أثر هذَين الرجُلَين، يا سيد ليندسي.»

أجاب السيد ليندسي: «أتمنَّى لك حظًّا طيبًا، أيها الرقيب!» التفت نحوي عندما ذهب تشيسهولم. وقال: «هكذا الشرطة في كلِّ مكان، يا هيو.» وتابع: «وقد تتحدَّث حتى يجفَّ حلقك مع ذلك الرجل، وسيظلُّ متمسكًا بقصته.»

سألته، مُندهشًا إلى حدٍّ ما: «إذن، ألا تصدِّق ذلك؟»

فأجاب: «قد يكون مُحقًّا.» وتابع: «ليس لديَّ اعتراض. دعْه يمارس عمله، والآن سنمارس نحن عملنا.»

كان يومًا حافلًا في المكتب، وذلك لكونه اليوم السابق ليوم المحكمة، ولم يكن لدَينا وقت للحديث عن أيِّ شيءٍ سوى قضايانا الخاصة. ولكن خلال فترةِ ما بعد الظهر، في الوقت الذي كنتُ قد غادرتُ فيه المكتب لمدة ساعةٍ أو ساعتَين في مهمة عمل، جاء السير جيلبرت كارستيرز، وكان مع السيد ليندسي في اجتماعٍ مُغلق عندما عُدت. وبعد أن أمضيا بعض الوقت معًا، خرج السيد ليندسي آتيًا نحوي وأشار لي بالدخول إلى غرفة الانتظار الصغيرة التي كانت لدَينا وأغلق الباب علينا، وأدركتُ على الفور من التعبير البادي على وجهه أنه لم يكن لدَيه أيُّ فكرةٍ عن مُقابلتي مع السير جيلبرت في الليلة السابقة، أو عن أن لديَّ أيَّ فكرةٍ عما سيقوله لي.

قال، وهو يُربِّت على كتفي: «هيو، يا ولدي! من الواضح أنك أحد أولئك الذين وُلِدوا محظوظين. يقول المثل القديم: «البعض يُحقِّقون العظمة، والبعض تُدفَع إليهم العظمة دفعًا!» أليس كذلك؟ ها هي ذي العظمة، بدرجةٍ ما، قد دُفِعَت إليك!»

فسألت: «عمَّ تتحدَّث، يا سيد ليندسي؟» وتابعت: «لا أملك الكثير من العظمة، حسبما أظن!»

أجاب: «حسنًا، إن الأمر ليس ما تظنُّه في هذه الحالة؛ إنه ما يظنُّه الآخرون عنك. ها هو ذا السير جيلبرت كارستيرز في غرفتي هناك. وهو يرغب في توظيف مُديرٍ لأعماله؛

شخص يُمكنه إدارة الحسابات، وتولِّي الرسائل، والعناية بالممتلكات، وكان يبحث عن رجلٍ مناسب، وقد سمع أن هيو مونيلوز، المُتدرِّب في مكتب ليندسي للمُحاماة، هو بالضبط الشخص الذي يُريده، وباختصار، الوظيفة لك، إذا كنت ترغب في تولِّيها. ويا فتى، إن الراتب هو خمسمائة جنيه في السنة، وهي وظيفة دائمة، أيضًا! إنها فرصة رائعة لشابٍّ في مثل عمرك!»

سألت، مُحاولًا الجمع بين مظهرَي المفاجأة والاحترام اللائق لقيمة نصيحته: «هل تنصحني أن أقبلها، يا سيد ليندسي؟» ثم أضفت: «إنها وظيفة كبيرة، لشابٍّ، كما تقول.»

أجابني وهو يُربِّت مرةً أخرى على كتفي: «ليس إذا كان لديه رجاحة عقلك.» ثم أضاف: «بالفعل أنصحك بقبولها. لقد أعطيتُك أقوى التوصيات لدَيه. اذهب إلى مكتبي الآن وتحدَّث في الأمر مع السير جيلبرت بنفسك. ولكن عندما يصِل الأمر إلى ترتيب التفاصيل، استدعِني، وسأتأكَّد من أنك قد أبرمت الاتفاق على النحو الصحيح.»

شكرتُه بحرارة، وذهبتُ إلى غرفته، حيث كان السير جيلبرت جالسًا على كرسي مُريح. فأشار لي أن أغلق الباب، وما إن فعلتُ حتى ألقى نظرةً مُتفحصة، مُستفسرة.

سأل في الحال: «ألم تُخبره أنك تحدَّثت معي الليلة الماضية؟»

قلت: «لا، لم أُخبره.»

فقال: «حسنًا فعلت، وأنا أيضًا لم أُخبره.» ثم أضاف: «لا أُريده أن يعرف أنني تحدَّثت إليك قبل التحدُّث إليه؛ فسيبدو الأمر كما لو كنتُ أحاول إبعاد كاتبه عنه. حسنًا، لقد اتفقنا إذن، يا مونيلوز؟ ستقبل الوظيفة، أليس كذلك؟»

قلت: «يُسعدني ذلك للغاية، يا سير جيلبرت.» وتابعت: «وسأخدمك بأفضلِ ما في وسعي، إذا كان لدَيك القليل من الصبر معي في البداية. يُوجَد بعض الاختلاف بين وظيفتي الحالية وتلك التي تمنحها لي، لكنني سريع التعلم، و...»

قاطعني بلا مُبالاة: «أوه، لا بأس، يا رجل!» «ستفعل كل الذي أُريده. فأنا أكره الحسابات، وكتابة الرسائل، وكل هذا النوع من الأشياء، أزِل كلَّ ذلك عن عاتقي، وستُصبح أهلًا لوظيفتك. بالطبع، عندما تُواجه أمرًا غامضًا، تعالَ إليَّ؛ ولكن يُمكنني أن أشرح كلَّ ما يجب فعله في ساعةٍ من الحديث معك في البداية. حسنًا! اطلب من السيد ليندسي الدخول إلى هنا، وسنتحدَّث عن الأمر بطريقةٍ عملية.»

دخل السيد ليندسي وتولَّى مُهمة تسوية الأمور نيابةً عني. وسرعان ما تمَّ ترتيب الأمر. كان من المُقرَّر أن أبقى مع السيد ليندسي شهرًا آخر، وذلك لإعطائه فرصةَ الحصول

على مُتدرِّب رئيسي جديد، ثم أتسلَّم مهامي الجديدة في هاثركلو. كنتُ سأحصل على خمسمائة جنيه في السنة، مع إخطار مُدته ستة أشهر من كِلا الجانبَين؛ وبعد مضيِّ خمس سنوات، إن كنتُ لا أزال في الوظيفة، كان من المُقرَّر مراجعة الشروط بهدف زيادة الراتب؛ وكل هذا كان يجب تحديده على النحو الواجب كتابةً. هذه المُقترحات، بالطبع، كانت للسيد ليندسي، ووافق السير جيلبرت عليها جميعًا بسهولةٍ وسرعة. بدا من ذلك النوع من الرجال الذين يَميلون إلى قبول أيِّ شيءٍ معروض عليهم بدلًا من التحدُّث كثيرًا عنه. وبعد برهة، علَّق قائلًا إن كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وسيُترك السيد ليندسي ليتولَّى الأمر، ونهض ليُغادر، ولكن عند الباب توقَّف وعاد.

وقال: «أنا أُفكِّر في الذهاب إلى مركز الشرطة وإخبار موراي بأفكاري حول قضية كرون.» ثم أضاف: «في رأيي، يا سيد ليندسي، أن صيدًا غير قانوني لسمك السلمون يحدُث في هذه الأنحاء، ولو كانت أرضي مجاورةً لنهر تويد أو نهر تيل لكنتُ تحدثتُ عن الأمر من قبلُ. تُوجَد شخصيات غريبة على امتداد كِلا النهرَين في الليل؛ وأنا أعرف ذلك؛ لأنني أخرج كثيرًا، في أوقاتٍ مُتأخرة جدًّا، للمشي، محاولًا علاج نفسي من الأرق؛ وأنا أعلم ما رأيتُه. انطباعي أن كرون ربما يكون قد تورَّط مع بعض العصابات، وأن مَوته نشأ عن شجارٍ بينهم.»

أجاب السيد ليندسي: «ذلك أمرٌ مُحتمَل.» وتابع: «لقد حدثت مشكلة من هذا النوع منذ بضع سنوات، لكنني لم أسمع بالأمر مؤخرًا. بالتأكيد، سيكون من الجيد أن تُحفِّز الفكرة في ذهن موراي؛ فقد يُتابعها ويجد شيئًا ما.»

قال السير جيلبرت: «تلك القضية الأخرى، مَقتل فيليبس، ربما تكون قد نجمت عن نفس السبب.» وأضاف: «إذا أمسك أولئك الرجال بشخصٍ غريب في مكانٍ مُنعزل ...»

علَّق السيد ليندسي قائلًا: «لدى الشرطة نظرية بالفعل حول فيليبس.» وتابع: «يظنُّون أن ثمَّة مَن لاحَقَه من بيبلز، وقتله من أجل المال الذي كان يحمله في حقيبةٍ معه. ومن خلال خبرتي»، أضاف ضاحكًا، «أنه ما إن يتوصَّل رجال الشرطة إلى نظريةٍ من عندهم، فلا فائدة من اقتراح أي شيءٍ آخر عليهم؛ سيتمسَّكون برأيهم، حتى يثبت عدم صِحتها، أو حتى يصلوا إلى هدفهم.»

أومأ السير جيلبرت برأسه، كما لو أنه يوافق على ذلك، وفجأة نظر إلى السيد ليندسي نظرة استفسار.

وسأل: «ما رأيك أنت؟»

لكن السيد ليندسي لم يكن ليُستدرَج. فضحِك وهزَّ كتفَيه، وكأنه يُشير إلى أن القضية لم تكن تعنيه.

وأجاب: «ما كنتُ لأقول إن لديَّ رأيًّا يا سير جيلبرت» وتابع: «من السابق لأوانه جدًّا تكوين رأي، وليس لديَّ التفاصيل، ولستُ مُحققًا. لكن كل هذه الأمور بسيطة للغاية، عندما تصل إلى حقيقتها. تظن الشرطة أن هذه قضية بسيطة للغاية؛ مجرد جريمة قتل عادية بغية سطو عادي. سنرى!»

ثم غادر السير جيلبرت، ونظر السيد ليندسي نحوي، حيث وقفتُ بعيدًا قليلًا، ولاحظ أنني كنتُ أفكِّر.

فقال: «حسنًا يا بُني، أنت مذهول قليلًا من وظيفتك الجديدة، أليس كذلك؟ إنها فرصة رائعة لك، أيضًا! الآن، أظنُّ أنك سترغب في الزواج. هل هذا ما تفكِّر فيه؟»

قلت: «حسنًا، ليس هذا يا سيد ليندسي.» وتابعت: «أنا فقط كنت أتساءل — إن كان يجب أن تعرف — عن السبب في أنك لم تُخبِر السير جيلبرت، بينما كان هنا، عن توقيع أخيه الذي وجدتَهُ على وصية جيلفرثويت.»

ألقى نظرة حادَّة نحوي ونحو الباب؛ لكن الباب كان مُغلقًا بأمان.

وقال: «لم أُخبره!» ثم أضاف: «ولم أُخبر أيَّ شخص، ليس الآن! ولا تُخبر أحدًا بذلك، يا ولدي. أبقِ الأمرَ طيَّ الكتمان حتى أُبلغك. سأكشف غموض ذلك الأمر بطريقتي الخاصة. كما تفهم … صمت مُطْلق فيما يتعلَّق بتلك النقطة.»

أجبتُه أنني، بالطبع، لن أنطق بكلمة؛ وبعد قليلٍ ذهبت لاستئناف مهامي في المكتب. لكنني لم أكن قد أمضيتُ وقتًا طويلًا في ذلك عندما فُتِح الباب، وأدخل تشيسهولم وجهه ونظر نحوي.

وقال: «أريد التحدُّث معك، يا سيد مونيلوز.» ثم أضاف: «لقد قلتَ إنك كنت مع كرون، تشتري منه شيئًا، في تلك الليلة قبل العثور على جثته. وقد دفعتَ له نقودًا، وربما أعاد لك الباقي. إذن، هل تصادف أن رأيتَ محفظته؟»

أجبت: «أجل!» وأضفت: «لماذا تسأل عن ذلك؟»

قال: «لأننا قبضنا على رجلٍ في إحدى الحانات الواقعة على ضفاف النهر وكان مخمورًا للغاية، وبالطبع كان يُنفق المال ببذخ. ومعه محفظة ذات مظهرٍ غريب، وقد أكَّد رجل أو رَجُلان أنها تخصُّ أبيل كرون.»

الفصل السادس عشر

الرجل الذي في الزنزانة

قبل أن أتمكَّن من الرد على استفسار تشيسهولم، أخرج السيد ليندسي رأسه من باب غرفته ورأى رقيب الشرطة هناك فسأله عما يريد. وعندما كرَّر تشيسهولم سؤاله، نظر كلاهما نحوي.

فأجبت: «لقد رأيتُ محفظة كرون بالفعل في تلك الليلة، وهي قديمة ومربوطة برباط حذاء. وكان بها الكثير من المال، أيضًا.»

سأل تشيسهولم: «تعالَ معي، إذن، وانظُر ما إذا كان بإمكانك تحديد أنها هي نفسها التي وجدناها مع الرجل.» وأضاف، مُلتفتًا إلى السيد ليندسي، «وثمة شيء آخر. لقد استفاق الرجل من حالة السُّكر، بعد أن قبضنا عليه؛ جعله ذلك يستجمع نفسه قليلًا. وهو يُطالب بمحامٍ. ربما ستأتي من أجله، يا سيد ليندسي.»

سأل السيد ليندسي: «مَن هو؟» وتابع: «أهو رجل من بيرويك؟»

أجاب تشيسهولم: «إنه ليس كذلك.» وتابع: «إنه غريب؛ رجل يقول إنه كان يبحث عن عمل، ويُقيم في مسكنٍ مشترك في البلدة. وهو يقسِم أنه لا علاقةَ له بقتل كرون، ويصيح مُطالبًا بمحامٍ.»

وضع السيد ليندسي قبَّعته، وانطلقنا مع تشيسهولم إلى قسم الشرطة. وعندما أصبح على مرمى بصرنا، أدركنا أن ثمة تجمهرًا في الشارع أمام بابه. كان خبر الاعتقال قد انتشر بسرعة، وهُرع الناس للحصول على مزيدٍ من التفاصيل. ومن بين النساء والأطفال والمُتسكعين الذين كانوا يتزاحمون كانت مُدبِّرة منزل كرون، وهي امرأة أيرلندية ضخمة، وبدينة، وخشنة الشعر تُدعى نانسي ماجواير، وكانت تلوِّح بذراعيها الكبيرتَين وتهزُّ قبضتيها في وجه اثنين من رجال الشرطة، اللذين كانت تناشدهما إخراج القاتل، حتى تقتصَّ منه في التو واللحظة، وكل هذا كان مختلطًا بتعدُّد محاسن الضحية.

كانت تصرخ بأعلى صوتها: «لقد كان أفضل رجلٍ على الإطلاق!» وتابعت: «أفضل وأطيب مخلوقٍ على الإطلاق وطئت قدمه أرض بلدتكم القاتلة! ألم أكن أعلم أنا أنه سيُقتَل على يدِ بعضكم؟ ألم يُخبرني بنفسه أن رجلًا كان على استعدادٍ للتضحية بعينَيه من أجل رؤية جثته؟ وإذا كنتم قد قبضتم على الجاني، فأخرجوه هنا إليَّ، وسوف ...»

وضع السيد ليندسي يده بهدوء على ذراع المرأة ولفَّ جسدها في اتجاه كوخها.

وهمس قائلًا لها: «هدئي من روعكِ، أيتها المرأة الصالحة، وعودي إلى البيت!» ثم أضاف: «وإن كنتِ تعرفين أيَّ شيء، فأمسكي عليكِ لسانكِ حتى آتي لزيارتكِ. غادري الآن، ودَعي الأمر لي.»

لا أعرف كيف حدث ذلك، لكن نانسي ماجواير، بعد نظرةٍ فاحصة للسيد ليندسي، استدارت مُبتعدةً بخنوع مثل حمَلٍ وديع، وغادرت، باكيةً، لكن في هدوء، تمشي في الشارع، وتبِعها نصف الحشد، بينما توجَّه السيد ليندسي، وتشيسهولم، وأنا إلى مركز الشرطة. وهناك التقينا بالسيد موراي، الذي هز رأسه نحونا كما لو كان راضيًا جدًّا عن شيءٍ ما.

وقال، وهو يصحبنا إلى مكتبه: «لا يُوجَد الكثير من الشك حول هذه القضية الأخيرة، على أي حال.» ثم أضاف: «يمكنك القول إن الرجل قد قُبِضَ عليه مُتلبسًا! ومع ذلك، يا سيد ليندسي، من حقه أن يطلُب مُحاميًا، ويمكنك مقابلته وقتما تشاء.»

سأل السيد ليندسي: «ما حقائق القضية؟» وتابع: «اسمحوا لي أن أعرف ذلك أولًا.»

أشار السيد موراي بإبهامه نحو تشيسهولم.

وأجاب: «إن الرقيب هناك يعرفها.» وتابع: «فهو مَن ألقى القبض على الرجل.»

قال تشيسهولم، الذي أصبح بارعًا في عرض البيانات أمام الناس: «لقد حدث الأمر بهذه الطريقة، كما ترى، يا سيد ليندسي.» وتابع: «أنت تعرف تلك الحانة الصغيرة بجانب النهر هناك، خارج السور؛ اسمها كود آند لوبستر، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد جاءني، جيمس ماكفارلين، صاحب الحانة، ربما منذ ساعة أو نحو ذلك، وقال إن رجلًا، غريبًا عن المدينة، كان يدخل الحانة ويخرج طوال اليوم منذ الصباح، ويشرب الخمر؛ وعلى الرغم من أنه لم يقُل إن الرجل قد صار ما يمكن أن تصفه بحقٍّ بأنه قد شرب حتى الثُّمالة، إلا أنه كان مخمورًا، ودخل إلى هناك مرة أخرى، فرفضوا تقديم الخمر له، فأصبح عدوانيًّا وبذيئًا، وأثناء ذلك أخرج محفظةً أكَّد رجل آخر كان هناك، لماكفارلين، بعد أن انتحى به جانبًا، أنها تخصُّ أبيل كرون. لذا أخذتُ معي اثنين من رجال الشرطة

وعُدت مع ماكفارلين، فوجدنا الرجل ما زال يُطالِب بالحصول على الخمر، ومعه حفنة من المال لإثبات أنه يستطيع دفع ثَمن ما يطلبه. وعندما بدأ يتحوَّل إلى العنف، ويُظهِر الرغبةَ في التشاجُر، ببساطةٍ وضعنا القيود في يديه وأتينا به إلى القسم، وها هو ذا في الزنزانة، وبالطبع، جعله هذا يستفيق، وهو يُطالِب بحقوقه في مقابلة محامٍ.»

سأل السيد ليندسي: «مَن هو؟»

أجاب تشيسهولم: «غريب عن المدينة.» ثم أضاف: «ورفض أن يذكر اسمه أو عنوانه إلا لمحامٍ، حسبما يقول. لكننا نعلم أنه كان يُقيم في أحد المساكن المشتركة — مسكن واتسون — منذ ثلاث ليالٍ، وأنه لم يذهب إلى هناك على الإطلاق في آخر ليلتين.»

سأل السيد ليندسي بجدية: «حسنًا، أين تلك المحفظة؟» وتابع: «إن السيد مونيلوز هنا يقول إنه يمكنه التعرُّف عليها، إن كانت تخصُّ كرون.»

فتح تشيسهولم دُرجًا وأخرج المحفظة التي عُرف في الحال أنها محفظة أبيل كرون؛ والتي كانت في الواقع نوعًا من دفتر الجيب القديم أو محفظة صغيرة، من نوعٍ ما من الجلد، ما زال عليه قدرٌ كبير من الشَّعر الأصلي، ومربوطة بجزءٍ من رباط حذاء قديم. كانت تحتوي على عملات ذهبية وفضية، تمامًا كما رأيتها عندما أخرجها كرون ليعطيني باقي قطعة من خمسة شلنات كنت قد أعطيتها له؛ ولمزيد من التأكيد، كانت قطعة الخمسة شلنات نفسها لا تزال داخلها!

فصحتُ: «تلك محفظة كرون!» وتابعت: «ليس لديَّ شك في ذلك. وهذه قطعة خمسة شلنات أعطيتُها له بنفسي؛ ولا شك لديَّ في ذلك أيضًا!»

قال السيد ليندسي: «دعونا نرَ الرجل.»

قادنا تشيسهولم عبر ممرٍّ إلى الزنازين، وفتح باب إحداها. وخطا داخل الزنزانة، مُشيرًا إلينا أن نتبعَه. وهناك، على المقعد الوحيد في المكان، جلس رجل ضخم، عملاق يُشبه عمال الحفر، وكانت ملابسه الخشنة تدل على نومه فيها بالخارج، وحذاؤه مُلطَّخ بالوحل والطين الذي تجمَّع على الأرجح خلال سيره على ضفة النهر. كان يجلس واضعًا رأسه بين يدَيه، وهو يزمجر في نفسه، ورفع ناظريه إلينا بنظرةٍ تُشبه النظرات التي رأيت الوحوش البرية تنظر بها عبر قضبان الأقفاص. وعلى نحوٍ ما، كان في عينَي الرجل ما جعلني أظن، في التو واللحظة، أنه لم يكن يُفكِّر في أي جريمة قتل ارتكبها، لكنه كان غاضبًا بحنق وغباء من نفسه.

قال تشيسهولم: «والآن، ها هو ذا مُحامٍ من أجلك.» وتابع: «السيد ليندسي، المحامي.»

بدأ السيد ليندسي الحديث، وهو يُلقي نظرة فاحصة على هذا العميل الغريب وقال: «حسنًا، يا رجل!» وتابع: «ماذا لديك لتُخبرني به؟»

ألقى السجين على تشيسهولم نظرةً ناقمة.

وزمجر قائلًا: «لن أقول كلمة أمام أمثاله!» وتابع: «أنا أعرف حقوقي، أيها الرئيس! ما سأقوله، سأقوله لك على انفراد.»

قال السيد ليندسي: «من الأفضل أن تتركنا، أيها الرقيب.» وانتظَر حتى غادر تشيسهولم الزنزانة، بقليلٍ من المُمانعة، وأغلق الباب، ثم التفت إلى الرجل. وتابع: «والآن، أتعرف ما يتهمونك به؟ لقد كنتَ شبهَ ثملٍ؛ هل أنت واعٍ بما يكفي لتتحدَّث حديثًا منطقيًّا؟ حسنًا، إذن؛ ما الأمر الذي تُريدني من أجله؟»

قال السجين مزمجرًا: «أن تُدافع عني، بالطبع!» ثم لفَّ يده إلى مؤخرة سرواله كما لو كان يبحث عن شيءٍ ما. وقال: «لدي نقود خاصة بي؛ وضعت القليل من المال في حزام؛ سوف أدفع لك.»

أجاب السيد ليندسي: «لا تهتمَّ بذلك الآن.» وتابع: «مَن أنت؟ وماذا تريد أن تقول؟»

أجاب الرجل: «اسمي جون كارتر.» وتابع: «عاملٌ عام، بأعمال الحفر، وأي شيء من هذا القبيل. وأنا أتنقل، بحثًا عن عمل. جئت إلى هنا، متجهًا شمالًا، في الليلة قبل الماضية. ولا علاقةَ لي بجريمة قتل ذلك الرجل مُطلقًا!»

قال السيد ليندسي بحدة: «لقد وجدوا محفظته معك، على أي حال.» وتابع: «ماذا الذي يمكنك أن تقوله عن ذلك؟»

أجاب كارتر بعُنف: «أقول إنني أحمق ملعون!» وتابع: «أعرف أن كل الشواهد ضدي، لكني سأُخبرك؛ يمكن للمرء إخبار المُحامين بأي شيء. مَن هذا الشاب؟» سأل فجأة، بحدَّة في وجهي. وقال: «لن أتحدَّث أمام أيِّ مُحقِّقين.»

أجاب السيد ليندسي: «إنه مُتدرِّب في مكتبي.» وتابع: «والآن، إذن؛ أخبرني بحكايتك. فقط تذكَّر الموقف الخطير الذي أنت فيه.»

تمتم السجين: «أعرف ذلك مثلك تمامًا.» ثم أضاف: «لكنني واعٍ بما فيه الكفاية، الآن! الأمر وما فيه أنني جئتُ إلى هذه البلدة منذ ثلاث ليالٍ، وبحثتُ هنا وهناك عن عملٍ في اليوم التالي، ثم سمعتُ عن عملٍ مُحتمَل في منطقة أعلى النهر فذهبتُ سعيًا للحصول عليه ولم أوفَّق؛ لذلك سلكت طريق العودة مرةً أخرى إلى هنا؛ وكان ذلك في وقتٍ مُتأخر

من الليل. وبعد عبور ذلك الجسر في مكانٍ يسمَّى تويزل، نزلت إلى ضفة النهر، كي أسلك طريقًا مختصرًا. وكان ذلك بعد حلول الظلام بوقتٍ طويل، ثم تذكَّر، أيها الرئيس، أثناء سيري عبر الغابة، مباشرةً قبل موضع التقاء النهر الصغير بالنهر الكبير، صادفتُ جثةَ هذا الرجل؛ تعثرت فيها. تلك هي الحقيقة!»

قال السيد ليندسي: «حسنًا!»

تابع كارتر: «كانت الجثة مطروحةً هناك — يُمكنني أن أريك المكان بسهولة — بين حافة الغابة وضفة النهر.» وأضاف: «وعلى الرغم من أنه كان ميتًا بالفعل عندما وجدته، أيها الرئيس، إلا أنه لم يكن قد مات منذ فترة طويلة. لكنه كان ميتًا بالفعل؛ ولستُ أنا من قتله.»

سأل السيد ليندسي: «في أي ساعة هذا؟»

أجاب كارتر: «كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة.» وتابع: «كانت العاشرة عندما مررتُ بمحطة كورنهيل. سلكت ذلك الطريق — عبر الغابة إلى ضفة النهر — لأنني كنتُ قد لاحظتُ كوخًا هناك في الصباح يُمكنني النوم فيه؛ وكنتُ ذاهبًا إلى هناك عندما وجدتُ الجثة.»

سأل السيد ليندسي باقتضاب: «حسنًا؛ ماذا عن المحفظة؟» وتابع: «لا أكاذيب، الآن!»

هزَّ السجين رأسه ردًّا على ذلك، وزمجر؛ ولكن كان واضحًا أنه يزمجر غضبًا من نفسه.

وقال: «أصبتَ القول.» وتابع: «لقد فتشتُ في جيوبه، وبالفعل أخذتُ محفظته. لكن ... لم أُلقِه في الماء. هذه هي الحقيقة، أيها الرئيس. لم أفعل أكثرَ من أخذِ المحفظة! تركته هناك، تمامًا كما كان، وفي اليوم التالي شربتُ الخمر، وفي الليلة الماضية ذهبتُ إلى ذلك الكوخ مرة أخرى، واليوم أخذت أشرب الخمر، وأفرطتُ في الشرب، ولعِبَت الخمر برأسي بعض الشيء وأخرجت المحفظة، وتلك هي الحقيقة، على أي حال، سواء كنتَ تُصدِّقها أم لا. لكنني لم أقتل ذلك الرجل، على الرغم من أنني سأعترف أنني سرقتُ من جثته؛ ويا لي من أحمق!»

قال السيد ليندسي: «حسنًا، انظر أين وصل بك الحال.» وأضاف: «حسنًا — أمسِك عليك لسانك الآن، وسأرى ما يُمكنني فعله. سأحضُر معك الجلسة عندما تَمثُل أمام القاضي غدًا.»

نقر على باب الزنزانة، فقادنا تشيسهولم، الذي كان من الواضح أنه ينتظر في الممر، للخارج. ولم يقُل السيد ليندسي شيئًا له ولا لرئيس الشرطة — وقادني بعيدًا إلى الشارع. وهناك ربَّت على ذراعي.

وتمتم: «أنا أُصدِّق كلَّ كلمةٍ قالها ذلك الرجل!» ثم أضاف: «تعالَ، الآن؛ سنزور نانسي ماجواير هذه.»

الفصل السابع عشر

مُدبِّرة المنزل الأيرلندية

فوجئتُ كثيرًا من أن السيد ليندسي كان، على ما يبدو، مُتلهفًا جدًّا إلى مقابلة مدبِّرة منزل كرون، وقلتُ له ذلك. فاستدار نحوي بحدة، بنظرةٍ واعية.

وصاح: «ألم تسمع ما كانت تقوله المرأة عندما صادفناها هناك خارج قسم الشرطة؟» وتابع: «كانت تقول إن كرون قال لها إن رجلًا كان مُستعدًّا للتضحية بعينَيه كي يرى جثته! لقد أخبرها كرون بشيءٍ ما. وأنا مُقتنع للغاية بأن ذلك الرجل في الزنزانة قد أخبرنا بالحقيقة، فيما يَخصُّه، لدرجةِ أنني سأحاول اكتشافَ ما قاله لها كرون. مَن هو؛ مَن ذا الذي كان يريد أن يرى جثة كرون؟ دعنا نحاول اكتشاف ذلك.»

لم أُجِب، لكنني بدأتُ أفكر، وأتساءل أيضًا بطريقةٍ غامضة، وغير مُبهجة على الإطلاق. هل كان هذا ... هل كان موت كرون، مقتل كرون، أيًّا كان، مُرتبطًا على أي نحوٍ بقضية فيليبس التي سبقته؟ هل أخبرني كرون بالحقيقة في تلك الليلة التي ذهبتُ فيها لشراء أغراض أقفاص الأرانب لتوم دنلوب؟ أم أنه أخفى شيئًا ما؟ وبينما كنتُ أُفكِّر في هذه النقاط، بدأ السيد ليندسي في الحديث مرةً أخرى.

قال: «لقد راقبتُ ذلك الرجل عن كثبٍ عندما كان يُخبرني بروايته عما حدث، وكما قلتُ للتو، أعتقد أنه أخبرنا بالحقيقة. أيًّا كان مَن قتل كرون، فهو ليس في تلك الزنزانة يا هيو، يا ولدي؛ وما لم أكن مُخطئًا كثيرًا، فإن كل هذا له صِلة بمقتل فيليبس. لكن دعْنا نسمع ما ستقوله هذه المرأة الأيرلندية.»

كان كوخ كرون عبارة عن خُصٍّ وضيع بائس يقع في زقاقٍ ضيق في جزءٍ فقير من البلدة. وعندما وصلنا إلى بابه كانت تُوجَد مجموعة من النساء والأطفال حوله، كلهم مُتلهِّفون ومُفعمون بالإثارة. لكن الباب نفسه كان مُغلقًا، ولم يُفْتَح لنا حتى ظهر وجهُ

نانسي ماجواير عبر نافذة صغيرة، وتأكدت نانسي من هوية زوَّارها. وعندما سمحت لنا بالدخول، أغلقت الباب مرةً أخرى بالمزلاج.

وقالت: «أنا لم أنطق بكلمة، سيادتك، منذ أن قلتَ لي سيادتك ألا أفعل، على الرغم من أنهم في الخارج مُصمِّمون على أن أخبرهم بهذا وذاك. وما كنتُ سأقول ما قلته هناك، لو كنتُ أعرف أن سيادتك ستدعمني. كنتُ أشعر أن لا أحد سيرى العدالة تتحقَّق من أجله، هذا الرجل المسكين، الطيب!»

علَّق السيد ليندسي قائلًا: «إذا كنتِ تُريدين العدالة، أيتها المرأة الطيبة، فالزمي الصمت، ولا تتحدَّثي إلى جيرانك، ولا إلى الشرطة؛ فقط اكتُمي أي شيءٍ تعرفينه حتى أُخبركِ أن تبوحي به. الآن، إذن، ما هذا الذي كنتِ تقولينه؟ أن كرون أخبرك عن رجلٍ في المكان كان سيُضحي بعينيه ليرى جثته؟»

أجابت المرأة: «هذه الكلمات بالضبط، سيادتك؛ وليس مرةً أو مرتَين، بل قالها مرات عديدة.» وأضافت: «لقد كانت نوعًا من التلميح يُخبرني به، سيادتك؛ كانت لديه تلك الطريقة في التحدُّث.»

سأل السيد ليندسي: «منذ متى أخبرك بتلك التلميحات؟» وتابع: «هل كان ذلك مؤخرًا فقط؟»

قالت نانسي ماجواير: «كان ذلك منذ وقوع تلك الجريمة الدموية الأخرى، سيادتك.» وتابعت: «منذ ذلك الحين فقط. كان يتحدَّث عن ذلك بينما نجلس بجوار المدفأة هناك ليلًا. كان يقول: «إن شبح جريمة قتل يحوم في الأجواء.» وقال: «القتل الدموي في كل مكانٍ حولنا!» وقال: «وعليَّ أنا نفسي أن أختار خطواتي بحذَر؛ لأنه يُوجَد رجل على استعدادٍ لأن يضحي بعينَيه ليراني جثةً مُتيبسة ومُحدقة.» وقال: «أنا أعرف أكثر ممَّا يمكن أن تمتدحيني لأجله.» ولم أستطِع أن أستخلِص منه عن الأمر كلمةً واحدة أخرى.»

سأل السيد ليندسي: «ألم يُخبرك قطُّ مَن هو الرجل الذي كانت لديه مخاوف منه؟»

أجابت نانسي: «لم يفعل آنذاك، سيادتك.» ثم أضافت: «كان رجلًا كتومًا، ولم يكن يمكن معرفة شيءٍ منه أكثر مما كان يريد أن يقول.»

قال السيد ليندسي: «إذن، فقط أخبريني بالحقيقة عن شيءٍ أو شيئين.» وتابع: «كان كرون يخرج في الليل بين الحين والآخر، أليس كذلك؟»

فأجابت على الفور: «بالفعل آنذاك، كان يفعل ذلك، سيادتك.» وتابعت: «هذا صحيح، كان يخرج في الليل، بين الحين والآخر.»

قال السيد ليندسي: «ليُمارس الصيد غير القانوني، في حقيقة الأمر.»

قالت: «وتلك هي الحقيقة، سيادتك.» وتابعت: «لقد كان ماهرًا في صيد الأرانب.»

سأل السيد ليندسي: «أجل؛ لكن ألم يُحضِر إلى المنزل سمك السلمون أبدًا؟» ثم أضاف: «هيا، أفصحي عما لديكِ.»

اعترفت المرأة قائلة: «لن أُنكر ذلك أيضًا، سيادتك.» وأضافت: «لقد كان ماهرًا في ذلك أيضًا.»

تابع السيد ليندسي: «حسنًا، بشأن تلك الليلة التي مِن المُفترض أنه قُتِل فيها؛ يوم الثلاثاء الماضي؛ ونحن في يوم الخميس. هل عاد إلى البيت في ذلك المساء من متجره؟»

كنتُ أستمع في صمتٍ طوال هذا الوقت، واستمعتُ باهتمام مُضاعَف لإجابة المرأة على السؤال الأخير. فقد كان مساء الثلاثاء، حوالي الساعة التاسعة، هو التوقيت الذي أجريتُ حديثي فيه مع كرون، وكنتُ مُتلهفًا إلى معرفةِ ما حدث بعد ذلك. وردَّت نانسي ماجواير بسرعةٍ كبيرة؛ كان من الواضح أن ذاكرتها كانت صافيةً حول هذه الأحداث.

قالت: «لم يفعل آنذاك.» وتابعت: «لقد كان هنا يتناول الشاي في الساعة السادسة مساء ذلك اليوم، وخرج إلى المتجر بعد أن تناوله، ولم تقع عليه عيناي مرةً أخرى قَطُّ حيًّا، سيادتك. لم يَعُد إلى المنزل مُطلقًا في تلك الليلة، ولم يحضُر ليتناول فطوره في صباح اليوم التالي، ولم يكن في المتجر؛ ولم أسمع أيَّ أخبارٍ عنه حتى جاءوا وأخبروني بالأخبار السيئة.»

عرفت عندئذٍ ما لا بد أنه قد حدث. بعد أن تركته، مضى كرون مع النهر باتجاه تيلموث؛ كانت لديه درَّاجة قديمة للغاية ركبها إلى هناك. ومعظم الناس، بعد سماعهم اعترافات نانسي ماجواير، كانوا سيقولون إنه ذهب للصيد غير القانوني. لكنني لم أكن متأكدًا كثيرًا من ذلك. كنتُ قد بدأت أشكُّ في أن كرون لعب معي لعبةً ما، ولم يُخبرني بالحقيقة أثناء مُحادثتنا. لقد كان يعرف أكثرَ مما أفصح عنه؛ ولكن ماذا؟ ولم أستطِع أن أمنع نفسي من الشعور بأن هدفه في الانطلاق في ذلك الاتجاه، مباشرةً بعد أن تركته، ربما كان، ليس الصيد غير القانوني، ولكن شخصًا كان يرغب في إبلاغه بنتيجة حديثه معي. وفي تلك الحالة، من كان ذلك الشخص؟

لكن في هذه اللحظة كان عليَّ أن أترُك أفكاري وتكهُّناتي وشأنها، وأتابع ما كان يجري بين مديري ونانسي ماجواير. ومع ذلك بدا أن السيد ليندسي كان راضيًا عما سمعه. وقدَّم للمرأة بعض النصائح الإضافية حول عدم التحدُّث عن الأمر، وأخبرها بما يجب أن

تفعله بخصوص مُتعلقات كرون، وغادر الكوخ. وعندما خرجنا إلى الشارع الرئيسي مرةً أخرى في طريق عودتنا إلى المكتب، التفت نحوي بنظرة حسم.

وقال: «لقد توصلتُ إلى نظريةٍ مؤكَّدة حول هذه القضية، يا هيو.» ثم أضاف: «وسأُراهن بخمسة جنيهات مقابل ربع بنس على أنها النظرية الصحيحة!»

قلت، وقد تحمَّست لسماع ذلك: «ما هي، يا سيد ليندسي؟»

فقال: «لقد عرف كرون هوية قاتل فيليبس.» وتابع: «والرجل الذي قتل فيليبس هو مَن قتل كرون أيضًا؛ لأن كرون كان يعلم! ذلك ما حدث، يا ولدي! والآن، إذن، مَن هو ذلك الرجل؟»

لم يكن بإمكاني إجابة مثل هذا السؤال، وتابع هو بعد برهة، وأظن أنه كان يتحدَّث إلى نفسه، بقدرِ ما كان يتحدث إليَّ.

تمتم قائلًا: «أتمنى لو كنتُ أعرف أشياء مُعينة!» وتابع: «أتمنى لو كنتُ أعرف سبب قدوم فيليبس وجيلفرثويت إلى هنا. أتمنَّى لو كنتُ أعرف ما إذا كان لجيلفرثويت أيُّ تعامُلات سرية مع كرون. أتمنَّى — أتمنَّى بالفعل! — لو كنتُ أعرف ما إذا كان يُوجَد — إذا كان يُوجد بالفعل — رجل ثالث في قضية فيليبس-جيلفرثويت هذه، تمكَّن، وما زال مُتمكنًا، من أن يبقى في الخلفية. ولكن، وسأخاطر بسُمعتي المهنية على شيءٍ واحد، أيًّا كان مَن قتل فيليبس، فهو مَن قتل أبيل كرون! إنه نفس الشخص.»

الآن، بالطبع أعرف الآن، وقد عرفت لسنوات عديدة، أنني عند هذه النقطة المفصلية تحديدًا قد ارتكبتُ خطأً فادحًا، خطأً يستحقُّ الشجب فيما يتعلق بموقفي من كل هذه القضية. عند تلك اللحظة، تحديدًا، كان يتعيَّن عليَّ أن أعترف للسيد ليندسي بكلِّ ما كنتُ أعرفه. كان يجب أن أخبره، في التو واللحظة، بما رأيته عند مُفترق الطرق ليلة مقتل فيليبس، وبمحادثتي حول ذلك مع أبيل كرون في متجره، وبزيارتي للسير جيلبرت كارستيرز في هاثركلو هاوس. لو أنني فعلت ذلك، لأصبحت الأمور أبسط، وكنا سنتجنَّب المزيد من الرُّعب والمتاعب؛ لأن السيد ليندسي كان في تلك اللحظة في بداية مسارٍ مباشر وقد أبعده صمتي عنه، ليتَّجِه إلى مساراتٍ أكثرَ اعوجاجًا وضبابية. لكن ... لم أقُل شيئًا. ولماذا؟ الجواب بسيط، وينطوي على مُبرِّر الطبيعة البشرية؛ كنتُ مفعمًا للغاية بالآفاق العظيمة المُتوقَّعة من وظيفتي كمدير أعمال، وكلُّ ما ستجلبه لي، وكنت سعيدًا جدًّا بالسير جيلبرت كارستيرز وارتقائه بحظوظي، حتى إنني، وهذه هي الحقيقة المجردة، لم أستطِع أن أحمل نفسي على أن أُفكِّر، أو أشغل نفسي، بأي شيءٍ آخر. حتى ذلك الحين، بالطبع،

لم أكن قد قلتُ كلمةً واحدة لأُمي أو لمايسي دنلوب عن وظيفة مدير الأعمال؛ وكنتُ متلهفًا لإخبارهما. لذلك التزمتُ الصمت ولم أقُل شيئًا للسيد ليندسي، وبعد فترةٍ انتهى العمل المكتبي لهذا اليوم ولي حرية أن أُهرع إلى البيت بأخباري العظيمة. هل من المُحتمَل أنه مع مثل هذه الأخبار كنتُ سأُزعج نفسي بعدئذٍ بشأن حياة وموت أناسٍ آخرين؟

كانت تلك، حسبما أظن، أهمَّ أُمسيةٍ قضيتها في حياتي. بادئ ذي بدء، شعرتُ كما لو أنني أصبحت فجأةً أكبر سنًّا، وأعظم مكانة، وأكثر أهميةً بكثير. أصبحت أميل إلى تَبنِّي مظهرٍ وقورٍ مع والدتي وحبيبتي، واضعًا لهما القواعد بخصوص المستقبل بطريقةٍ جعلت مايسي تسخر منِّي بسبب نبرة التفاخر التي كنت أتكلَّم بها. كان طبيعيًّا جدًّا أن أُصاب قليلًا بالتفاخر في تلك الليلة؛ وإلا فلستُ إنسانًا إن لم أفعل. لكن أندرو دنلوب خلَّصني من العجرفة عندما أخبرته أنا ومايسي بالأخبار، وشرحت له كلَّ شيءٍ في صالونه الخلفي. كان أحيانًا رجلًا مسهبًا في الكلام، وأحيانًا أخرى قليل الكلام للغاية، وعندما يتكلم قليلًا، كان يعني الكثير.

قال: «أجل!» وتابع: «حسنًا، هذا أفقٌ رائع يا هيو، يا ولدي، وأتمنَّى لك التوفيق فيه. ولكن لن يجري أيُّ حديث عن أي زواجٍ لمدة عامَين؛ لذا أخرِجا هذه الفكرة من رأسيكما، كلاكما! بعد عامَين، ستكون قد استقررتَ في وظيفتك الجديدة، وستكتشِف كيف تتناسَب مع سيدك وكيف يتناسَب معك؛ سننتهي من المراحل التمهيدية، ونرى ما تُبشِّر به الأمور في ذلك الوقت. وسنرى، أيضًا، مقدار المال الذي وفَّرتَه من راتبك يا رجل؛ لذلك لن تسمع أجراس الزفاف ترن لمدة عامَين، وستتصرفان مثل الأطفال الطيبين في غضون ذلك. أمور عديدة قد تحدُث في غضون عامَين، على ما أظن.»

ربما كان ينبغي أن يُضيف أن أمورًا عديدة قد تحدُث في غضون أسبوعين؛ وفي الواقع، كان سيصبح لديه سببٌ وجيه إن أضافها، لو كان بوسعه أن يستشرف ما كان سيحدُث بعد أيام قليلة.

الفصل الثامن عشر

فأس الثلج

وضعت الشرطة كارتر في قفص الاتهام أمام مجموعةٍ كاملة من القضاة في صباح اليوم التالي، وكانت المحكمة مزدحمةً للغاية لدرجةِ أنني والسيد ليندسي اضطُررنا إلى أن نشقَّ طريقنا بالقوة من أجل الوصول إلى منضدة المُحامين. وعُرِضَت عدة قضايا ثانوية قبل إحضار كارتر من الزنزانة، وخلال جلسة الاستماع هذه كان لديَّ براح من الوقت للنظر في أرجاء المحكمة ومعرفة مَن كان هناك. وعلى الفور تقريبًا رأيتُ السير جيلبرت كارستيرز الذي، على الرغم من أنه لم يكن قد نُصِّب قاضيَ صُلحٍ بعدُ — حيث وصل تفويضه إلى ذلك المنصب المُوقَّر بعد بضعة أيام، وهو ما كان غريبًا للغاية — كان قد مُنِح مقعدًا على المنصَّة، بصُحبة واحدٍ أو اثنين من الشخصيات المرموقة المحلية الأخرى، أحدهم، كما لاحظتُ بشيءٍ من الفضول، كان القس السيد ريدلي الذي كان أعطى شهادته في التحقيق الذي أُجري حول مقتل فيليبس. كان من السهل ملاحظة أن كل هؤلاء الأشخاص في حالة فضولٍ شديد بشأن مقتل كرون؛ ومن بعض الهمسات التي سمعتُها، فهمت أن السبب الرئيسي لهذا الاهتمام يكمُن في رأيٍ مُتفق عليه مفاده، كما كان السيد ليندسي قد صرَّح لي أكثر من مرة، بأن هذه الجريمة مُشابهة لجريمة الأسبوع السابق. وكان من السهل جدًّا ملاحظة أنهم لم يكونوا مُهتمِّين برؤية كارتر بقدرِ اهتمامهم بسماعِ ما يمكن أن يُتَّهم به.

بدا أن ثمة دهشة عامة عندما أعلن السيد ليندسي بهدوءٍ أنه موجود للدفاع عن السجين. كنتَ ستظنُّ من سلوك الشرطة أنه، في رأيهم، لم يكن يُوجَد ما يفعله القضاة الجالسون على المنصة سوى سماع القليل من الأدلة وإحالة كارتر على الفور إلى محكمة الجنايات لُمحاكمته بتهمة القتل العمد. كانت الأدلة التي قدَّموها، بالطبع، واضحةً ومباشرة للغاية. فقد عُثِر على كرون طريحًا في بركةٍ عميقة في نهر تيل؛ لكن الشهادة الطبية

أظهرت أنه لقِيَ حتفه بضربةٍ من أداة حادة، اخترق سنُّها الجمجمة والجزء الأمامي من المخ بطريقةٍ تُسبِّب الموت الفوري. وكان قد قُبِض على الرجل الموجود في قفص الاتهام وبحوزته محفظة كرون؛ ومن ثم، بحسب الشرطة، يكون هو مَن قتل كرون وسرقه. كما قلت، كان السيد موراي وجميع رجاله، كما ترَون، مُتفِقين تمامًا مع الرأي القائل بأن هذا كان كافيًا؛ وأنا على يقين من أن القضاة كانوا يفكِّرون بنفس الطريقة. ولم تكن الشرطة سعيدةً للغاية، وكان بقية الحضور في المحكمة، على أقل تقدير، مُتحيِّرين بعض الشيء، عندما طرح السيد ليندسي بضعة أسئلة على شاهدَين، كان تشيسهولم أحدُهما، وكان الطبيب الذي فحص جثة كرون هو الآخر. وقبل ذِكر تلك الأسئلة التي طرحها السيد ليندسي، سأوضح هنا أنه كان يُوجَد شيء معيَّن، نوع من التلميح الغامض في طريقته خلال طرحها عليهما، والذي أوحى بأكثر بكثيرٍ من الأسئلة المجرَّدة نفسها، وجعل الناس يبدءون في التهامُس فيما بينهم بأن المحامي ليندسي يعرف أشياء لم يُقرِّر الإفصاح عنها بعد.

وقد طرح أسئلته الأولى على تشيسهولم، بطريقةٍ عادية، كما لو كانت أسئلةً عادية جدًّا، ولكن في إطارٍ من الدلالة وراءها، أثار الفضول.

حيث سأله: «أجريتَ تفتيشًا شاملًا للغاية للمنطقة التي عُثِر فيها على جثة كرون، أليس كذلك؟»

أجاب تشيسهولم: «بحث كامل.»

«هل وجدت بالضبط البُقعة التي قُتِل فيها الرجل؟»

«استنادًا إلى آثار الدماء، أجل.»

«على ضفة النهر، بين النهر وبعض الأشجار، أليس كذلك؟»

«بالضبط، بين الضفة وبعض الأشجار.»

«كم المسافة التي سُحِبَت عبرها الجثة قبل أن تُلقى في النهر؟»

أجاب تشيسهولم على الفور: «عشر ياردات.»

سأل السيد ليندسي: «هل لاحظتَ أي آثار أقدام؟»

أوضح تشيسهولم: «كان من الصعب اقتفاء أيٍّ منها.» وتابع: «فالعشب كثيف جدًّا في بعض الأماكن، وحيث لا يكون كثيفًا، فهو مُتقارب ولِّين من حيث الملمس بحيث لا يمكن أن يترك الحذاء عليه أيَّ أثر.»

قال السيد ليندسي، وهو يميل إلى الأمام وينظر إلى تشيسهولم في وجهه: «سؤال آخر.» وتابع: «عندما وجهتَ الاتهام إلى الرجل الموجود في القفص بقتل أبيل كرون، هل

أظهر في الحال — على الفور! — أكبر قدرٍ من المُفاجأة؟ هيا، أنت تحت القسَم، نعم أم لا؟»

قال تشيسهولم: «نعم! لقد فعل.»

«لكنه اعترف بنفس السرعة أن محفظة كرون بحوزته؟ مرةً أخرى، نعم أم لا؟»

قال تشيسهولم: «نعم.» وأضاف: «نعم ... هذا صحيح.»

كان ذلك كلَّ ما سأله السيد ليندسي لتشيسهولم. ولم يسأل الطبيب أكثرَ من ذلك بكثير. ولكن كان يُوجَد المزيد من الإثارة بشأنِ ما سأله عنه، نابعة من شيءٍ فعله أثناء السؤال.

حيث قال: «يُوجَد حديث، أيها الطبيب، حول تحديد نوع السلاح الذي تسبَّب في إصابة هذا الرجل كرون بجرح قاتل.» وتابع: «اقترِح أن الجرح الذي تسبَّب في وفاته ربما كان، ومن المُرجَّح أنه كان، ناتجًا عن ضربة من رُمح سلمون. ما رأيك؟»

قال الطبيب بحذَر: «ربما كان كذلك.»

قال السيد ليندسي: «لقد كان ناتجًا بالتأكيد عن سلاح مُدبَّب؛ نوع من الأسلحة المُسنَّنة، أليس كذلك؟»

أكَّد الطبيب: «سلاح حاد، ومدبَّب، بكل تأكيد.»

«تُوجَد أشياء أخرى غير رمح السلمون كان من المُمكن، في رأيك، أن تُسبِّب ذلك؟»

قال الطبيب: «أوه، بالتأكيد!»

توقَّف السيد ليندسي لحظةً، وجال بناظرَيه في قاعة المحكمة كما لو كان يُفكِّر في سؤاله التالي. ثم فجأة وضع يده تحت المنضدة التي كان يقف أمامها، ووسط صمتٍ تام أخرج طردًا طويلًا، رفيعًا، من الورق البُنِّي كنت قد رأيته يُحضِره إلى المكتب صباح ذلك اليوم. وبهدوء، بينما ازداد الصمت عمقًا والاهتمام قوة، أخرج منه شيئًا ما لم أكن قد رأيتُ مثله من قبل؛ أداةً أو سلاحًا يبلغ طوله ثلاثة أقدام، وعموده مصنوع من خشبٍ صلب ولكن من الواضح أنه مرن، ومزوَّد في أحد طرفيه بحلقةٍ حديدية قوية، وفي الآخر برأسٍ فولاذي، أحد طرفَيه على شكل قدُّوم نجار، بينما كان الآخر سنًّا رفيعًا. وازن هذا السلاح بين راحتَيه المفتوحتَين للحظة، حتى تتمكَّن هيئة المحكمة من رؤيته، ثم مرَّره إلى منصة الشهود.

ثم قال: «الآن، أيها الطبيب، انظر إلى هذا، وهو أحد أحدث أشكال فأس الثلج. هل يمكن أن يكون ذلك الجرح ناتجًا عن هذا، أو شيءٍ مُشابه جدًّا له؟»

وضع الشاهد سبَّابته على السن الحاد للرأس.

وأجاب: «بالتأكيد!» ثم أضاف: «من الأرجح أن يكون ناتجًا عن مثل هذا السلاح من أن ينتج عن رمح السلمون.»

مدَّ السيد ليندسي يده ليأخذ فأس الثلج، وبعد أن أمسكها، مرَّرها لي هي وطرد الورق البني.

وقال: «شكرا لك أيها الطبيب؛ ذلك كلُّ ما أردتُ معرفته.» ثم التفت إلى منصة القضاة. وسأل: «أودُّ أن أسأل حضراتكم، إن كانت نيَّتُكم، بناءً على الأدلة التي سمعتموها، أن تحكموا على السجين بتهمةٍ عقوبتها الإعدام اليوم؟» وتابع: «إذا كان الأمر كذلك، فسأُعارض مثل هذا القرار. ما أودُّ طلبه، وأنا أعلم ما أفعله، هو تأجيل هذه القضية لمدة أسبوع، إلى أن أحصل على بعض الأدلة لأضعها أمامكم، والتي، أظنُّ أنها سوف تُثبت أن هذا الرجل لم يقتل أبيل كرون.»

دار بعض النقاش. وأوليتُ قليلًا من الاهتمام له؛ إذ كنتُ مندهشًا إلى حدٍّ كبير من المنعطف المفاجئ الذي سلكته الأمور، ومذهولًا تمامًا من إخراج السيد ليندسي لفأس الثلج. لكن النقاش انتهى إلى الاستجابة لطلب السيد ليندسي، ووضْع كارتر في الحبس الاحتياطي، على أن يَمثُل أمام المحكمة مرةً أخرى بعد أسبوع؛ وبعد قليلٍ خرجنا جميعًا إلى الشوارع، في مجموعات، والجميع يتحدَّثون بحماسٍ حول ما حدث للتو، ويتكهَّنون بشأنِ ما كان يسعى إليه المحامي ليندسي. ومع ذلك، كان السيد ليندسي نفسه أكثر ثباتًا، وإذا كان يُوجَد أي شيءٍ يصف حاله، فقد كان أكثر هدوءًا من المعتاد. ربَّت على ذراعي عندما خرجْنا من المحكمة، وفي نفس الوقت أخذ منِّي الطرد الذي يحتوي على فأس الثلج.

وقال: «يا هيو؛ لا يُوجَد شيء آخر أفعله اليوم، وسأغادر البلدة في الحال، حتى الغد. يمكنك إغلاق المكتب الآن، ويمكنك أنت والاثنان الآخران أن تحصلوا على إجازة. سأذهب مباشرةً إلى البيت وبعد ذلك إلى المحطة.»

استدار بسرعةٍ في اتجاه منزله، وذهبت إلى المكتب لتنفيذ تعليماته. لم يكن ثمَّة شيء غريب في أن يُعطيَنا إجازة؛ كان شيئًا يفعله غالبًا في الصيف، في الأيام الجميلة التي لم يكن لدينا فيها الكثير لنفعله، وكان هذا يومًا مَجيدًا رائعًا، وكان سير الدعوى في المحكمة قصيرًا جدًّا لدرجةِ أنَّ وقت الظهيرة لم يكن قد حلَّ بعد. لذا صرفت الموظفَين المُبتدئَين وفتى المكتب، وأغلقته، وغادرتُ أنا أيضًا، وفي الشارع خارج المكتب التقيتُ بالسير جيلبرت كارستيرز. كان قادمًا في اتجاه مكتبنا، ومن الواضح أنه كان مُستغرقًا في التفكير، وارتجف قليلًا عندما رفع ناظرَيه ورآني.

وقال بطريقته العفوية: «مرحبًا، يا مونيلوز!» وتابع: «كنتُ توًّا أريد أن أراك. اسمع!» وتابع، وهو يضع يدَه على ذراعي «هل أنت مُتأكد تمامًا من أنك لم تُخبِر أيَّ أحدٍ عداي بما رأيته أنت وكرون؛ هل تعرف ما أعني؟»

أجبت: «مُتأكد تمامًا، يا سير جيلبرت!» وأضفت: «لا يُوجَد أحد يعرف الأمر، عداك.»

قال: «حسنًا»، وكان بوسعي أن أُلاحظ أنه شعر بالارتياح. ثم أضاف: «لا أُريد التورُّط في هذه الأمور؛ أنا أكره ذلك للغاية. ما الذي يُحاول ليندسي الوصول إليه في دفاعه عن ذلك الرجل كارتر؟»

أجبت: «لا أستطيع أن أتصوَّر.» وتابعت: «إلا إذا كان يميل الآن إلى نظرية الشرطة القائلة بأن فيليبس قُتِل على يد رجلٍ أو رجال تبعوه من بيبلز، وأن نفس الرجل أو الرجال قتلوا كرون. أظن أنه لا بدَّ أن الأمر كذلك: كان يُوجَد بعض الرجال، السيَّاح، يتجولون في الأرجاء، ولم يُعْثَر عليهم بعد.»

تردَّد لحظة، ثم نظر إلى باب مكتبنا.

ثم سأل: «هل ليندسي بالداخل؟»

أجبت: «كلَّا يا سير جيلبرت.» وتابعت: «لقد غادر البلدة ومَنحَنا إجازة.»

قال، وهو ينظر نحوي بابتسامةٍ مفاجئة: «أوه!» ثم أضاف: «لقد حصلتَ على إجازة، يا مونيلوز، أليس كذلك؟ انظر هنا، أنا ذاهب في جولة باليخت الخاص بي، تعالَ معي! متى يُمكنك أن تُصبح مُستعدًّا؟»

أجبت، وقد سُررت بالدعوة: «بمجرد أن أتناول طعام الغداء، يا سير جيلبرت.» ثم أضفت: «هل ساعة كافية؟»

قال: «لستَ بحاجةٍ لأن تشغل نفسك بشأن غدائك.» وتابع: «لديَّ سلة غداء مُعبَّأة الآن في الفندق، وسأعود لأطلُب منهم وضعَ ما يكفي شخصَين. اذهب وأحضِر معطفًا ثقيلًا، وقابلني عند المرسى في غضون نصف ساعة.»

هُرعتُ إلى المنزل، وأخبرتُ والدتي إلى أين أنا ذاهب، وأسرعتُ بالمغادرة إلى ضفة النهر. كانت صفحة نهر تويد مثل مرآة تعكس ضوء الشمس في ذلك اليوم، وبعد المصبِّ كان البحر المفتوح ساطعًا وأزرق مثل السماء في الأعلى. كيف كان يُمكنني توقُّع أنه هناك، في تلك المياه المتراقصة البعيدة، كان ينتظرني ما لا أستطيع التفكير فيه الآن، بعد مضي وقتٍ طويل، إلا بخوفٍ ورُعب؟

الفصل التاسع عشر

دوري

كنتُ أعرف منذ بعض الوقت أن السير جيلبرت كارستيرز كان يمتلك يختًا صغيرًا يرسو في أحد المراسي على ضفاف النهر؛ في الواقع، كنتُ قد شاهدت اليخت قبل أن أرى السير نفسه. كان يختًا رشيقًا وأنيقًا، له مظهر قاربٍ بحري ممتاز، وعلى الرغم من أنه بدا وكأنه قارب يمكن أن يتحمَّل طقسًا قاسيًا جدًّا، فإنه كان يتمتع بميزة أن غاطسه كان قليلًا جدًّا — نحو أقل من ثلاثة أقدام — مما كان يُمكِّنه من دخول أكثر الموانئ ضحالة. كنتُ قد سمعتُ أن السير جيلبرت كان يُبحر به باستمرارٍ على طول الساحل، وأحيانًا كان يُبحر به في عُمق البحر. في هذه الرحلات كان يُرافقه عادةً بحَّار شابٌّ تعرَّف عليه بطريقةٍ أو بأخرى: وقد وقف هذا الشاب، واتي ماسون، داخل اليخت عندما وصلتُ إليه، وحدجني بنظرةٍ ساخطة عندما وجد أنني سببُ إبحارِه في هذا الوقت على أي حال. وقد ربض حولنا حتى نزلنا، مثلما يربض كلب جائع حول طاولةٍ مُنتظرًا أن تُلقى له عظمة؛ لكنه لم ينَل أيَّ شكرٍ من السير جيلبرت، الذي، على الرغم من أن الشاب كان مفيدًا جدًّا له من قبل، لم يَنتبِه إليه في ذلك اليوم أكثرَ من واحدة من الحصى على الشاطئ. ولو كنتُ ممَّن يَهتمُّون بدراسة الطبيعة البشرية، لحظيتُ بفكرةٍ عن شخصية صاحب عملي المستقبلي من ذلك الموقف البسيط، وكنتُ سألاحظ أنه لم يكن لديه أي شعور أو اعتبار لأي شخصٍ ما لم يكن يخدم غرضه ويُناسبه.

لكن في تلك اللحظة لم أكن أفكِّر في أي شيءٍ سوى الاستمتاع برحلةٍ بحرية في اليخت، بصحبة رجلٍ كنت مُهتمًّا به بطريقة طبيعية. كنت مولعًا للغاية بالبحر، وتعلَّمت بالفعل من بحَّارة بيرويك كيفية التعامُل مع المراكب الصغيرة، وكانت إدارة قارب ثلاثي الشراع مثل هذا مسألة سهلة لي، مثلما أطلعت السير جيلبرت بعد قليل. وبمجرد الخروج من مصبِّ النهر، مع نسيمٍ خفيف يهبُّ من اليابسة، فردْنا الشراع المُربع، والشراع الرئيسي،

والشراع الأمامي، وتوجَّهنا مباشرةً نحو البحر في يومٍ رائع وظروفٍ مواتية يتمنَّاها أيُّ قائد يخت؛ وبينما كنَّا نُبحر في سرور طلب مني السير جيلبرت إخراج السلة التي كانت قد وُضعت على متن اليخت من الفندق؛ حيث كان قد مرَّ وقت طويل، كما قال، منذ تناوله الإفطار، وينبغي أن نأكل ونشرب في بداية الرحلة. لو لم أكن جائعًا، كان منظر المؤن في تلك السلة سيجعلني كذلك؛ إذ كان بها كلُّ ما يمكن أن يرغب فيه المرء، من سمك السلمون البارد والدَّجاج البارد إلى اللحم البقري المشوي، وكان يُوجَد الكثير من المشروبات لتجرع الطعام بها. ومع أخذي في الاعتبار السهولة والصحة التي كان السير جيلبرت كارستيرز يتناول بها الطعام والشراب، وكيف كان يتحدَّث ويضحك بينما كنا نتناول الغداء جنبًا إلى جنبٍ تحت تلك السماء الرائعة، وننزلق بعيدًا فوق بحرٍ ناعم بريء المظهر، تساءلت كثيرًا منذ ذلك الحين عما إذا كان ما سيحدُث قبل حلول الظلام قد حدث بنيةٍ مُتعمَّدة من جانبه، أم نتيجة لاستسلامٍ مفاجئ لوساوس الشيطان عندما سنحت الفرصة لحدوثه، وأُقسم بحياتي أنني لا أستطيع أن أُقرِّر! لكن لو أن الرجل كان قد عزم في قلبه على القتل، بينما كان جالسًا بجانبي، يأكل طعامه الجيد ويشرب خمره الفاخر، ويتشارك فيهما معي ويلحُّ عليَّ أن أتناول ما شئتُ من مُؤنِه السخية، لو كان الأمر كذلك، فقد كان، في رأيي، ذا قسوةٍ لا تُوصَف تجعلني أشعر بالرُّعب من التفكير فيها، وأنا أُفضِّل أن أعتقد أن الدافع وراء محاولة قتلي جاء من وسوسةٍ مفاجئة نبعت من فرصةٍ مفاجئة. ومع ذلك، يعلم الرب أنها مُعضلة يصعب حسمها!

لأن هذا ما آل إليه الأمر، وقبل أن يُضفي غروب الشمس حُمرته على السماء باتجاه الغرب خلف تلال تشفيوتس. قطعنا شوطًا طويلًا داخل البحر، أبعدَ بكثيرٍ من خطِّ الثلاثين قامة، والذي، كما يعلم جميع البحَّارة ذوي الخبرة بتلك المياه، يقع على بُعد سبعة أميال من الشاطئ؛ في الواقع، كما علمتُ لاحقًا، كنَّا على بُعد أكثرَ من ضعف تلك المسافة من طرَف رصيف ميناء بيرويك عندما حدث الأمر، وربما أبعد من ذلك. كنَّا قد أخذنا نُبحر طوال فترةِ ما بعد الظهر، أولًا جنوبًا، ثم شمالًا، دون أي هدفٍ مُعيَّن، وإنما على غير هدًى. ولم نرَ شراع أيِّ قاربٍ آخر، وبعد الساعة السابعة مساءً بقليل، عندما كان ثمة بعض الحديث عن العودة والاستفادة من الريح، التي كان قد تغيَّر اتجاهها كثيرًا منذ الظهيرة وأصبح الآن قادمًا أكثرَ من الجنوب الشرقي، كنا في وسط الامتداد الهائل للبحر حيث لم أتمكَّن من رؤية أثرٍ لأي قاربٍ غير قاربنا، ولا حتى أثر دُخان في الأفق. وكانت اليابسة قد اختفت منذ فترةٍ طويلة: لم يكن يظهر فوق خطِّ البحر سوى المُنحدرات العُليا

لتلال تشفيوتس على أحد جانبَي نهر تويد وتلال لامرمور على الجانب الآخر. وأظن أنه لم يكن يُوجَد أيُّ شيءٍ مرئي على كل هذا المستوى من الماء الهادئ سوى أشرعتنا، المفرودة لالتقاط أيِّ نسيمٍ يهب، عندما حدث ما لم يضعني على حافة الموت فحسب، بل عرَّضني مجرد حدوثه لأبشع رُعبٍ عرفته على الإطلاق.

كنتُ واقفًا في تلك اللحظة، بقدمٍ واحدة على حافة مقدمة اليخت، والأخرى على الأرضية الخشبية خلفي، أوازن نفسي بلا مُبالاة بينما أخذت أُحملق عبر البحر بحثًا عن شيءٍ ما ادَّعى هذا الرجل، الذي وثقتُ به تمامًا والذي في صحبته كنتُ قد قضيت الكثيرَ من الساعات المُمتعة بعد ظهر ذلك اليوم، والذي كان يقف ورائي في تلك اللحظة، أنه يراه على بُعد، وعندئذٍ مال باتجاهي فجأة، كما لو كان قد انزلق وفقد توازنه. كان ذلك ما اعتقدتُه في تلك اللحظة المروِّعة، ولكن عندما سقطتُ برأسي في البحر من على سطح اليخت أدركتُ أن انزلاقه اقتصر على وقوعه في فتحة تصريف المياه. وقعتُ من على ظهر اليخت! لكنه بقِيَ حيث كان. وسحبني وزني — حيث كنت أزن في ذلك الوقت ثلاثة عشر ستونًا (ما يعادل قرابة ثلاثة وثمانين كيلوجرامًا)؛ إذ كنت شابًّا ضخمًا وثقيلًا — إلى أسفل وأسفل في المياه الخضراء؛ لأنني كنتُ قد دُفِعتُ من على الجانب بقوةِ دفعٍ كبيرة. وعندما طفوت، على بُعد مسافةٍ تبلغ ضعفَي طول اليخت، مُتوقعًا أن أجده يُحاول تقريب اليخت منِّي حتى أتمكَّن من القفز على مَتنه، رأيتُ وأنا في حالة فزعٍ مشوبٍ بالدهشة وعدم التصديق أنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل؛ بدلًا من ذلك، كان يعمل على السطح بأقصى ما يستطيع، كي يفرد ثنيتَين كان قد طواهما في الشراع الرئيسي قبل ساعة؛ وبعد دقيقة كان قد فردهما، فتحرَّك اليخت بسرعةٍ أكبر، وهُرع إلى الدفة، وحَوَّل وجهة اليخت بعيدًا عنِّي مُتعمدًا.

أفترض أنني أدركتُ هدفه على الفور. ربما دفعني ذلك إلى الغضب والجنون والاهتياج. كان اليخت يبتعِد عني بسرعة، وابتعد أسرع؛ وعلى الرغم من أنني كنتُ سبَّاحًا جيدًا، كان من المُستحيل أن ألحق به؛ كان يقطع مسافةً مساوية لطوله مُقابل كل ضربة يدٍ منِّي للماء، وبينما كان اليخت يبتعِد، وقف هناك، واضعًا إحدى يدَيه على الدفة والأخرى في جيبه (تساءلت كثيرًا عما إن كان يُمسك مُسدسًا داخل جيبه!) وتحوَّلت عيناه نحوي بثبات. وبدأتُ أولًا أتوسَّل إليه وأستعطفه ليُنقذني، ثم أخذتُ أصرخ وألعنه؛ وعندئذٍ، وبعد أن أدرك أن التباعُد بيننا كان آخِذًا في التزايُد، تعمَّد وضْع اليخت أكثرَ أمام الريح المنعشة، ومضى بعيدًا بسرعة، ولم يَعُد ينظر نحوي.

إذن فقد تركني لأغرق.

كنَّا قد تحدَّثنا كثيرًا خلال فترةِ ما بعد الظهر عن السباحة، وقد أخبرتُه أنه على الرغم من أنني كنتُ سبَّاحًا منذ الصبا، لم أسبح لمسافةٍ مُتواصلة أكثرَ من ميلٍ واحد، وذلك في النهر فقط. ومن ثَمَّ كان يعلم أنه تركني على مسافةِ أربعة عشر ميلًا من الشاطئ ولا يُوجَد حولي أيُّ قاربٍ على مرمى البصر، ودون أي فرصةٍ لأن يلتقطني أحدٌ. هل كان من المُمكن أن أتمكَّن من الوصول إلى الأرض؟ هل كان يُوجَد أيُّ احتمالٍ أن يراني أي قاربٍ مارٍّ؟ كان يُوجَد احتمال ضئيل، على أي حال؛ لكن الاحتمال الأكبر كان أنه قبل وقتٍ طويل من حلول الظلام سيُصيبني الإعياء، وأستسلم، وأغرق.

يمكنك أن تتخيَّل مدى الغضب، والاستياء البالِغ الذي تملَّكني وأنا أُشاهد هذا الرجل ويخته يبتعِدان عني سريعًا، ومدى اليأس أيضًا. لكن حتى في تلك اللحظة كنتُ مدركًا لحقيقتَين؛ أنني علمتُ الآن أن ذلك الرجل هو القاتل المُحتمَل لكلٍّ من فيليبس وكرون، وأنه تركني لأموت لأنني كنتُ الشخص الوحيد على قيد الحياة الذي يُمكنه إلقاء بعض الضوء على تلك الأمور، وعلى الرغم من أنني كنتُ قد التزمتُ الصمت حتى ذلك الحين، ربما عن طريق الإغراء، أو التحفيز، أو الإجبار على فعل ذلك، كان من شأنه أن يُسكِتَني عندما أُتيحَت له فرصة جيدة جدًّا كهذه. والحقيقة الأخرى، هي أنه مع أن احتمال رؤيتي لبيرويك مرةً أخرى كان مُساويًا لاحتمال أن أصبح مَلِك إنجلترا، إلا أنني يجِب أن أبذل قصارى جهدي لتوفير قوَّتي وإنقاذ حياتي. كان لديَّ الكثير من المُحفِّزات؛ مايسي، ووالدتي، والسيد ليندسي، وشبابي، والرغبة في الحياة، والآن أضيف إليهم حافزًا آخر؛ الرغبة في أن أتغلَّب بدهاءٍ على ذلك الشيطان القاسي، البارد القلب، الذي كنتُ متأكدًا الآن من أنه كان طوال الوقت يُمارس لعبة يائسة، وأن أنتقم منه وأرى العدالة تأخذ مجراها معه. لم أكن سأستسلم دون أن أُقاتل من أجل ذلك.

لكن فرصتي كانت ضعيفة، وكنتُ أُدرك ذلك جيدًا. كان ثمَّة احتمال ضئيل أن تخرج قوارب الصيد أو ما شابه في ذلك المساء؛ واحتمال ضئيل أن ترى أي باخرةٍ ساحلية شيئًا ضئيلًا مثلي. ومع ذلك، كنتُ سأُبقي ذقني مرفوعًا أطول وقتٍ مُمكن، وأول شيء تعيَّن عليَّ أن أفعله هو توفير قُوَّتي. تدبَّرت أمري كي أخلع المعطف الثقيل الذي كنتُ أرتديه والملابس غير الضرورية تحته؛ وتخلصت أيضًا من حذائي. وبعد قليل من الراحة على ظهري وتقدير الأمور، قررتُ أن أحاول الوصول إلى اليابسة، فربما أُقابل بعض القوارب وهي تخرج. رفعت رأسي عاليًا وألقيتُ نظرةً على ما يمكنني رؤيته — واعتراني الإحباط

مما رأيته! إذ أصبح اليخت بقعةً على مسافةٍ بعيدة في ذلك الوقت، وبعيدًا خلفه كانت تلال تشفيوتس ولامرمور مجرد أجزاء من خطوطٍ رمادية قبالة السماء ذات اللونَين الذهبي والقرمزي. على الفور راودتني فكرةٌ وأوهنت عزيمتي؛ لقد كنتُ بعيدًا عن الشاطئ أكثرَ مما كنت أعتقد.

بعد مُضي هذه الفترة الطويلة على تلك الواقعة لا يُوجَد لديَّ سوى ذكريات مشوَّشة ومُبهمة عن تلك الليلة. أحيانًا أحلُم بها، حتى الآن، وأستيقظ عرقانَ شاعرًا بالخوف. في تلك الأحلام أرى نفسي أبذل جهدًا حثيثًا عبر بحرٍ أملسَ — إنه دائمًا بحر أملس، زيتي، زلِق — نحو شيء لا أُحقِّق نحوه تقدُّمًا كبيرًا. أحيانًا أتخلَّى عن بذل الجهد بسبب آلامٍ شديدة وباعثة على اليأس في جسدي وأطرافي، وأترك نفسي أنجرف نحو العجز والنوم المُتزايد. وبعد ذلك، في حلمي، أبدأ أجد نفسي أغرق إلى أعماقٍ كهفية غريبة ذات لونٍ أخضر لامع، وأستيقظ، في حلمي، لأبدأ النضال والكدح مُجددًا في مواجهة رغبتي المُلِحَّة في الاستسلام.

لا أدري كم من الوقت ناضلتُ في الواقع؛ لا بد أن ذلك كان لساعات؛ متناوبًا السباحة وإراحة جسدي بالطفو. راودتني أفكار غريبة. كانت في ذلك الوقت حول بعض الرجال الذين يحاولون عبور القنال الإنجليزي سباحةً. أتذكَّر الضحك الكئيب، مُتمنِّيًا لهم السعادة في مُهمتهم، وكنت مرحِّبًا بأن يشاركوني في مُهمتي! أتذكَّر أيضًا أنني شعرتُ أخيرًا في الظلام أنني يجِب أن أستسلم، وأتلو صلواتي؛ وفي نحو ذلك الوقت، الذي كنتُ قد بدأتُ أشعر فيه ببعض خدَر الذهن بالإضافة إلى إرهاق بدني، بينما رُحتُ أسبح بطريقةٍ تلقائية وآخِذة في الضعف حافظتُ عليها بدافعٍ من الإصرار الضئيل الذي كان قد تبقَّى لدي، أتى إليَّ خلاصي؛ على شكل قطعةٍ من الحطام دفعت نفسها تجاهي في الظلام، كما لو كانت كلبًا مُخلصًا، يدفع أنفه في يدي ليُعلِمَني بوجوده. لم تكن أكثر من مُربَّع شبكةٍ خشبية، لكنها كانت ثقيلةً وكبيرة؛ وعندما تشبثتُ بها وتسلَّقت عليها، علمت أنها مثَّلت لي الاختلاف التام بين الحياة والموت.

الفصل العشرون

القبطان الصالح

تشبثتُ بقطعة الحطام التي أرسلتْها لي العناية الإلهية، مُرهقًا ومُنهكًا، حتى بدأ الضوء ينبلج في الشرق. كنتُ أشعر بالخدَر وأرتجف من البرد، لكنني كنتُ على قيد الحياة وآمنًا. كانت تلك القطعة المُربعة من الخشب الجيد والصُّلب عندي بمثابة جزيرةٍ عائمة. وبينما كان الضوء يتزايد، والشمس تبزغ أخيرًا، ككرةٍ من النار تخرج من الأفق البعيد، نظرتُ عبر البحر في جميع الأرجاء، على أملِ أن ألمح شراعًا، أو خيطًا من الدخان، أو أي شيءٍ يدلني على وجود بشرٍ على مقربة. وأدركتُ في الحال حقيقةً واحدة؛ كنتُ بعيدًا عن الشاطئ أكثرَ مما كنتُ عليه عندما بدأت معركتي مع الموت. لم تكن تُوجَد أي علامةٍ على وجود يابسة في الغرب. كانت السماء الآن صافية ومشرقة في جميع الجوانب، لكن لم يكن يُوجَد ما يكسر الخط الذي تلتقي فيه مع البحر. قبل أن يتلاشى الضوء في الليلة السابقة، كنتُ قد تبينتُ بسهولة الهيئةَ المعروفة لتلال تشفيوتس من جهة وتلال سايز لو من جهةٍ أخرى، أما الآن فلم يَعُد يُوجَد أثر لأيٍّ منها. علمت من هذه الحقيقة أنني قد انجرفتُ بطريقةٍ أو بأخرى بعيدًا عن الساحل. وبناءً على ذلك لم يكن أمامي شيء أفعله سوى انتظار فُرصة أن يراني أحد المراكب وينتشلني، وشرعت، قدرَ استطاعتي على طوفي الصغير، في العمل على فرك أطرافي وبث بعض الدفء في جسدي. ولم أُبارك الشمس في حياتي بقدرِ ما فعلتُ في ذلك الصباح؛ لأنها عندما بزغت من مهدِها في سماء الشمال الشرقي، كان هذا بقوَّتها الكاملة والقلبية في أوج الربيع، فأدفأَتْ حرارتها دمي المُتجمِّد وأرسلَتْ وهَجَ أملٍ جديد لقلبي. لكن تلك الحرارة لم تكن نعمةً خالصة؛ فقد أصبتُ بالعطش بالفعل؛ وبينما كانت الشمس ترتفع أعلى فأعلى، وتصبُّ أشعَّتها بكاملها عليَّ، أصبح العطش غير مُحتمَل تقريبًا، وشعرتُ وكأن فمي لم يَعُد قادرًا على احتواء لساني.

بعد مرور ربما ساعة واحدة من شروق الشمس، عندما أصبح عذابي لا يكاد يُحتمَل، لاحظتُ لأول مرة خيطًا من الدخان على الحافة الجنوبية لدائرة البحر التي كانت حينها كلَّ عالمي. لم أُجهد عيني مُطلقًا لرؤية أي شيءٍ مثلما فعلتُ مع تلك الرقعة الرمادية مقابل الزرقة الصافية! أخذت تتزايد أكثر فأكثر؛ وكنتُ أعرف، بالطبع، أنها باخرةٌ ما، تقترب تدريجيًّا. لكن بدا وكأن دهرًا قد مرَّ قبل أن أتمكَّن من رؤية مداخنها؛ ودهرًا قبل أن أرى الجزء الأول من هيكلها الأسود يظهر فوق مستوى الأمواج المُتراقصة. ومع ذلك ظهرَت أخيرًا، بمُقدمتها، مباشرة في اتجاهي. لا بدَّ أنَّ أعصابي قد استسلمت عند مرآها؛ أتذكَّر الدموع وهي تنهمِر على خديَّ؛ وأتذكَّر أنَّني سمعتُ نفسي أُصدِر أصواتًا غريبة، أظن أنها كانت أصوات ارتياحٍ وشكر. ثم داهمني الرعب من ألا يراني طاقمها، وأُترَك لتحمُّل المزيد من عذاب العطش، ومن أن تغيِّر الباخرة مسارها، وقبل وقتٍ طويلٍ من أن تصبح قريبة مني، كنت أحاول موازنة نفسي على المربع الخشبي، كي أتمكَّن من الوقوف منتصبًا وجذب انتباه طاقمها.

كانت باخرةً بطيئة للغاية، وغير قادرة على الإبحار بسرعةٍ أكبر من تِسع أو عشر عُقَد في أحسنِ الأحوال، حتى إنه مرَّت ساعة أخرى قبل أن تُصبح بالقُرب مني. لكن، حمدًا للرب! أصبحَت على بُعد ميل واحدٍ مني، وتدبَّرت أمري لأقِفَ على الطوف وأُلوِّح لها. وعندئذٍ غيَّرت مسارها وجاءتْ ببطءٍ صَوبي. كانت واحدةً من أبشع السفن التي غادرت حوض بناء سُفنٍ على الإطلاق، لكنني ظننتُ أنني لم أرَ مُطلقًا في حياتي أيَّ شيءٍ بهذا الجمال الذي بدَتْ به في تلك اللحظات، وبالتأكيد لم أكن مُمتنًّا أبدًا لأي شيءٍ بقدرِ امتناني لسطحها الصلب والقذِر عندما ساعدتني الأيدي المُتحمِّسة والطيبة في الصعود عليه.

بعد ذلك بنصف ساعة، مُرتديًا ملابسَ جافة، وأنا أتجرَّع القهوة الساخنة وشراب الرم، جلستُ مع القبطان في مقصورته، أُخبره، تحت تعهُّدٍ صارم بالسرية، بالقدْرِ الذي شعرت بالمَيل إلى أن أشاركه إيَّاه من قصتي. كان رجلًا مُتعاطفًا ومتفهمًا، وأخذ يسبُّ كثيرًا وبحرارة عندما سمع كيف عُومِلتُ بطريقةٍ غادرة، مشيرًا إلى أن أعزَّ أمنيةٍ لقلبه، في ذلك الوقت، أن يقتص من الرجل الذي خدعني.

وقال: «لكنك ستتعامَل معه بنفسك!» وتابع: «يا رجل! لن ترحمه؛ عِدني بذلك! وستُرسِل لي صحيفة تحتوي على سردٍ كامل لكلِّ ما حدث له عندما تجعل القانون يُطَبَّق عليه، ذلك الحقير! أتمنَّى أن يُمزِّقوا أوصاله! لقد كانت أيامًا رائعة عندما كان يُوجَد المزيد من الإباحة والحرية في مُعاقبة المُجرمين … أوه! أودُّ أن أرى هذا الرجل يُلقى في الزيت

المُغلى، أو شيءٍ من ذلك القبيل، الشرير القاتل، عديم الرحمة! ستُرسِل لي الجريدة، أليس كذلك؟»

ضحكت، لأول مرةٍ منذ، متى؟ بدا كما لو أنه قد مرَّت سنوات منذ أن ضحكت، مع أنه لم يكن قد مرَّ سوى بضع ساعات، بأي حال.

أجبت: «قبل أن أتمكَّن من تطبيق القانون عليه، يجب أن أصِل إلى اليابسة، أيها القبطان.» ثم أضفت: «ما وجهتك؟»

أجاب: «دندي.» وتابع: «دندي ... ونحن الآن على بُعد ما بين ستين أو سبعين ميلًا فحسب، والساعة الآن تقترب من السابعة. سنصل إلى دندي في وقتٍ مُبكِّر من بعد الظهر، على أي حال. وماذا ستفعل هناك؟ هل ستستقلُّ القطار التالي إلى بيرويك؟»

أجبت: «لستُ متأكدًا أيها القبطان.» ثم أضفت: «لا أريد أن يعرف هذا الرجل أنني على قيد الحياة؛ ليس بعد. ستُصبح مفاجأة لطيفة له، لاحقًا. ولكن يُوجَد أشخاص يجب أن أجعلهم يعرفون في أقرب وقتٍ مُمكن؛ لذا فإن أول شيءٍ سأفعله، هو أنني سأُرسل برقية. وفي غضون ذلك، دعني أنَل قسطًا من النوم.»

لم تكن الباخرة التي انتشلتني سوى سفينة شحن بضائع، تُبحر ببطءٍ وهي تحمل شحنةً عامة من لندن إلى دندي، وكان المبيت فيها غير مُريح بقدرِ ما كان قبطانها ودودًا. لكنها كانت في نظري قصرًا حقيقيًّا يتَّسِم بالبهجة والفخامة بعد تلك الليلة الرهيبة، وسرعان ما رُحت في نوم عميق في كابينة القبطان؛ وكنتُ لا أزال نائمًا عندما وضع يده عليَّ ليُوقظني في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم.

وقال: «نحن في نهر تاي، وسنرسو بعد نصف ساعة. والآن، لا يمكنك النزول في المرفأ بملابسك الداخلية، يا رجل! وأين محفظتك؟»

كان مُصيبًا في تقييمه للموقف. فقد تخلَّصتُ من كل شيءٍ عدا ملابسي الداخلية أثناء محاولة النجاة؛ أما محفظتي، فكانت في نفس المكان الذي كانت فيه بقية مُتعلقاتي؛ غارقة أو طافية.

فقال: «أنا وأنت لنا نفس البنية تقريبًا.» ثم أضاف: «سأمنحك بدلةً جيدة لديَّ، وأقرضك أي مال تُريده. ولكن ما الذي ستفعله؟»

سألت: «كم يومًا ستتوقَّف هنا في دندي، أيها القبطان؟»

أجاب: «أربعة أيام.» ثم أضاف: «سأفرغ الحمولة غدًا، وسأُحَمِّل غيرها في اليومَين التاليين، وبعد ذلك سأغادر مرةً أخرى.»

قلت: «أقرضني الملابس وجنيهًا ذهبيًّا.» وتابعت: «سأُرسل برقيةً إلى مديري، ذلك الرجل النبيل الذي أخبرتُك عنه، أطلُب فيها منه أن يأتي إلى هنا على الفور مع الملابس والمال، ومن ثم سأردُّ لك المال وأُعيد لك بدلتك مرةً أخرى صباح الغد، عندما أحضره لُمقابلتك.»

فأخرج على الفور جنيهًا ذهبيًّا من جيبه، واستدار إلى الخزانة، وأخرج بدلةً جديدةً من صوف السيرج الأزرق وقميصًا مناسبًا من الكتان.

وقال، بقليلٍ من التساؤل: «حقًّا؟» وتابع: «ستأتي به إلى هنا؟ ولأي غرض؟»

أجبت: «أريده أن يسمع شهادتك على انتشالي من البحر.» ثم أضفت: «ذلك أحد الأسباب ... وتُوجَد أسباب أخرى سنُخبرك بها فيما بعد. ولا تُخبر أيَّ شخصٍ هنا بما حدث، وأبلِغ طاقمك بالتزام الصمت. وسأمنحهم مقابلًا جيدًا عندما يأتي صديقي.»

كان رجلًا لطيفًا، وفهِم أن هدفي هو إخفاء خبر نجاتي عن السير جيلبرت كارستيرز، ووعد بفعل ما طلبته. وبعد قليلٍ — نظرًا لأننا، كما كان قد لاحظ، كنا نرتدي تقريبًا نفس القياس من الملابس، ولأن بدلة صوف السيرج ناسبتني جيدًا — نزلت إلى شوارع دندي، التي لم أكن قد زُرتُها من قبل، بحثًا عن مكتب تلغراف، وأنا أُدير الجنيه الذهبي الذي منحه لي القبطان بين إبهامي وسبابتي بينما أعمل على حلِّ مشكلةٍ تحتاج إلى القليل من التفكير.

يجب أن أُبلغ والدتي ومايسي بنجاتي، على الفور. ويجب أن أُبلِغ السيد ليندسي، أيضًا. كنت أعرف ما لا بدَّ أنه قد حدث هناك في بيرويك. لقد تسلَّل هذا الشرير المُتوحِّش عائدًا للبلدة وقال إن حادثًا مؤسفًا قد حدث لي. أخذت أجزُّ على أسناني وأتلهَّف إلى أن أضع يدي على لسانه الكاذب عندما فكَّرت فيما لا بدَّ أن مايسي وأمي قد كابدَتاه بعد سماع حكاياته وأعذاره. لكنني لم أكُن أُريده أن يعرف أنني نجوت؛ لم أُرِد أن تعرف المدينة. إذا اتَّصلت بمكتب السيد ليندسي، كان من شِبه المؤكَّد أن أحد زملائي الموظفين هناك سيردُّ على الهاتف ويتعرَّف على صوتي. ثم ينكشف كل شيء. وبعد تفكيرٍ عميقٍ في الأمر أرسلتُ إلى السيد ليندسي برقيةً بالكلمات التالية، على أملِ أن يفهم مدلولها كاملًا:

«اكتُم هذا السر عن الجميع. أحضِر بدلةً، وملابس داخلية، ونقودًا، وأمي، ومايسي في القطار التالي إلى دندي. أعطِ موظفي البريد أوامر بعدم إفشاء السر، وهو الأمر الأهم. إتش أم.»

قرأتُ البرقية ستَّ مراتٍ قبل أن أرسِلها في النهاية. بدا الأمر كله خطأ، بطريقةٍ ما؛ وصوابًا بطريقةٍ أخرى. ومع أن صياغتها كانت سيئة، فقد عبَّرت عما أعنيه. لذا سلَّمتُها للموظف، ومعها الجنيه الذهبي الذي اقترضتُه، وأخذتُ منه باقي الجنيه الذي ردَّه لي، وخرجتُ من مكتب التلغراف أُحدِّق فيما حولي.

لقد كان شيئًا غريبًا، لكنني حينئذٍ كنتُ منشرحَ القلب للغاية؛ وجدتُ نفسي أضحك ضحكًا نابعًا من شعورٍ غريب بالبهجة. كانت الحقيقة — إذا كنتَ تريد تحليلَ منبعِ ذلك — أنني شعرتُ بارتياحٍ كبير لقُدرتي على الاتصال بأهلي. في غضون ساعة، وربما قبل ذلك، سيصلهم الخبر، وكنت أعلم جيدًا أنهم لن يُضيعوا وقتًا في القدوم لي. ووجدتُ نفسي في ذلك الوقت بجوار محطة السكك الحديدية البريطانية الشمالية، فدخلتُ وتمكَّنت من معرفةِ أنه إذا كان السيد ليندسي في المكتب عندما تصِله برقيتي، وتصرَّف على الفور وفقًا لها، فسيُمكنه هو وهم الوصول إلى دندي بقطارٍ يصل في ساعةٍ متأخرة من ذلك المساء. بالطبع، جعلتني معرفة ذلك في حالةٍ مزاجية أفضل. لكن كان يُوجَد لديَّ مصدر آخر للرِّضا والابتهاج؛ أصبحت الأمور الآن مواتيةً لي للانتقام من السير جيلبرت كارستير، وما كان غامضًا لم يَعُد كذلك.

عُدت إلى رصيف الميناء حيث تركت باخرةَ الشحن، وأخبرتُ قبطانها الطيب بما فعلته؛ لأنه كان مُهتمًّا جدًّا بالقضية كما لو كان أخي. وبعدما أنجزتُ ذلك، تركتُه مرة أخرى وذهبت لرؤية معالم المدينة، وأنا مُنتعش للغاية وقد استعدتُ عافيتي بعد النوم الجيد الذي حظيتُ به ذلك الصباح. تجوَّلت في جميع أرجاء دندي حتى تعبَتْ قدماي، وكانت الساعة قد شارفت على السادسة مساءً. وفي ذلك الوقت، بينما كنتُ في شارع بانك ستريت، وأثناء بحثي عن مكانٍ يُمكنني فيه الحصول على فنجانٍ من الشاي وبعض الطعام، وقع بصري بالصدفة البحتة على اسمٍ مكتوب على لافتةٍ من النحاس الأصفر، مُثبتة وسط لافتاتٍ أخرى من نفس النوع، على الباب الخارجي لمجموعةٍ من المكاتب. كان الاسم هو جافين سميتون. فتذكَّرته على الفور، وتحرَّكت بدافعٍ مفاجئ، وصعدتُ الكثير من الدرجات إلى مكتب السيد جافين سميتون.

الفصل الحادي والعشرون

السيد جافين سميتون

دخلت إلى غرفةٍ في قمة المبنى، حيث جلس شابٌّ في الثلاثين من عمره أو نحو ذلك على مكتب، يُرتِّب عددًا من الرسائل التي كان من الواضح أن صبيًّا، يقف بجانبه، على وشك حملها إلى مكتب البريد. كان شابًّا وسيمًا، يقظًا، ذا مظهرٍ عملي، وملامح متميزة، أنيق الملبس، وفي المُجمل كان شخصًا جديرًا بالملاحظة والاهتمام. كان أول ما أدهشني بشأنه هو أنه، على الرغم من أنه نظر نحوي نظرةً سريعةً عندما وقفتُ في مواجهته بعدما طرقتُ بابه ودخلت مكتبه، أنهى ما كان يفعله أولًا قبل أن يُعطيني المزيد من الاهتمام. ولم يلتفِت نحوي إلا بعدَ أن أعطى جميع الرسائل إلى الصبيِّ وأمره بالإسراع إلى مكتب البريد، ثم نظر نحوي نظرةً حادةً أخرى وبادرني بكلمة استفسارٍ واحدة.

قال: «ماذا؟»

فسألت: «هل أنت السيد جافين سميتون؟»

أجاب: «أجل هذا اسمي.» وتابع: «ما الذي يُمكنني أن أفعله من أجلك؟»

حتى تلك اللحظة لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن الأسباب المُحدَّدة التي دفعتني إلى صعود تلك السلالم. الحقيقة هي أنني كنتُ قد تصرَّفت بدافعٍ خفي. والآن بعد أن أصبحتُ بالفعل في مواجهةِ رجلٍ من الواضح أنه كان شخصًا ذا طابعٍ عملي وواقعي للغاية، شعرتُ بالحرج وعدم القدرة على الكلام. كان يتفحَّصني طوال الوقت كما لو كان ثمَّة تساؤل في ذهنه عني، وعندما أبطأتُ في الإجابة، تململ بنفاد صبرٍ في كُرسيه.

وقال: «لقد انتهت ساعات عملي لهذا اليوم.» وتابع: «إذا كنتَ تريدني في عمل ...»

بذلتُ جهدًا جهيدًا لكي أقول: «إنه ليس عملًا بالمعنى المعتاد، يا سيد سميتون.» وتابعت: «لكنه عمل رغم ذلك. حقيقة الأمر هي ... لعلك تتذكَّر أن شرطة بيرويك قد

أرسلت لك برقيةً منذ بضعة أيام تسألك إن كنتَ تعرف أيَّ شيءٍ عن رجلٍ يُدعى جون فيليبس؟»

عندئذٍ أظهر اهتمامًا مفاجئًا، ونظر نحوي بابتسامةٍ خفيفة.

وسأل: «هل أنت مُحقِّق؟»

فأجبته: «كلَّا؛ أنا مُتدرِّب في مكتب مُحاماة.» وتابعت: «من بيرويك، ومديري، السيد ليندسي، له علاقة بتلك القضية.»

أشار برأسه إلى كومةٍ من الصحف التي وُضعت، وعليها كتاب ثقيل، على طاولةٍ جانبية بالقُرب من مكتبه.

وقال: «لقد علمت بذلك من هذه الصحف.» ثم أضاف: «قرأتُ كلَّ ما أستطيع عن قضيتي فيليبس وكرون، منذ أن سمعتُ أنه قد عُثِر على اسمي وعنواني مع فيليبس. هل أُلقِيَ مزيدٌ من الضوء حول ذلك الأمر؟ بالطبع، لا يُوجَد ما يضير في العثور على اسمي وعنواني مع الرجل، ولا إذا عثُر عليهما مع أيِّ رجل. فكما ترى، أنا وكيل عام لأنواعٍ مختلفة من البضائع الأجنبية، ومن المُحتمَل أنني قد تلقيتُ توصيةً بالتعامُل مع هذا الرجل؛ خاصةً إذا كان من أمريكا.»

أجبت: «لم يُلقَ مزيدٌ من الضوء حول ذلك الأمر، يا سيد سميثون.» كان عندئذٍ قد أشار لي بالجلوس على كرسيٍّ بجانب مكتبه، وكنا نتبادل النظرات الفاحصة. فأضفت: «لم يُسمَع المزيد عن تلك النقطة.»

سأل: «إذن، هل أتيتَ بقصد مُقابلتي بشأن هذا الموضوع؟»

قلت: «كلَّا، على الاطلاق!» ثم أضفت: «لقد كنتُ مارًّا بهذا الشارع، ورأيت اسمك على الباب، وتذكَّرته؛ ولذلك فقط صعدت.»

قال، وهو ينظر نحوي بلا مبالاة نوعًا ما: «أوه!» وتابع: «أنت تقيم في دندي؛ هل أنت في إجازة؟»

قلت: «لقد جئتُ إلى دندي بطريقةٍ لا أرغب في تَكرارها في أيِّ مناسبة أخرى!» ثم أضفت: «ولو لم يُعرني رجلٌ هذه البدلةَ وجنيهًا ذهبيًّا، لأتيتُ إلى الشاطئ مُرتديًا ثيابي الداخلية ومن دون بنس واحد.»

حدَّق نحوي بلا مبالاة أكثرَ من ذي قبل عندما أخبرته بذلك، وفجأة ضحك.

وسأل: «ما كل هذا اللغز؟» وتابع: «يبدو وكأنه مأخوذ من كتاب حكايات؛ واحدة من حكايات المغامرات تلك.»

قلت: «أجل، أليس كذلك؟» ثم أضفت: «فقط، في حالتي، يا سيد سميتون، كانت الحقيقة أغربَ بكثيرٍ من الخيال! هل قرأتَ كل شيءٍ عن لغز بيرويك في الصحف؟»

أجاب: «كل كلمة؛ نظرًا لأنني ذُكِرتُ فيه.»

تابعت: «إذن سأعطيك الفصل الأخير.» وأضفت: «ستعرف اسمي عندما تسمعه؛ هيو مونيلوز. أنا الذي اكتشفت جثة فيليبس.»

لاحظت أن اهتمامه أخذ يتزايد أثناء حديثنا؛ وعندما ذكرتُ اسمي زاد اهتمامه بشكلٍ واضح. وفجأة سحب صندوق سيجار تجاهه، وأخرج واحدًا، ودفع الصندوق نحوي.

وقال: «تفضَّل، يا سيد مونيلوز؛ وتابع حديثك.» ثم أضاف: «أنا على استعدادٍ لسماع أيِّ عددٍ من الفصول تشاء من هذه القصة.»

هززتُ رأسي مُعتذرًا عن عدم قبولي للسيجار ورحتُ أقصُّ عليه كلَّ ما حدث منذ مقتل كرون. كان مُستمعًا جيدًا؛ إذ كان منتبهًا لكل تفصيلة، وكل نقطة، وهو يُدخِّن بهدوءٍ أثناء حديثي، ولم يُقاطعني مُطلقًا. وعندما انتهيتُ من حديثي، هزَّ رأسه بإيماءةٍ مهمة أوحت بالكثير.

وصاح: «هذا يتفوق على كل كتب الحكايات!» ثم أضاف: «أنا سعيد برؤيتك سالمًا، على أي حال، يا سيد مونيلوز؛ وستسعد والدتك وخطيبتك بذلك أيضًا.»

قلت: «بكل تأكيد يا سيد سميتون.» وتابعت: «أنا مُمتن لك كثيرًا.»

فسأل: «هل تظنُّ أن هذا الرجل كان يقصد حقًّا أن يُغرقك؟»

أجبت: «ماذا تظنُّ أنت يا سيد سميتون؟» وأضفت: «علاوة على ذلك؛ ألم أرَ وجهه وهو يبتعِد عني بيخته؟ إن ذلك الرجل قاتل!»

قال وهو يومئ برأسه: «إنه تصرُّف سيئ وغريب.» ثم أضاف: «بالطبع أنت الآن تظنُّ أنه هو مَن قتل كُلًّا من فيليبس وكرون، أليس كذلك؟»

قلت: «أجل، أظن ذلك بالفعل!» ثم تابعت: «وماذا سأظن بخلاف ذلك؟ وأراد إسكاتي لأنني الشخص الوحيد الذي يمكن أن يشهد برؤيته عند مُفترق الطرق في تلك الليلة، ويُمكن أن يثبت أن كرون رآه أيضًا. وانطباعي الخاص هو أن كرون ذهب إليه مباشرة بعد حديثه معي، ودفع ثَمن ذلك.»

فقال: «ذلك مُحتمَل.» وتابع: «ولكن في ظنِّك ما الذي جعله ينقلب عليك فجأة، بالأمس، مع أن الأمور بدت أنها تسير بسلاسةٍ في كلِّ شيء، وقد أعطاك تلك الوظيفة؛ التي كانت، بالطبع، من أجل أن يُسكِتَك؟»

قلت: «سأُخبرك.» وتابعت: «لقد كان خطأ السيد ليندسي؛ فقد أفصح عن الكثير في محكمة الشرطة. وكان كارستيرز هناك، حيث خُصِّصَ له كرسيٌّ على المنصة، وقد أخافه السيد ليندسي. ربما كان السبب فأس الثلج تلك. لقد امتلك السيد ليندسي دليلًا قويًّا في جَعبته حول ذلك؛ وأنا لا أعرف ما هو. لكنني مُتأكد الآن، الآن! من أن الخوف قد سيطر على كارستيرز أثناء تلك الجلسة صباح أمس، وظن أنه سيتخلَّص مني إلى الأبد قبل أن أُستدرَج وأُجبَر على قول أشياء قد تكون في غير صالحه.»

قال: «أظن أنك على حق.» ثم أضاف: «حسنًا! إنها حقًّا قضية غريبة، وستظهر فيها أمورٌ أغرب فيما بعد. أودُّ مقابلة السيد ليندسي هذا؛ هل أنت مُتأكد من أنه سيأتي إليك هنا؟»

قلت: «أجل! ما لم يحدُث زلزال بين المدينة هنا ونهر تويد!» وأضفت: «سيأتي إلى هنا، بكل تأكيد، يا سيد سميتون، خلال ساعاتٍ قليلة. وسيودُّ أن يراك. هل تستطيع الآن التفكير في الكيفية، أو السبب في حصول ذلك الرجل فيليبس على قطعة ورق الرسائل الخاصة بك؟ كانت تُشبه هذه»، أضفت، مشيرًا إلى رزْمةٍ من ورق الرسائل وُضِعَت في صندوق أدواته المكتبية على المكتب أمامه. «مثلها تمامًا!»

قال: «لا أستطيع.» ثم أضاف: «لكن ... لا يُوجَد شيء غير عادي في ذلك؛ ربما سلَّمها له مراسل تابع لي؛ مزَّقها من إحدى رسائلي، هل تفهم ذلك؟ لديَّ مراسلون في العديد من الموانئ البحرية والمراكز التجارية؛ هنا وكذلك في أمريكا.»

قلت مُعلقًا: «يبدو أن هؤلاء الرجال قد أتوا من أمريكا الوسطى.» وأضفت: «يبدو أنهم قد وُظِّفوا، بطريقةٍ أو بأخرى، في مشروع قناة بنما تلك التي تحدَّثت عنها الصحف كثيرًا في السنوات القليلة الماضية. هل لاحظتَ ذلك في روايات الشهود، يا سيد سميتون؟»

فأجاب: «أجل.» وتابع: «وقد أثار اهتمامي، لأنني شخصيًّا من تلك الأنحاء؛ لقد وُلدتُ هناك.»

قال ذلك وكأن هذه الحقيقة لم تكن ذات أهمية. لكنها استرعت انتباهي بشدة.

فقلت: «حقًّا تقول!» وأضفت: «أين، إن جاز لي أن أسأل؟»

أجاب: «نيو أورلينز؛ قريبة للغاية، على أي حال، من تلك الأرجاء.» ثم أضاف: «ولكني أُرسِلتُ إلى هنا عندما كنتُ في العاشرة من عمري، لأتعلم وأتربَّى، وأنا هنا منذ ذلك الحين.»

فتجرَّأت على سؤاله: «لكن ... أنت اسكتلندي، أليس كذلك؟»

أجاب ضاحكًا: «بلى، من ناحية الأب والأم، مع أنني وُلدت خارج اسكتلندا.» ثم نهض من على كرسيه. وتابع: «كل هذا مُثير للاهتمام للغاية.» ثم أضاف: «لكنني رجل مُتزوج، وسترغب زوجتي في أن أتناول العشاء. والآن، هل ستُحضِر السيد ليندسي لمُقابلتي في الصباح، إن أتى؟»

أجبته: «سيأتي، وسأحضره.» ثم أضفت: «وسيسعد بمُقابلتك أيضًا؛ لأنه ربما يُوجَد، يا سيد سميتون، إلى الآن ما يمكن تتبُّعه من قطعة ورق الرسائل الخاصة بك.»

قال موافقًا: «ربما.» وتابع: «وإذا كانت تُوجَد أي مساعدة يُمكنني تقديمها، فهي تحت تصرفك. لكنك ستجد نفسك في نفقٍ مظلم، مع بعض الانعطافات الغريبة فيه، قبل أن تصل إلى النتيجة الواضحة لكل هذه المسألة!»

نزلنا إلى الشارع معًا، وبعد أن سألني عما إذا كان يُوجَد أي شيء يُمكنه القيام به من أجلي في تلك الليلة، وأكدت له أنه لا يُوجَد أي شيء، افترقنا بعدما اتفقنا على أن نزوره أنا والسيد ليندسي في مكتبه في وقتٍ مُبكر من صباح اليوم التالي. وبعدما تركني، بحثت عن مكانٍ يمكنني فيه تناول عشاءٍ خفيف، وبعدما انتهيت من ذلك، تسكَّعت في المدينة حتى حان وقت وصول القطار من الجنوب. وكنت واقفًا على الرصيف عندما وصل، وعلى متنه والدتي ومايسي والسيد ليندسي، ولاحظت على الفور أنهم كانوا جميعًا مُفعمين بالشعور بمفاجأةٍ تامة ولا حدَّ لها. أمسكت بي والدتي على الفور.

صاحت: «هيو!» وتابعت: «ماذا تفعل هنا، وماذا يعني كل هذا؟ لقد أصبتني برُعبٍ هائل! ما معنى ذلك؟»

اعترتني دهشة بالغة؛ إذ كنتُ متأكدًا من أن كارستيرز سيعود إلى البلدة ويُخبرهم أنني تعرَّضت لحادثِ غرق، لدرجةِ أن كلَّ ما أمكنني فعله هو التحديق في وجوههم. أما مايسي فقد نظرت نحوي بدهشة؛ وأما السيد ليندسي، فقد نظر نحوي متفحصًا مثلما كانت والدتي تفعل.

وقال: «عجبًا! ما معنى ذلك، أيها الشاب؟ لقد فعلنا ما طلبته وأكثر، ولكن لماذا؟»

عندئذٍ استجمعتُ قُدرتي على الكلام.

وصحت: «عجبًا!» وتابعت: «ألم تقابل السير جيلبرت كارستيرز؟ ألم تسمع منه أن ...»

قاطعني قائلًا: «نحن لا نعرف شيئًا عن السير جيلبرت كارستيرز.» وتابع: «الحقيقة، يا ولدي، أنه حتى وصول برقيتك بعد ظهر هذا اليوم، لم يعرف أحد شيئًا عنك أنت والسير جيلبرت كارستيرز منذ أبحرتُما في يخته أمس. لم يَعُد هو ولا اليخت إلى بيرويك. أين ذهبا؟»

الفصل الثاني والعشرون

قرأت نعيي

حينئذٍ جاء دوري لأُحدِّق مرةً أخرى؛ وقد حدَّقتُ بالفعل، مُنتقلًا بناظريَّ من واحدٍ إلى الآخر في صمت، ومن فرط الدهشة لم أجِد ما أقوله. وقبل أن أستعيد قُدرتي على الكلام مرة أخرى، تحدثت والدتي، التي كانت دائمًا قوية الملاحظة للغاية.

سألَت في حدة: «ماذا تفعل في تلك البدلة الجديدة؟» وتابعت: «وأين ملابسك الجيدة التي غادرتَ وأنت ترتديها بعد ظهر الأمس؟ أشكُّ في أن هذه الوظيفة الجديدة تقودك إلى بعض الطرق الغريبة!»

أجبت: «ملابسي الجيدة، يا أمي، في مكانٍ ما في بحر الشمال.» وتابعت: «بالأعلى أو بالأسفل، غارقة أو طافية، ستجدينها هناك، لو كنتِ مُهتمةً بها أكثر منِّي! هل تقولين إن كارستيرز لم يَعُد إلى المدينة أبدًا؟» تابعت مُلتفتًا إلى السيد ليندسي، «إذن أنا لا أعرف أين هو، ولا أين يَخته أيضًا. كلُّ ما أعرفه أنه تركني لأغرق الليلة الماضية، على بُعد عشرين ميلًا من اليابسة، وأنني نجوتُ بفضل العناية الإلهية فحسب. وأينما كان، فإن ذلك الرجل قاتل؛ لقد حسمتُ ذلك الأمر يا سيد ليندسي!»

بدأت المرأتان ترتجِفان وتصرخان عند سماع هذا الخبر، وتطرحان سؤالًا تلوَ الآخر، وهزَّ السيد ليندسي رأسه في توتُّر.

وقال: «لا يُمكننا أن نقِف ونتبادل الحديث عن شئوننا في المحطة طوال الليل.» وتابع: «دعنا نذهب إلى فندق يا ولدي؛ فنحن لم نتناول عشاءنا بعد. أنت لا تبدو في حالةٍ معنوية سيئة للغاية.»

أجبتُ مُبتسمًا: «أنا على ما يُرام، يا سيد ليندسي.» وتابعت: «لقد كنتُ في عزلةٍ عانَيتُ فيها من صعابٍ وشدائد، هذا صحيح، وممَّا هو أسوأ من ذلك، لكنني صادفتُ سامريًّا صالحًا أو اثنَين. وقد بحثتُ عن فندقٍ نظيف ومُريح من أجلكم، وسنذهب إلى هناك الآن.»

اصطحبتُهم إلى فندقٍ جيدٍ كنتُ قد لاحظته أثناء تَجوالي، وبينما كانوا يتناولون عشاءهم جلستُ معهم وأخبرتهم بمُغامرتي كاملة، وصاحَبَ ذلك العديد من صيحات الذهول من أُمي ومايسي. لكن السيد ليندسي لم يفعل ذلك، ولاحظتُ سريعًا أن أكثرَ ما كان يُثير اهتمامه هو أنني ذهبتُ للقاء السيد جافين سميتون.

سألتني والدتي، التي كانت تفكِّر في المصاريف التي كنتُ أجعلها تتَكَلَّفها: «ولكن لماذا لم تَعُد إلى المنزل مباشرةً عندما وصلتَ للشاطئ بأمانٍ مرةً أخرى؟» وتابعَت: «ما سبب جلبِنا جميعًا بهذه الطريقة وأنت على قيد الحياة وبصحةٍ جيدة؟»

نظرتُ إلى السيد ليندسي — بفطنة، حسبما أفترض.

وأجبتُها: «لأنَّني، يا أُمي، أعتقدتُ أن كارستيرز ذاك سيعود إلى بيرويك ويقول إنه قد وقع حادث مؤسف، وأنني قد لقيتُ مصرعي غرقًا، وأردتُ أن أدعه يستمرُّ في الظن أنني مَيت؛ ولذا قررتُ الابتعاد. وإذا كان هو لا يزال على قيد الحياة، فإن أفضل شيءٍ هو أن أدَعَه يستمر في الظن أنني قد غرقت، كما سأُثبت للسيد ليندسي. من رأيي أنه إذا كان كارستيرز على قيد الحياة، فإن المسلك الصحيح الذي ينبغي أن أسلُكه هو أن أبتعِد عن ناظرَيه وعن منطقتنا.»

قال السيد ليندسي، الذي كان سريعًا في استيعاب الأمور: «أجل!» «تلك وجهة نظر جيدة، يا هيو.»

قالت أمي: «حسنًا، كل هذا يفوق إدراكي، وكل هذا حدث بسبب تأجيري غرفةً في المنزل لجيلفرثويت! لكن سنذهب أنا ومايسي إلى سريرينا، وربما ستستنتج أنت والسيد ليندسي المزيد عن الموضوع أكثرَ مما أستطيع، وسأُصبح سعيدة عندما ينجلي كلُّ هذا الغموض ونُصبح قادرين على العيش كما ينبغي للأشخاص الصالِحين، دون كل هذا التنقُّل في أنحاء البلاد وإنفاق الكثير من النقود.»

ومع ذلك تمكَّنتُ من الحصول على بضع دقائق مع مايسي، قبل أن تنسحب هي ووالدتي، واكتشفت عندئذٍ، وليتني عرفتُ ذلك، أنني لم أكن بحاجةٍ إلى كل ذلك القلق والاضطراب. وذلك لأنهم لم يعطوا أهميةً خاصة لحقيقة أنني لم أعُد في الليلة السابقة؛ إذ تصوَّروا أن السير جيلبرت قد أبحر بيخته إلى مكانٍ آخر، وأنني سأحضُر لاحقًا، وأنه

لم يكن يُوجَد ما يدعو للقلق الشديد بشأني حتى وصلتْ برقيتي، وعندها بالطبع، ساد الذعر والقلق، ولم يكن بوسعهم سوى أن يُهرعوا للحاق بالقطار التالي المُتَّجه شمالًا. لكن السيد ليندسي كان قد تمكَّن من اكتشاف أنه لا يُوجَد أي أثر للسير جيلبرت كارستيرز ويخته في بيرويك؛ وعند تلك النقطة، استدرْنا أنا وهو على الفور بعدما ذهبت المرأتان إلى الفِراش، وذهبتُ معه إلى غرفة التدخين بينما كان يحمل غليونه وبعض الويسكي. بحلول ذلك الوقت كنتُ قد أخبرته بالسرِّ المُتعلق باللقاء عند مُفترق الطرق، وبمُقابلتي مع كرون في متجره، وبالسير جيلبرت كارستيرز في هاثركلو، عندما عرض عليَّ وظيفة مدير أعماله؛ وشعرتُ بارتياحٍ كبير عندما عاتبني السيد ليندسي برفقٍ ولم يقُل أكثرَ من أنني لو كنتُ قد أخبرته بهذه الأمور، في البداية، لربما كان قد حدث اختلاف كبير.

لكنه استدل قائلًا: «لكننا في بداية شيءٍ ما.» وتابع: «أنا مُقتنع الآن بأن للسير جيلبرت كارستيرز علاقةً ما بجرائم القتل هذه، لكني لستُ متأكدًا بعدُ من ماهية تلك العلاقة. ما أنا مُتأكد منه هو أنه شعر بالرُّعب صباح أمس في المحكمة، عندما قدَّمتُ فأس الثلج وسألت الطبيب تلك الأسئلة عنها.»

قلت: «وأنا مُتأكد من ذلك أيضًا يا سيد ليندسي.» وتابعت: «كما أنني كنتُ أتساءل عما أخافه بشأن فأس الثلج. أنت تعرف ذلك بالطبع، أليس كذلك؟»

أجاب: «بلى، لكنَّني لن أُخبرك!» وتابع: «عليك أن تنتظر التطوُّرات فيما يتعلَّق بتلك النقطة، يا رجل. والآن سنأوي إلى الفراش، وفي الصباح سنُقابل السيد جافين سميتون هذا. سيكون غريبًا أن نحصل على دليلٍ ما عن كل هذا من خلاله، أليس كذلك؟ لكنَّني مُهتم جدًّا بمعلومة أنه جاء من الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، يا هيو؛ لأنني كنتُ قد كوَّنتُ وجهة نظرٍ مفادها أن سرَّ الأمر كله سيُعثَر عليه هناك.»

كانوا قد أحضروا لي مئونة من الملابس والمال معهم، وكان أول شيء فعلته في الصباح هو أنني ذهبتُ إلى المرفأ وعثرت على قبطاني الصالح، وأعدتُ له الجنيه الذهبي وبدلة صوف السيرج الأزرق، مع خالص شكري ووعدي بإبقائه على اطلاعٍ كامل بتطوُّراتِ ما أسماه بالقضية. ثم عُدت لتناول الإفطار مع بقيتهم، وفي الحال طُرِحَ سؤال حولَ ما يتعيَّن فعْله. كانت والدتي ترغب بشدة في العودة إلى الديار في أسرعِ وقتٍ ممكن، وانتهى الأمر بأن ودَّعناها هي ومايسي وركبتا القطار التالي؛ بعدما جعلهما السيد ليندسي تُقسِمان علنًا على أنهما لن تُفصحا عن كلمةٍ واحدة مما حدث، ولن تكشفا حقيقة أنني

ما زلتُ على قيد الحياة، لأي إنسانٍ سوى أندرو دنلوب، الذي يمكن بالطبع الوثوق به. ووافقت والدتي، على الرغم من أن الطرح لم يكن لطيفًا ولا مناسبًا لها.

وقالت، بينما كنا نُركِبُهما القطار: «أنت تُحمِّلني عبئًا يفوقُ ما يجب أن يُطلَب من أي امرأةٍ أن تتحمَّله يا سيد ليندسي.» وتابعت: «أنت تطلُب منِّي أن أعود إلى المنزل وأن أتصرف كما لو أننا لم نعرِف إن كان الشابُّ حيًّا أم ميتًا. أنا لستُ جيدة في التمثيل، ولستُ متأكدةً على الإطلاق من أنه من الصِّدق أو الأمانة أن أدَّعي أشياء بخلاف الحقيقة. وسأُصبح ممتنةً جدًّا لك إذا أنهيتَ كلَّ هذا، وجعلت هيو يستقر في عمله بالطريقة الصحيحة، بدلًا من الانخراط في أمورٍ لا تعنيه.»

هز كِلانا رأسه استنكارًا بينما كان القطار يُغادر، ومايسي تُلوِّح مُودِّعةً لنا، ووالدتي تجلس عابسةً مُعترضة في ركنها بالمقصورة.

ضحك السيد ليندسي وقال: «أمورٌ لا تعنيك؛ هل سمعت، يا ولدي؟» وتابع: «أجل، لكن والدتك تنسى أنه في قضايا من هذا النوع يتورط الكثير من الناس في أمورٍ لا تعنيهم! الأمر يشبه أن تكون على حافة دوامة، تسحبك إليها قبل أن تُدرك ذلك. والآن سنذهب لمقابلة السيد سميتون هذا، ولكن أولًا، أين مكتب التلغراف في هذه المحطة؟ أريد الاتصال بموراي، لأطلب منه إبقائي على اطلاع بالمستَجَدات أولًا بأول خلال اليوم إذا وردتْ أي أخبارٍ عن اليخت.»

عندما كان السيد ليندسي في مكتب التلغراف، ابتعتُ صحيفة «دندي أدفرتايزر» لذلك الصباح، لملء بعض لحظات الفراغ أكثرَ من أي رغبةٍ مُعينة في الحصول على الأخبار، لأنني لم أكن قارئًا جيدًا للصحف. وما إن فتحتُها حتى رأيتُ اسمي. فوقفت هناك، في وسط محطة السكة الحديد الصاخبة، أستمتع بإحساس قراءة خبر نعيي.

«يقول مُراسلنا في بيرويك أبون تويد، في برقيةٍ في وقتٍ مُتأخِّر من الليلة الماضية: ثمة قلق كبير في البلدة بخصوص مصير السير جيلبرت كارستيرز، بارونيت هاثركلو هاوس، والسيد هيو مونيلوز، اللذَين يُخشى أن يكونا قد تعرَّضا لكارثةٍ في البحر. ظُهر أمس أبحر السير جيلبرت، وبصُحبته السيد مونيلوز، في يخت الأول (سفينة صغيرة خفيفة الوزن)، ووفقًا لبعض الصيادين الذين كانوا على مقربةٍ عند مغادرة اليخت، كان من المُقرَّر أن تستمر الرحلة بضع ساعات فقط. لكن اليخت لم يَعُد الليلة الماضية، ولم يُرَ أو يُسمَع عنه أيُّ خبرٍ منذ مغادرته. وقد أبحرَتْ قوارب صيدٍ مختلفة من بيرويك بعيدًا عن الساحل خلال اليوم، ولكن لم ترِد أخبارٌ عن السيدَين المَفقودَين حتى الآن. ولم يُسمَع أي شيء

عن، أو من، السير جيلبرت في هاثركلو حتى الساعة التاسعة مساءً، ويكمُن بصيص الأمل الوحيد في حقيقة أن والدة السيد مونيلوز قد غادرت المدينة على عجلٍ بعد ظُهر اليوم؛ ربما بعدما تلقَّت بعض الأخبار عن ابنها. ومع ذلك يُعتقَد هنا أن المركب الخفيف قد انقلب في عاصفةٍ مفاجئة، وأن كِلا راكبيه قد لَقِيا حتفهما. كان السير جيلبرت كارستيرز، وهو البارونيت السابع، قد قَدِمَ مؤخرًا إلى المنطقة بعد أن ورِث اللقب والأراضي. أما السيد مونيلوز الذي كان مُتدربًا في مكتب السيد ليندسي المحامي، في بيرويك، فقد كان شابًّا واعدًا للغاية ذا قدراتٍ كبيرة، وقد ظهر مؤخرًا أمام أعين الجمهور كثيرًا بصفته شاهدًا في جرائم القتل الغامضة لجون فيليبس وأبيل كرون، التي لا تزال تجتذِب الكثير من الاهتمام.»

دفعتُ الصحيفة في يد السيد ليندسي عندما خرج من مكتب التلغراف. فقرأ الفقرة في صمت، وهو يبتسِم بينما يقرأ.

وقال في النهاية: «عجبًا! عليك مُغادرة الديار للحصول على أخبار الديار. حسنًا، من المُرحَّب به أن يحسبوا ذلك خلال الوقت الحاضر. لقد أرسلتُ للتوِّ برقيةً إلى موراي مفادُها أنني سأظلُّ هنا على أي حالٍ هذا المساء، وأنه ينبغي أن يُرسِل برقية في الحال إذا وردته أخبار عن ذلك اليخت أو عن كارستيرز. وفي تلك الأثناء، سنذهب لمقابلة السيد سميتون هذا.»

كان السيد سميتون يَنتظرنا؛ وكان هو أيضًا، يقرأ عني في صحيفة «أدفرتايزر» عندما دخلنا، وقد أبدى بعض التعليقات المرحة حول أن الرجال العظماء فقط هم مَن حظوا أحيانًا بنعيِهم قبل وفاتهم. ثم التفت إلى السيد ليندسي، الذي لاحظتُ أنه كان يتفحَّصه عن كثب.

وقال: «لقد كنتُ أفكِّر في الأمور منذ أن جاء السيد مونيلوز هنا الليلة الماضية.» وتابع: «وأخذتُ أقدح زناد فكري، كما ترى، حول بعض النقاط التي لم أفكِّر فيها من قبل. وربما يكون ثمة شيء أكثر مما يظهر للوهلة الأولى بشأن مسألة وجود ورقةٍ تحمل اسمي وعنواني مع ذلك المدعو جون فيليبس.»

سأل السيد ليندسي بهدوء: «حقًّا؟» وتابع: «كيف ذلك؟»

أجاب السيد سميتون: «حسنًا، قد يكون ثمة شيءٌ ما في الأمر، وقد يكون لا شيء، لا شيء على الإطلاق. ولكن الحقيقة هي أن والدي ينحدِر من تويدسايد، ومن مكانٍ ليس ببعيدٍ عن بيرويك.»

الفصل الثالث والعشرون

تاريخ العائلة

كنتُ أراقب السيد ليندسي عن كثب، لرغبتي في ملاحظة انطباعه عن السيد جافين سميتون، ورأيه فيه، ورأيته يُصيخ السمع عند هذا الإعلان؛ إذ بدا واضحًا أنه أوحى بشيء أثار اهتمامه.

حيث صاح: «حقًّا؟» وتابع: «هل انحدر والدُك من بيرويك، أو من تلك الأنحاء؟ ألا تعرف بالضبط من أين، يا سيد سميتون؟»

أجاب سميتون، على الفور: «كلَّا، لا أعرف.» ثم أضاف: «الحقيقة، وقد تبدو غريبة، يا سيد ليندسي، هي أنني أعرف نزرًا يسيرًا عن والدي، وما أعرفه هو في الأغلب من أقوالٍ سمعتها عنه. لا أتذكَّر أنني رأيتُه من قبل. والأمر الأكثر مدعاةً للدهشة، كما ستُلاحظ، هو أنني لا أعرف إن كان حيًّا أم ميتًا!»

كان هذا، بالفعل، أمرًا يكتنِفه الغموض؛ وأخذنا أنا والسيد ليندسي، اللذان كنَّا مُطَّلعَين على تلك القضية إلى حدٍّ كبير مؤخرًا، نتبادل النظرات. ورأى سميتون أحدَنا ينظر إلى الآخر، فابتسم وتابع حديثه.

وقال: «أخذت أفكِّر في كل هذا الليلة الماضية، وخطر على بالي أن أتساءل عما إن كان ذلك الرجل، جون فيليبس، الذي كان يحمل، كما سمعت، اسمي وعنواني في جيبه، ربما كان رجلًا قادمًا لرؤيتي نيابةً عن والدي، أو — إنه أمر من الغريب تصوُّره، وبالنظر إلى ما حدث له، هو أمر مؤسف! — هل يمكن أن يكون هو والدي نفسه؟»

ساد الصمت بيننا لحظة. كان هذا منحًى جديدًا للأمر، وكان يكتنِفه غموض شديد. أما أنا، فبدأت أستجمع الأمور. وفقًا للأدلة التي حصل عليها تشيسهولم من بنك الكتان البريطاني في بيبلز، فإن جون فيليبس جاء بالتأكيد من بنما. ومن المؤكَّد بالمِثل أنه جاء من تويدسايد. وبنفس اليقين، لم يتقدَّم أحد على الإطلاق للمطالبة بميراثه، ولتأكيد صِلة

القرابة به، على الرغم من وجود أوسع دعاية لظروف مَقتله. في حالة جيلفرثويت، ظهرت أخته بسرعة، لتُطالِب بميراثها. وقد ذُكِر اسم فيليبس كثيرًا في الصحف مثل جيلفرثويت؛ ولكن لم يسأل عنه أحد بعد، رغم وجود مبلغٍ نقدي كبير يخصُّه في بنك بيبلز يحقُّ لأقرب أقربائه أن يُطالبوا به. فمن هو، إذن؟

كان واضحًا أن السيد ليندسي كان مُستغرقًا في التفكير، أو ربما ينبغي أن أقول، في التخمين. وبدا أنه توصَّل إلى ما توصَّلتُ إليه؛ إلى سؤال؛ كان، بالطبع، نفس ما اقترحه سميتون بالضبط.

فقال: «قد أجيب على ذلك على نحوٍ أفضل إذا علمتُ بما يمكن أن تُخبرني به عن والدك، يا سيد سميتون.» وأضاف: «وأيضًا ... عن نفسك.»

أجاب سميتون: «سأخبرك بكلِّ ما أستطيع، بكل سرور.» وأضاف: «أصدقك القول، لم أعلِّق مُطلقًا أهميةً كبيرة على هذا الأمر، على الرغم من العثور على اسمي وعنواني مع فيليبس، حتى جاء السيد مونيلوز هنا الليلة الماضية، وبعد ذلك، بعد ما قاله لي، بدأتُ في التفكير بعُمق في الأمر، وقد توصَّلتُ إلى رأيٍّ مفاده أن هذه القضية تحوي أكثرَ بكثيرٍ مما يظهر على السطح.»

قال السيد ليندسي، بفتور: «يمكنك تأكيد ذلك بثقة!» وأضاف: «هذا صحيح!»

تابع سميتون: «حسنًا ... بخصوص والدي.» وأضاف: «كلُّ ما أعرفه هو هذا ... وقد حصلت عليه من أقوالٍ مُرسَلة: اسمه، الاسم الذي أحمله، على أي حال، هو مارتن سميتون. ينحدِر من مكانٍ ما حول بيرويك. وإن كان ذلك على الجانب الإنجليزي أو الجانب الاسكتلندي من نهر تويد، فهذا ما لا أعرفه. لكنه ذهب إلى أمريكا عندما كان شابًّا، مع زوجةٍ شابة، وكانا في نيو أورلينز عندما وُلِدت. وبعدما وُلِدت، ماتت أمي. لذلك لم أرَها أبدًا.»

سأل السيد ليندسي: «هل تعرف اسمها قبل الزواج؟»

أجاب سميتون: «لا أعرف أكثرَ من أن اسم معموديتها كان ماري.» ثم أضاف: «سوف تكتشف أثناء مُتابعتي الحديث أنني بالتأكيد لا أعرف إلا القليل جدًّا عن أي شيء. حسنًا، عندما ماتت والدتي، من الواضح أن والدي غادر نيو أورلينز وشرع في التَّرحال. لقد استنتجتُ أنه كان يرتحل باستمرارٍ طوال الوقت؛ كان رجلًا لا يمكن أن يستقر طويلًا في مكانٍ واحد. لكنه لم يأخذني معه. كان يُوجَد رجل اسكتلندي وزوجته في نيو أورلينز تصادقَ والدي معهما، شخصان يحملان اسم واتسون، وقد تركني معهما، وبقيتُ في

رعايتهما في نيو أورلينز حتى بلغتُ العاشرة من عمري. وعلى ما أذكر، من الواضح أنه دفع لهما مبلغًا جيدًا مقابل الاعتناء بي؛ حيث لم يحدُث مُطلقًا، في أي وقت، أيُّ تقصير في إنفاقهما المالَ عليَّ. وبالطبع، لأني لم أعرف غيرهما، نشأتُ معتبرًا واتسون أبي وزوجته أمي. وعندما كنتُ في العاشرة من عمري، عادا إلى اسكتلندا، هنا في دندي، وأتيت معهما. لديَّ رسالة أو رسالتان كتبهما والدي في ذلك الوقت يُعطي تعليماتٍ بشأنِ ما يجب فعْله معي. كان من المُفترَض أن أحصل على أفضل تعليم، بقدرِ ما أحببتُ وبقدرِ استطاعتي، وعلى الرغم من أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف كلَّ التفاصيل، ولا أعرفها الآن، فمن الواضح أنه زَوَّد واتسون بالكثير من المال من أجلي. جئنا إلى هنا في دندي، والتحقتُ بالمدرسة الثانوية، وظللتُ هناك حتى بلغتُ الثامنة عشرة من عمري، ثم أمضيت عامَين في الكلية الجامعية. الغريب في الأمر أنه طوال ذلك الوقت، على الرغم من أنني كنتُ أعرف أن التحويلات المنتظمة والسخية جاءت من والدي إلى عائلة واتسون من أجلي، إلا أنه لم يُعرِب قطُّ عن أي رغبات، ولم يقدِّم أي اقتراحات، بخصوصِ ما يجب أن أفعله في حياتي. لكنني كنتُ أفضِّل العمل بالتجارة؛ وعندما تركت الكلية، عملتُ بمكتبٍ هنا في المدينة وبدأتُ في دراسة التفاصيل الدقيقة للتجارة الخارجية. بعد ذلك، عندما أصبحتُ في الحادية والعشرين من عمري، أرسل لي والدي مبلغًا كبيرًا من المال — ألفي جنيه، في الواقع — قائلًا إنه من أجلي لكي أبدأ به مشروعًا تجاريًّا. أتعرف، يا سيد ليندسي؟ منذ ذلك اليوم — من عشْر سنوات — حتى هذه اللحظة، لم تصِلني منه أي رسالة.»

كان السيد ليندسي دائمًا رجلًا يقظًا خلال أيِّ مقابلة عمل، لكنني لم أرَه مُطلقًا يستمع إلى أيِّ شخصٍ بإصغاءٍ شديد مثلما كان يستمع إلى السيد سميتون. ووفقًا لطريقته المُعتادة، بدأ على الفور في طرح الأسئلة.

حيث قال: «بشأن الزوجين واتسون.» وتابع: «هل ما زالا على قيد الحياة؟»

أجاب سميتون: «كلَّا.» وأضاف: «لقد تُوفِّيا، قبل بضع سنوات.»

قال السيد ليندسي: «ذلك أمر مؤسِف.» وتابع: «ولكن ألديك ذكريات عما أخبراك به عن والدك من خلال ما كانا يتذكَّرانه عنه؟»

قال سميتون: «لم يكن لديهما الكثير ليقولاه.» ثم أضاف: «لقد تبينتُ أنهما بالفعل لم يكونا يعرفان عنه إلَّا القليل جدًّا، باستثناء أنه كان رجلًا طويل القامة، حسن المظهر، ومن الواضح أنه كان من طبقةٍ راقية وذا تعليمٍ راقٍ. وما كانا يعرفانه عن أُمي كان أقل.»

قال السيد ليندسي: «هل لدَيك رسائل من والدك؟»

أجاب سميتون: «مجرد القليل من القصاصات؛ فلم يكن قطُّ رجلًا يفعل أكثرَ من كتابةِ ما يريد إنجازه، وبإيجازٍ قدرَ الإمكان.» وأضاف ضاحكًا: «في الواقع، يمكن أن تصف رسائله لي بالغريبة. عندما وصلني المال الذي ذكرته للتو، كتب لي ملاحظةً قصيرة للغاية؛ يُمكنني تَكرار كل كلمةٍ منها، كتب: «لقد أرسلت إلى واتسون ألفي جنيه من أجلك. يمكنك أن تبدأ بها مشروعًا، لأنني سمعتُ أنك تميل إلى أن تسلك ذلك الطريق، وفي يومٍ من الأيام سآتي لزيارتك وأرى كيف تُدير أمورك.» هذا كل شيء!»

صاح السيد ليندسي مُتعجبًا: «ولم تصلك أخباره أو رسائله منذ ذلك الحين؟» وأضاف: «هذا شيء غريب. لكن، أين كان حينئذٍ؟ من أين أرسل الأموال؟»

أجاب سميتون: «نيويورك.» ثم أضاف: «الرسائل الأخرى التي تلقَّيتُها منه من أماكنَ في كلٍّ من أمريكا الشمالية والجنوبية. لقد بدا دومًا لي ولعائلة واتسون أنه لم يمكث في أيِّ مكان فترةً طويلة؛ كان دائمًا يتنقَّل.»

قال السيد ليندسي: «أودُّ أن أرى تلك الرسائل، يا سيد سميتون.» وتابع: «خاصة الرسالة الأخيرة.»

أجاب سميتون: «إنها في منزلي.» وأضاف: «سأُحضِرها إلى هنا بعد ظهر اليوم، وأريها لك إذا أتيت. لكن، هل تعتقد أن هذا الرجل فيليبس ربما كان هو والدي؟»

أجاب السيد ليندسي، بتمعُّن: «حسنًا، إنه أمر غريب أن يسحب فيليبس، أيًّا كانت هويته، خمسمائة جنيه نقدًا من بنك الكتان البريطاني في بيبلز، ويحملها معه مباشرةً إلى تويدسايد، التي تعتقد أن والدك ينحدِر منها. يبدو أن فيليبس كان ينوي أن يفعل شيئًا بتلك النقود؛ أن يُعطيها لشخصٍ ما، كما تعلم.»

قال سميتون مُعلِّقًا: «لقد قرأت وصف فيليبس في الصحف.» وتابع: «لكن، بالطبع، لم ينقل لي أيَّ انطباع.»

سأل السيد ليندسي: «ألا يُوجَد لديك صورة لأبيك؟»

أجاب سميتون: «كلَّا، ولا صورة واحدة؛ لم يكن لديَّ قط.» وتابع: «ولا أي أوراق له، باستثناء قصاصات الرسائل تلك.»

جلس السيد ليندسي في صمتٍ بعض الوقت، ينقر بطرف عصاه على الأرض ويُحدِّق في البساط.

وأخيرًا قال: «ليتنا عرفنا ما كان يريده ذلك الرجل جيلفرثويت في بيرويك وفي المقاطعة!»

قال سميتون: «لكن أليس ذلك واضحًا؟» وتابع: «كان يبحث في سجلات الأبرشية. لديَّ رغبة في أن أُجري بحثًا في تلك الأنحاء عن تفاصيل بشأن والدي.»

نظر إليه السيد ليندسي نظرةً حادة.

ثم قال بطريقةٍ ماكرة نوعًا ما: «عجبًا!» وتابع: «ولكن ... أنت لا تعرف ما إذا كان اسم والدك الحقيقي هو سميتون!»

انتفضتُ أنا وسميتون نتيجة لذلك؛ لقد كانت فكرة جديدة. ورأيتُ أنها أحدثت تأثيرًا كبيرًا في سميتون.

أجاب بعد صمت: «هذا صحيح!» وتابع: «لا أعرف! ربما كان كذلك. وفي هذه الحالة، كيف يمكن للمرء أن يكتشفه؟»

نهض السيد ليندسي، وهو يهز رأسه.

وأجاب: «مهمة صعبة!» وتابع: «مهمة شاقة! سيتوجَّب عليك العودة إلى الوراء كثيرًا. لكن يمكن إنجازها. في أي وقتٍ يُمكنني أن أحضُر بعد ظهر اليوم، يا سيد سميتون، لإلقاء نظرة على تلك الرسائل؟»

أجاب سميتون: «في الساعة الثالثة.» ثم رافقنا إلى باب مكتبه، وابتسم لي. وقال: «أنت لست في أسوأ حالٍ مقارنةً بمغامرتك، كما أرى.» وتابع: «حسنًا، ماذا عن هذا الرجل كارستيرز؛ ما أخباره؟»

أجاب السيد ليندسي: «ربما نتمكَّن من إطلاعك على بعضها في وقتٍ لاحق اليوم.» وتابع: «ستأتي أخبار كثيرة عنه، بطريقةٍ أو بأخرى، قبل أن ننتهي من كل هذا.»

ثم نزلنا إلى الشارع، وبناءً على طلب السيد ليندسي اصطحبتُه إلى المرفأ، لمقابلة القبطان الودود، الذي كان سعيدًا للغاية بسرد قصة إنقاذي. وتوقَّفنا على متن سفينته للتحدُّث معه فترةً طويلة من الصباح، وكان الوقت قد تجاوز الظهر عندما عُدنا إلى الفندق لتناول طعام الغداء. وكان أول شيء رأيناه هناك برقية للسيد ليندسي. ففتح الظرف ونحن واقفان في القاعة، ولم أرَ مشكلةً في النظر من فوق كتفه وقراءة الرسالة معه.

«علمت للتو عبر التلغراف من شرطة لارجو أن يختًا صغيرًا أوصافه تطابق أوصاف يخت كارستيرز قد أحضره إلى هناك الصيادون الذين وجدوه في وقتٍ مبكر من هذا الصباح في خليج لارجو، خاليًا.»

نظر أحدنا إلى الآخر. وضحك السيد ليندسي فجأة.

وصاح: «خاليًا!» وتابع: «عجبًا! لكن هذا لا يُثبِت أن الرجل قد مات!»

الفصل الرابع والعشرون

البدلة

لم يُبدِ السيد ليندسي أيَّ ملاحظةٍ أخرى حتى كِدنا ننتهي من غدائنا، وعندما تحدَّث لم يكن كلامه مُوجَّهًا إليَّ، وإنما إلى النادل الذي كان بالقُرب منه.

قال: «أُريدك أن تُحضِر لي ثلاثة أشياء.» وتابع: «فاتورة حسابنا، ودليل السكك الحديدية، وخريطة اسكتلندا. وأحضِر الخريطة أولًا.»

انصرف الرجل، ومال السيد ليندسي عبر الطاولة.

وقال: «تقع لارجو في منطقة فايف.» وتابع: «سنذهب إلى هناك. سأرى ذلك اليخت بأُم عيني، وأسمع بأذني ما سيقوله الرجل الذي وجده. لأنه، كما قلتُ لك منذ قليل، يا ولدي، مجرد حقيقة أن اليخت قد عُثِر عليه فارغًا لا تُثبت أن كارستيرز قد غرق! سندفع الفاتورة هنا، ثم نذهب لمقابلة سميتون لإلقاء نظرةٍ على تلك الرسائل، ثم سنستقلُّ القطار إلى لارجو ونُجري بعض التحريات.»

كان السيد سميتون قد فرد الرسائل على مكتبه عندما ذهبنا إليه، وأخذ السيد ليندسي يُلقي نظرة عليها. لم يكن يُوجَد أكثر من ستِّ رسائل إجمالًا، وكانت مجرد قصاصات، كما قال؛ غالبًا بضعة أسطر على أنصاف أوراق. لم يبدُ على السيد ليندسي أنه قد اهتمَّ كثيرًا بأيٍّ منها عدا الرسالة الأخيرة؛ التي كان سميتون قد أخبرنا بمحتواها في الصباح. حيث انحنى عليها لبعض الوقت، وتفحَّصها عن كثب، في صمت.

ثم قال في النهاية: «أتمنَّى أن تُعيرني هذه لمدة يومٍ أو يومَين.» وأضاف: «سأُوليها أقصى عناية؛ ستظلُّ في حوزتي شخصيًّا، وسأُعيدها بالبريد المُسجَّل. الحقيقة هي، يا سيد سميتون، أنني أريد مقارنة تلك الكتابة بكتابةٍ أُخرى.»

وافق سميتون، وسلَّمه الرسالة قائلًا: «بالتأكيد.» وأضاف: «سأفعل كلَّ ما بوسعي للمساعدة. لقد بدأت، كما تعلم، يا سيد ليندسي، أخشى من أن أكون مُتورطًا في هذا الأمر. هل ستُبقيني على اطِّلاع بالمُستجدات؟»

أجاب السيد ليندسي، وهو يُخرِج البرقية: «يُمكنني أن أعطيك بعض المعلومات الآن.» وتابع: «ثمة المزيد من الغموض، أترى؟ وأنا ومونيلوز سنُغادر إلى لارجو الآن؛ سنمضي إلى هناك في طريقنا إلى بلدتنا. فمن خلال بعض التحريات، سأعرف ما حدث للسير جيلبرت كارستيرز!»

بعد قليل تركنا السيد جافين سميتون، بعدما وعدناه بإبقائه على اطلاع بالمُستجدات أولًا بأول، ووعدَنا من جانبه بأنه سيأتي إلى بيرويك، إذا بدا ذلك ضروريًّا؛ ثم انطلقنا في رحلتنا. لم يكن الوصول سريعًا إلى لارجو عملًا سهلًا، وكان الوقت قد شارف على المساء عندما بلغناها، ووجدنا مسئول الشرطة الذي كان قد أرسل برقيةً إلى بيرويك. لم يكن بوسعه أن يُخبرنا بالكثير، بناءً على معلوماته. قال إن اليخت كان يرسو الآن في المرفأ في لُوَر لارجو، حيث كان صيادٌ يُدعى أندرو روبرتسون قد أحضره، وعرض علينا اصطحابنا إليه. وجدناه في حانةٍ صغيرة، بالقُرب من المرفأ، وكان رجلًا قليل الكلام، مُتجهِّم الوجه إلى حدٍّ ما ولم يُبدِ رغبةً كبيرة في الحديث، وربما كان سيقدِّم لنا معلوماتٍ ضئيلة لو لم يرافقنا مسئول الشرطة، ومع ذلك انفرجت أساريره عندما ألمح السيد ليندسي إلى إمكانية منحه مكافأة.

سأله السيد ليندسي: «متى عثرتَ على هذا اليخت؟»

أجاب روبرتسون: «بين الساعة الثامنة والتاسعة من صباح اليوم.»

«وأين عثرتَ عليه؟»

«على بُعد نحو سبعةِ أميال، خارج الخليج قليلًا.»

سأل السيد ليندسي، وهو ينظُر باهتمامٍ إلى الرجل: «هل كان خاليًا؟» وتابع: «ألم يكن على متنه أيُّ أحد؟»

أجاب روبرتسون: «لم يكن على متنه أحدٌ مطلقًا!» وأضاف: «لا حيًّا ولا ميتًا!»

سأل السيد ليندسي: «هل كانت أشرعتُه مفرودة؟»

أجاب الرجل: «لم تكن كذلك. كان ينجرف فحسب، هنا وهناك.» ثم أضاف: «فربطتُه بحبلٍ وقطرته إلى هنا.»

سأل السيد ليندسي: «هل كان بالقُرب أيُّ قاربٍ آخر غير قاربك في ذلك الوقت؟»

قال روبرتسون: «ولا على بُعد بضعة أميال.»

ثم ذهبنا إلى اليخت. كان قد قُطِر إلى ركنٍ هادئ من المرفأ، وأكَّد لنا رجلٌ عجوز يحرسه أنه لم يصعد أحد على متنه باستثناء الشرطة منذ أحضره روبرتسون. صعدنا، بالطبع، على متنه، وقال السيد ليندسي، بعد أن تأكَّد منِّي، إن هذا هو بالفعل يخت السير جيلبرت كارستيرز، إنه غير واثق من أننا سنجني الكثير من النفع من فعْل ذلك. لكنني سرعان ما توصَّلت إلى اكتشافٍ ذي أهميةٍ كبيرة وفريدة. فعلى الرغم من صغر حجمه، كان اليخت يحتوي على مقصورة؛ صحيح أن ارتفاعها لم يكن كبيرًا، ولم يكن باستطاعة رجلٍ طويل أن يقف فيها منتصبًا، لكنها كانت فسيحةً مقارنةً بمركبٍ بذلك الحجم، وكان بها الكثير من الأرفف والدواليب. وفي هذه الدواليب كانت تُوجَد ملابس، بدلة نورفولك من صوف التويد الرمادي، كان السير جيلبرت كارستيرز يرتديها عندما انطلق معي من بيرويك.

أطلقت صيحةً عاليةً عندما رأيتُ ذلك، فالتفت الثلاثة الآخرون وحدَّقوا فيَّ.

قلت: «يا سيد ليندسي! انظر هنا! تلك هي الملابس التي كان يرتديها عندما رأيته آخر مرة. وها هو ذا القميص الذي كان يرتديه، أيضًا، والحذاء. أينما يكون، وأيًّا كان ما حدث له، فقد بدَّل كامل ملابسه قبل أن يترك اليخت! تلك حقيقة واضحة، يا سيد ليندسي!»

لقد كانت حقيقةً بالفعل؛ حقيقة جعلتني أفكِّر، أيًّا كان أثرها على الآخرين. فقد نفت، على سبيل المثال، أيَّ فكرةٍ أو نظرية عن الانتحار. لا يُغيِّر الرجل ملابسه لو كان سينتحِر غرقًا. وبدا أن هذا كان جزءًا من خطةٍ مُدبَّرة: على أقل تقدير، كان شيئًا غريبًا.

سأل السيد ليندسي، وهو ينظر إلى الأشياء المُلقاة جانبًا: «هل أنت مُتأكد من ذلك؟»

قلت: «مُتأكِّد تمامًا.» وأضفت: «لا يمكن أن أكون مخطئًا.»

سأل: «إذن هل أحضَر معه حقيبةَ سفرٍ أو أي شيءٍ على متن اليخت؟»

أوضحت، بينما شرعتُ في رفع أغطية الدواليب: «لم يفعل، لكن كان بإمكانه الاحتفاظ بالملابس وما شابه ذلك في هذه الدواليب.» وتابعت: «انظر هنا! ها هي ذي فرشٌ وأمشاطٌ وما شابه. أؤكد لك أنه، قبل أن يُغادر هذا اليخت، أو يسقط منه، أو أيًّا كان ما حدث له، غيَّر كلَّ ملابسه من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيه؛ ها هي ذي القبَّعة التي كان يضعها على رأسه.»

أخذوا جميعًا يتبادلون النظرات، وأخيرًا ثبتت نظرة السيد ليندسي على أندرو روبرتسون.

وسأله: «أفترض أنك لا تعرف أيَّ شيء عن هذا، يا صديقي، أليس كذلك؟»

أجاب روبرتسون، بقليلٍ من الفظاظة: «ماذا عساي أن أعرف؟» وتابع: «اليخت كما وجدته تمامًا؛ لم يُمَس أيُّ شيءٍ فيه.»

كانت سلة الغداء موضوعةً على طاولة الكابينة، تمامًا كما رأيتها آخر مرة، عدا أنه كان واضحًا أن كارستيرز كان قد تناول كلَّ ما تركناه أنا وهو فيها من طعام. وأظن أن نفس الفكرة خطرت لي وللسيد ليندسي في نفس اللحظة؛ كم من الوقت ظلَّ على متن ذلك اليخت بعد تخليه بقسوة عني؟ كانت قد مرَّت ثمانٍ وأربعون ساعة منذ تلك الحادثة، وفي غضون تلك المدة يمكن لأي رجلٍ أن يفعل الكثير في سبيل إخفاء أثره، وهو ما بدا لي الآن أنه بالضبط ما فعله السير جيلبرت كارستيرز، على الرغم من أنه كان من الصعب على أيٍّ منَّا التكهن بالطريقة تحديدًا، وبالسبب بالضبط.

سأل السيد ليندسي، طارحًا سؤاله على الرجُلين: «أفترض أن أحدًا لم يسمع بأيِّ شيءٍ عن أن هذا اليخت قد شُوهِد وهو ينجرف بالأمس أو خلال الليلة الماضية، أليس كذلك؟» وتابع: «هل تحدَّث أحد عن ذلك في هذه الأنحاء؟»

لكن لم تكن الشرطة ولا أندرو روبرتسون قد سمعوا أيَّ تهامُس من هذا النوع، ومن الواضح أنه لم يكن يمكن معرفة أيِّ شيءٍ منهم أكثر مما كنَّا قد حصلنا عليه بالفعل. كما لم تسمع الشرطة عن أيِّ شخصٍ غريب شوهد هناك، على الرغم من أنه، كما قال الرجل الذي كان معنا، لم يكن يُوجَد احتمالٌ كبير في أن يُلاحَظ أيُّ شخصٍ غريب؛ لأن لارجو كانت في الوقت الحاضر منتجعًا شاطئيًّا شهيرًا نوعًا ما، وكان يُوجَد الكثير من الغرباء على الشاطئ؛ إذ كان ذلك في فصل الصيف، ووقت إجازة، بحيث كان يسهُل إلى حدٍّ ما مرور رجلٍ غريب دون أن يُلاحظه أحد.

سأل السيد ليندسي: «بافتراض أن رجلًا هبط على الساحل، هنا — أنا فقط أفترض معك حالة — ولم يذهب إلى المدينة، وإنما سار بحذاء الشاطئ، أين سيجد أقرب محطة سكك حديدية؟»

أجاب مسئول الشرطة بأنه تُوجَد محطات للسكك الحديدية على يمين ويسار الخليج؛ ويمكن للمرء بسهولة أن يتوجَّه إلى إدنبره في اتجاه، وإلى سانت أندروز في الاتجاه الآخر؛ وبعد ذلك، بنبرةٍ غير مُصطنعة، أراد أن يعرف ما إذا كان السيد ليندسي يقترح أن السير جيلبرت كارستيرز قد أبحر بيخته إلى الشاطئ، وتركه، وانجرف اليخت إلى البحر مرةً أخرى؟

أجاب السيد ليندسي: «أنا لا أقترح أي شيء.» وتابع: «أنا أُخمِّن الاحتمالات فقط. وذلك عمل خامل مثل الوقوف هنا للحديث. ما سيكون عمليًّا هو الترتيب للتحفُّظ على هذا اليخت في مرآبٍ للقوارب، ومن الأفضل أن نتأكد من إتمام ذلك في الحال.»

أجرينا الترتيبات مع صاحب مرآبٍ للقوارب لقطر اليخت إلى هناك، وإبقائه تحت التحفظ، وبعد تسوية الأمور مع الشرطة لمراقبته، والتأكُّد من أن محتوياته لن تُمَسَّ حتى تصلهم تعليمات أخرى من بيرويك، انطلقنا لمواصلة رحلتنا. لكننا كنا قد قضينا وقتًا طويلًا جدًّا في لارجو حتى إنه عندما وصلنا إلى إدنبرة، كان آخرُ قطارٍ مُتجهٍ إلى بيرويك قد غادر، واضطررنا إلى تمضية الليلة في فندق. بطبيعة الحال، كان كل حديثنا عما حدث للتو؛ حيث قال السيد ليندسي إن أحداث اليومَين الماضيين لم تزد هذه الألغاز إلا عُمقًا عما كانت عليه من قبل، وكان التساؤل حول السبب وراء ترك السير جيلبرت كارستيرز ليخته، كما فعل بلا شك، يُمثِّل إضافة أخرى إلى المشكلة المُتنامِية.

وعلَّق قائلًا، بينما كنَّا نناقِش الأمور من كل وجهةِ نظرٍ يمكن تخيُّلها قبل الذهاب إلى الفراش مباشرةً: «ولستُ متأكدًا، يا ولدي، من أنني أُصدِّق رواية ذلك الرجل روبرتسون.» ثم أضاف: «ربما يكون قد أحضر اليخت، لكنَّا لسنا مُتأكدين من أنه لم يُحضر كارستيرز على متنه. وما السبب في تغيير الملابس؟ ربما لأنه كان يعلم أنه سيوصَف بأنه كان يرتدي ملابس مُعينة، وأراد أن يأتي إلى الشاطئ مُرتديًا ملابس مُختلفة. كلُّ ما نعرفه، أنه جاء سالمًا إلى الشاطئ، واستقلَّ قطارًا من محطةٍ قريبة، أو في لارجو نفسها — ولم لا؟ — وانطلق مُغادرًا، على الأرجح إلى هنا، إلى إدنبرة، حيث سيختلط ببضعة آلاف من الناس، دون أن يُلاحظه أحد.»

فسألت: «إذن، في تلك الحالة، ماذا تظنُّ أنه فعل، يا سيد ليندسي؟» وتابعت: «هل تقصد أنه يهرب؟»

أجاب: «بيني وبينك، ذلك ليس بعيدًا عما أظنُّه بالفعل.» وأضاف: «وأظن أنني أعرف أيضًا ما الذي يهرب منه! لكننا سنسمع المزيد من الأخبار خلال الساعات القليلة القادمة، ما لم أكن مخطئًا.»

وصلْنا إلى بيرويك في ساعةٍ مبكرة من صباح اليوم التالي، وتوجَّهنا مباشرةً إلى قسم الشرطة وإلى مكتب رئيس الشرطة. كان تشيسهولم مع السيد موراي عندما دخلنا، والتفت كِلا الرَّجُلين إلينا بحماس.

صاح موراي: «إليك المزيد من الغموض حول هذه القضية، يا سيد ليندسي!» وتابع: «وهو يكفي لجعل عقل المرء يذهل. لا تُوجَد أخبار عن السير جيلبرت، وقد اختفت الليدي كارستيرز منذ الساعة الثانية عشرة من ظهر أمس!»

الفصل الخامس والعشرون

الاختفاء الثاني

كان السيد ليندسي يتَّسِم دائمًا برباطة الجأش البالِغة عند تلقِّي أخبارٍ ذات طبيعة مذهلة، وحينئذٍ، بدلًا من أن يندفع مُبديًا تعجُّبه، أومأ برأسه فحسب، وتهاوى على أقرب كرسي.

وقال بهدوء: «حقًّا؟» ثم تابع: «إذن فقد اختفت سيادتها أيضًا، أليس كذلك؟ ومتى سمعتَ بذلك؟»

أجاب موراي: «قبل نصف ساعة.» وتابع: «لقد جاء كبير الخدَم في هاثركلو هاوس إلى هنا — وقد هُرع على عجلٍ — ليُخبرنا. ماذا تستنتج من كل ذلك؟»

أجاب السيد ليندسي: «قبل أن أجيب على ذلك، أريد أن أعرف ما كان يحدُث هنا أثناء غيابي.» ثم أضاف: «ماذا حدث داخل مقاطعتك؛ أعني، رسميًّا؟»

أجاب موراي: «لم يحدُث الكثير.» ثم أضاف: «بدأ يُتداول حديث في المساء قبل الماضي، بين الصيادين، عن يخت السير جيلبرت. لقد شوهد، بالطبع، يُبحر مع مونيلوز، منذ يومَين، عند الظهر. وها هو ذا مونيلوز! ألا يعرف أيَّ شيء؟ أين السير جيلبرت، يا مونيلوز؟»

قال السيد ليندسي وهو يلقي نظرةً سريعة نحوي: «سيُخبرك بكل ذلك، عندما أطلب منه أن يفعل.» وتابع: «استمرَّ في قصتك، أولًا.»

هزَّ رئيس الشرطة رأسه، كما لو أن كل هذه الأحداث كانت تفوق استيعابه.

وتابع: «أوه، حسنا!» ثم أضاف: «أقول لك إنه كان ثمَّة حديث، أنت تعرف كيف يثرثرون على الشاطئ هناك. قيل إن اليخت لم يَعُد أبدًا، وعلى الرغم من أن عديدين منهم قد خرجوا للإبحار، لم تقع أعينهم عليه مُطلقًا، وسرعان ما بدأتِ الشائعات تنتشر حوله. لذلك أرسلت تشيسهولم إلى هاثركلو لإجراء بعض التحريات»، وتابع مُلتفتًا إلى الرقيب، «أخبِر السيد ليندسي بما سمعته.» وأضاف: «ليس كثيرًا، على ما أظن.»

أجاب تشيسهولم: «لا شيء تقريبًا.» وتابع: «قابلتُ الليدي كارستيرز. فضحكَت مما قلت. وقالت إنه من المُستبعَد أن يحيق أذًى بالسير جيلبرت؛ فقد كان يبحر باليخوت، الكبيرة منها والصغيرة، لسنواتٍ عديدة، ولا شك في أنه ذهب هذه المرة أبعد مما كان ينوي في البداية. فأوضحتُ أنه قد اصطحب معه السيد مونيلوز، وأنه كان من المُقرَّر أن يذهب إلى عمله في وقتٍ مبكر من ذلك الصباح. فضحكت مرةً أخرى على ذلك، وقالت إنها لا تشكُّ في أن السير جيلبرت والسيد مونيلوز قد سَوَّيا تلك المسألة بينهما، وإذ لم تكن تشعُر بالقلق، كانت متأكدة من أن الناس في بيرويك ليسوا بحاجةٍ للقلق أيضًا. ومن ثَمَّ عُدت إلى هنا.»

قال موراي: «ولم نسمع المزيد حتى وصلتنا برقيتك بالأمس من دندي، يا سيد ليندسي؛ وتبِعَتْها بعد ذلك بوقتٍ قصير برقية من شرطة لارجو، وهي التي أبلغتُك بها.»

سأل السيد ليندسي، بقليلٍ من التعجُّل، كما لو أن شيئًا ما قد طرأ على ذهنه للتو: «الآن، ثمة سؤال مُهم.» وتابع: «هل نَقلْتَ الأخبار الواردة من لارجو إلى هاثركلو؟»

أجاب موراي: «فعلنا ذلك، على الفور.» وتابع: «اتصلتُ فورًا بالليدي كارستيرز، وتحدثتُ معها عبر الهاتف بنفسي، وأخبرتُها بما أفادت به شرطة لارجو.»

سأل السيد ليندسي، بحدة: «متى اتصلتَ بها؟»

أجاب موراي: «في الحادية عشرة والنصف.»

قال السيد ليندسي: «ثم، وفقًا لما قُلتَه لي، غادرَتْ هاثركلو بُعَيدَ اتصالك بها؟»

أجاب موراي: «وفقًا لما أخبرَنا به كبير الخدم هذا الصباح، خرجَت السيدة كارستيرز على درَّاجتها ظهر أمس بالضبط، ولم يرَها أحد أو ترِد عنها أيُّ أخبار منذ ذلك الحين.»

سأل السيد ليندسي: «ألم تترك أيَّ رسالةٍ في القصر؟»

أضاف رئيس الشرطة، بطريقةٍ ذاتِ مغزًى: «لا شيء! ولم تذكر لكبير الخدم أنني كنتُ قد اتصلتُ بها للتو. هذا تصرُّف غريب، حسبما أظن، يا سيد ليندسي. ولكن، ما الأخبار التي لديك؟ وماذا لدى مونيلوز من معلوماتٍ عن السير جيلبرت؟»

لم ينتبه السيد ليندسي للسؤال الأخير. إذ جلس في صمتٍ لبعض الوقت، ومن الواضح أنه كان يفكِّر. وفي النهاية أشار إلى بعض نماذج البرقيات الموضوعة على مكتب رئيس الشرطة.

وقال: «ثمَّة شيء واحد يجب فعْله في الحال، يا موراي؛ وسأتحمَّل مسئولية فعْله بنفسي. يجب أن نتواصَل مع محامِي عائلة كارستيرز.»

قال موراي: «كنتُ سأفعل ذلك، بمجرد أن جلب لي كبير الخدم أخبار الليدي كارستيرز، لكنني لا أعرف مَن هم.»

أجاب السيد ليندسي: «أنا أعرف!» وتابع، وهو يناولني نموذج برقية: «هولمشو وبورتلثورب من نيوكاسل. خُذ.» وأضاف: «اكتب هذه الرسالة: «السير جيلبرت والليدي كارستيرز مفقودان من هاثركلو في ظلِّ ظروفٍ غريبة ويُرجى إرسال شخصٍ مفوَّض إلى هنا في الحال.» وقِّع عليها باسمي، يا هيو، وخُذها إلى مكتب البريد، ثم عُد إلى هنا.»

عندما عُدت، كان من الواضح أن السيد ليندسي قد أخبر موراي وتشيسهولم بكل شيءٍ عن مغامراتي مع السير جيلبرت، وكان الرجلان ينظران نحوي باهتمامٍ جديد كما لو أنني صرتُ فجأة شخصًا في غاية الأهمية. ولامَني رئيس الشرطة في الحال على كِتماني لِما رأيت.

وقال بتوبيخ: «لقد ارتكبتَ خطأً فادحًا، أيها الشاب، بكِتمانك لِما كان يجب أن تُدلي به في التحقيق في قضية فيليبس!» وتابع: «حقًّا، كان يجب أن تُفصح عن ذلك من قبل؛ كان لا بدَّ أن تُخبرنا.»

قال تشيسهولم: «أجل! لو كنتُ علمتُ بكل ذلك القدْر من المعلومات، لاتَّخذتُ ...»

قاطعه السيد ليندسي: «كنتَ على الأرجح ستفعل ما فعله بالضبط! كنتَ ستُمسك لسانك حتى تعرف المزيد! لذا تجاوز ذلك الأمر؛ فقد فعل الفتى ما ظنَّ أنه كان سيؤدي إلى أفضل نتيجة. لم يشك أيٌّ منكما في أن للسير جيلبرت أيَّ صلةٍ بتلك القضايا؛ لذا توقَّفا، الآن!»

قال موراي، الذي بدا مُرتبكًا إلى حدٍّ ما من هذا المقطع الأخير: «عجبًا، فيما يتعلَّق بذلك يا سيد ليندسي، أنت نفسك لم تشكَّ فيه؛ أو، إذا كنتَ قد فعلت، فقد التزمتَ الصمت بغرابة!»

سأل تشيسهولم، بقليل من الخُبث: «هل يشك السيد ليندسي به الآن؟» وأضاف: «لأنه إن كان يفعل، فربما سيمدُّ لنا يدَ العون.»

نظر السيد ليندسي إلى كليهما بطريقةٍ كان ينظُر بها إلى الأشخاص الذين لم يكن لديه فكرة جيدة بشأن قُدراتهم، ولكن كان هناك بعض الأناةِ في النظرة هذه المرة.

وقال: «حسنًا، الآن بعد أن وصلَتِ الأمور إلى هذا الحد، وبعد محاولة السير جيلبرت المتعمدة للتخلُّص من مونيلوز — لقتله، في الواقع — لا أُمانع في إخباركم بالحقيقة. أنا بالفعل أشكُّ في أن السير جيلبرت هو مَن قتل كرون؛ ولهذا السبب عرضتُ فأس الثلج تلك

في المحكمة في ذلك اليوم. وعندما رأى تلك الفأس، عرف أنني اشتبهتُ فيه، ولهذا السبب أخذ معه مونيلوز، وكان ينوي التخلُّص من رجلٍ يُمكن أن يقدِّم أدلةً ضده. ولو كنتُ أعلم أن مونيلوز سيذهب معه، لكنت على الأرجح سأتَّهِم السير جيلبرت في التو واللحظة! وعلى أي حال، ما كنتُ سأترك مونيلوز يذهب.»

صاح موراي: «عجبًا! هل تعرف شيئًا، إذن؟» وتابع: «هل لدَيك دليلٌ ما لا نعرف عنه شيئًا؟»

أجاب السيد ليندسي: «إليك ما أعرفه، وما سأُفصِح لك عنه، الآن.» وتابع: «كما تعلم، أنا إلى حدٍّ ما مُتسلِّق جبال، وقد أمضيتُ الكثير من عطلاتي في سويسرا، لممارسة التسلُّق. ومن ثَمَّ، أعرف معدَّات التسلُّق وفئوس الثلج. وعندما فكَّرتُ في ملابسات مَقتل كرون، أتذكَّر أنه تصادف أنني كنت، منذ فترة غير بعيدة، أتجوَّل على ضفاف النهر، وقابلتُ بالصدفة السير جيلبرت كارستيرز وهو يسير مُتوكِّئًا على نوعٍ قديم جدًّا من فئوس الثلج ويستخدِمه عصًا للمشي، حيث بإمكانه فعل ذلك، وربما التقطه من قاعةِ قصره مثلما يستخدِم بعض الرجال عصا جولفٍ ليتكئوا عليها أثناء المشي، وقد فعلتُ أنا نفسي ذلك، مئات المرات. وعلمتُ أن لديَّ فأسَ ثلج من ذلك النمط نفسه في المنزل؛ ولذا عرضتها على الطبيب في المحكمة، وسألته إن كان هذا الثقب في رأس كرون يمكن أن ينتج عن ضربةٍ بها. لماذا؟ لأنني كنتُ أعرف أن كارستيرز سيحضُر في المحكمة، وأردت أن أرى ما إذا كان سيُدرك ما أسعى إليه!»

سأل رئيس الشرطة، بلهفة: «وهل تظنُّ أنه فعل؟»

أجاب السيد ليندسي، بفطنة: «راقبت ردَّ فعلِه بطرَف عيني.» ثم أضاف: «لقد أدرك ما كنتُ أسعى إليه! إنه رجل ذكي، لكنه نزع القناع عن وجهه لجزءٍ من ألفٍ من الثانية. رأيت رد فعله!»

كان المُستمعان مندهشَين للغاية من هذا لدرجةِ أنهما جلسا في صمتٍ لفترةٍ من الوقت، وهما يُحدِّقان في السيد ليندسي بذهولٍ فاغرَين فميهما.

تنهَّد موراي أخيرًا، قائلًا: «إنه أمر غامض، للغاية!» وتابع: «ما المعنى الحقيقي لذلك، في رأيك، يا سيد ليندسي؟»

أجاب السيد ليندسي، على الفور: «ثمة سِرٌّ آخِذ في التكشُّف تدريجيًّا.» وأضاف: «هذا هو الحال. ولا يُوجَد ما يمكن فعْله، الآن تحديدًا، عدا الانتظار حتى يأتي شخصٌ ما من مكتب هولمشو وبورتلثورب. هولمشو رجل مُسن؛ لذا من المُحتمَل أن يأتي بورتلثورب

بنفسه. ربما يعرف شيئًا؛ فهما مُحامِيا عائلة كارستيرز لسنواتٍ عديدة. لكن انطباعي أن السير جيلبرت كارستيرز قد هرب بعيدًا! وأن زوجته لحقتْ به. وإذا كنتَ تريد أن تفعل شيئًا، فحاوِل معرفةَ المكان الذي ذهبت إليه على درَّاجتها بالأمس؛ فمن المُحتمَل، أنها ذهبت إلى محطة قريبة، ثم استقلت قطارًا.»

بعد ذلك ذهبتُ أنا والسيد ليندسي إلى المكتب، ولم نكن قد أمضينا هناك فترةً قصيرة عندما وصلت برقية من نيوكاسل. كان السيد بورتلثورب سيحضُر بنفسه إلى بيرويك على الفور. وفي منتصف فترةٍ ما بعد الظهر، وصل؛ وكان رجلًا في منتصف العمر، عصبيَّ المزاج إلى حدٍّ ما، وكنت قد رأيته مرَّتَين أو ثلاث مرات عندما كان لدَينا عمل في محكمة الجنايات، ومن الواضح أن السيد ليندسي كان يعرفه جيدًا، استنادًا إلى طريقتهما في تبادُل التحية بأُلفة.

سأل السيد بورتلثورب، بمجرد دخوله، ودون أيِّ مقدمات: «ما كل هذا يا ليندسي؟» وتابع: «برقيتُك تقول إن السير جيلبرت والليدي كارستيرز قد اختفيا. هل ذلك يعني ...»

قاطعه السيد ليندسي، الذي كان يعلم أن ما كنَّا قد قرأناه في صحيفة «دندي أدفرتايزر» قد نُشِر أيضًا في صحيفة «نيوكاسل دايلي كرونيكل»، وقال: «هل قرأتَ صحيفتك أمس؟» وتابع: «من الواضح أنك لم تفعل، يا بورتلثورب، وإلا كنتَ ستعرِف، جزئيًّا على أي حال، ما تَعنيه برقيتي. لكني سأُخبرك في مائة كلمة، وبعد ذلك سأطرح عليك بضعةَ أسئلة قبل أن نمضي أبعدَ من ذلك.»

قدَّم للسيد بورتلثورب وصفًا مُوجزًا للموقف، واستمع السيد بورتلثورب بانتباهٍ حتى النهاية. ودون إبداء أيِّ تعليقٍ قال ثلاث كلمات:

«حسنًا ما أسئلتك؟»

أجاب السيد ليندسي: «الأول، هو هذا؛ متى كانت آخر مرةٍ رأيتَ فيها السير جيلبرت كارستيرز أو وصلتك أخباره؟»

أجاب السيد بورتلثورب: «منذ أسبوع، في رسالة.»

تابع السيد ليندسي: «الثاني، أهمُّ بكثير جدًّا! ماذا تعرف، يا بورتلثورب، عن السير جيلبرت كارستيرز؟»

تردَّد السيد بورتلثورب لحظة. ثم أجاب، بصراحةٍ وأمانة واضحة.

حيث قال: «أصدقك القول يا ليندسي، أكثر من معرفة أنه السير جيلبرت كارستيرز، لا شيء!»

الفصل السادس والعشرون

السيدة رالستون من كريج

لم يعلِّق السيد ليندسي على هذه الإجابة، وجلس دقيقةً أو دقيقتَين هو والسيد بورتلثورب يتبادلان النظرات. ثم مال السيد بورتلثورب إلى الأمام قليلًا، ويداه على رُكبتَيه، ونظر نظرة متسائلة، ومع ذلك جادَّة نحو السيد ليندسي.

وقال بهدوء: «الآن، لماذا تسأل ذلك السؤال الأخير؟» وتابع: «هل لدَيك هدفٌ ما؟»

أجاب السيد ليندسي: «إن الأمر على النحو التالي.» وتابع: «ها هو ذا رجلٌ يأتي إلى هذه الأنحاء ليرِث لقبًا وأراضي، ومِن المؤكَّد أنه كان بعيدًا عنها لمدة ثلاثين عامًا. وسلوكه الأخير مُريب للغاية؛ فلا أحد يستطيع أن يُنكر أنه ترك مُتدرِّبي هذا ليغرق، دون إمكانية المساعدة! ذلك قتلٌ عمدي! ولذلك أسأل، بصفتك مُحاميه، ماذا تعرف عنه؛ عن شخصيته، وأفعاله خلال الثلاثين عامًا التي قضاها بعيدًا؟ وأنت تُجيب: لا شيء!»

قال السيد بورتلثورب مؤكدًا: «هكذا بالفعل!» وأضاف: «ولا أحدَ في هذه الأنحاء يعرف. باستثناء أنه السير جيلبرت كارستيرز، لا أحدَ في هذه الأنحاء يعرف أيَّ شيءٍ عنه؛ وأنَّى لهم أن يعرفوا؟ أظن أنَّنا نعرف أكثرَ من أي شخصٍ آخر؛ ونحن نعرف فقط القليل من الحقائق المجردة.»

قال السيد ليندسي: «أظنُّ أنه سيتعيَّن عليك إخباري بماهية هذه الحقائق المجردة.» ثم أضاف: «ومونيلوز، أيضًا. لدى مونيلوز تهمةٌ مُحدَّدة يوجِّهها لهذا الرجل، وسوف يوجِّهها، إذا كان لي أي شأنٍ بها! وسيُصَعِّد الأمر! — إذا استطاع أن يعثُر على كارستيرز. وأظن أنه من الأفضل أن تُخبرنا بما تعرفه، يا بورتلثورب. يجب أن تتَّضِح الأمور.»

أجاب السيد بورتلثورب: «ليس لديَّ أيُّ اعتراضٍ على إخبارك أنت والسيد مونيلوز بما نعرفه.» وتابع: «ففي نهاية الأمر، إنها، بطريقةٍ ما، معلومات معروفة، لبعض الناس، على أي حال. وبدايةً، لعلك على درايةٍ بأن التاريخ الحديث العهد لعائلة كارستيرز هذه

هو تاريخٌ غريب. تعرف أن السير ألكساندر العجوز كان لدَيه ولدان وابنةٌ واحدة، والابنة أصغر سنًّا بكثيرٍ من أخويها. وعندما بلغ الولدان، مايكل وجيلبرت، سنَّ الحادية والعشرين، والثالثة والعشرين، تشاجرا مع والدهما، وهجرا هذه المنطقة تمامًا؛ ويُعتقَد دومًا أن السير ألكساندر أعطى مايكل قدرًا كبيرًا من المال كي يمضي إلى حال سبيله ويعتني بنفسه؛ إذ كان كلٌّ منهما يكره مجتمع الآخر، وأن مايكل هاجر إلى أمريكا. أما جيلبرت، فقد حصل على المال في ذلك الوقت، أيضًا، وتوجَّه جنوبًا، واتُّفِق على أنه درس الطبَّ أولًا ثم أصبح طبيبًا، في لندن وخارج البلاد. لا شك على الإطلاق في أن كِلا الابنَين قد حصلا على أموال، مبالغ كبيرة؛ لأنه منذ وقت مغادرتهما، لم تُدفَع لهما أيُّ إعانة على الإطلاق، ولم يَعُد للسير ألكساندر أيُّ صلةٍ بهما. لا أحد يعلم سبب الشجار؛ لكن الشجار نفسه، والانفصال الذي أعقبه، كانا نهائِيَّين؛ ولم يستأنف الأب وابناه العلاقات مُطلقًا. وعندما كبرت الابنة، التي أصبحت الآن السيدة رالستون من كريج، بالقُرب من هنا، وتزوَّجت، اتبع السير ألكساندر العجوز سياسةً مالية مُماثلة تجاهها؛ فقد أهداها ثلاثين ألف جنيه في اليوم الذي تزوَّجت فيه، وأخبرها أنها لن تحصل على بنسٍ آخر منه مُطلقًا. أؤكد لك أنه كان رجلًا غريب الأطوار.»

تمتم السيد ليندسي: «غريب تمامًا!» وأردف: «ومُثير للاهتمام!»

قال السيد بورتلثورب موافقًا، بضحكةٍ مكتومة: «أوه، مُثير للاهتمام جدًّا!» وتابع: «هو كذلك بشدة. حسنًا، هكذا كانت الأمور حتى نحو عامٍ قبل وفاة السير ألكساندر الذي، كما تعلم، تُوفي منذ أربعة عشر شهرًا. وكما قلت، قبل حوالي ستِّ سنواتٍ من وفاته، جاء إخطار رسمي بوفاة مايكل كارستيرز الذي، بالطبع، كان وريثَ اللقب. وقد جاء الإخطار من محامٍ في هافانا، حيث تُوفي مايكل؛ وقد توفَّرت جميع الأدلة الرسمية. فقد تُوفي وهو غير مُتزوِّج ودون وصية، وبلغت مُمتلكاته حوالي ألف جنيه. وَكَّلَنا السير ألكساندر لتولِّي المسألة؛ وبالطبع، نظرًا لأنه كان أقرب الأقرباء لابنه الأكبر، فقد آلت إليه تركته. ثم أوضحنا له آنذاك أنه بعد وفاة السيد مايكل كارستيرز، يُصبح السيد جيلبرت هو الوريث — سيرث اللقب، على أي حال — وألححْنا بشدة على السير ألكساندر ليُصدِر وصية. وكان دائمًا ينوي فعل ذلك، لكنه لم يفعل أبدًا، ومات بلا وصية، كما تعلم. وعندئذٍ، تقدَّم السير جيلبرت كارستيرز بالطبع، و…»

قاطعه السيد ليندسي قائلًا: «لحظة.» ثم سأل: «هل كان أيُّ أحدٍ يعرف مكانه وقت وفاة والده؟»

أجاب السيد بورتلثورب: «لا أحدَ في هذه الأنحاء، على أي حال.» وتابع: «لا أبوه، ولا أخته، ولا نحن كنَّا نعرف أيَّ أخبارٍ عنه منذ سنواتٍ طويلة. لكنه جاء إلينا في غضون أربع وعشرين ساعة من وفاة والده.»

سأل السيد ليندسي: «ومعه الدليل، بالطبع، الذي يثبت أنه السير جيلبرت كارستيرز؟»

أجاب السيد بورتلثورب: «أوه، بالطبع، دليل كامل!» وتابع: «وثائق، ورسائل، وكل هذا النوع من الأشياء، وكلها مضبوطة. كان أمضى في لندن عامًا أو عامَين في ذلك الوقت؛ ولكن، وفقًا لروايته، كان قد طاف كثيرًا في جميع أنحاء العالم خلال مدة غيابه التي بلغت ثلاثين عامًا. حيث عمل جرَّاحًا على متن سفينة، والتحق بالطاقم الطبي لأكثر من جيشٍ أجنبي، وأدَّى الخدمة العسكرية، وذهب في رحلةٍ أو رحلتَين استكشافيتَين، وعاش فترةً في كل قارة؛ في الواقع، كانت حياته مليئة بالمغامرات، وقد تزوَّج مؤخَّرًا من وريثة أمريكية ثرية.»

قال السيد ليندسي: «أوه، الليدي كارستيرز أمريكية، أهي كذلك؟»

سأل السيد بورتلثورب: «بالفعل؛ ألم تُقابلها؟»

أجاب السيد ليندسي: «لم أُقابلها قط.» وتابع: «ولكن استمِرَّ.»

تابع السيد بورتلثورب: «حسنًا، بالطبع، لم يكن يُوجَد شكٌّ في هوية السير جيلبرت؛ وبما أنه لم يكن يُوجَد شكٌّ أيضًا في أن السير ألكساندر قد مات دون وصية، فقد شرَعنا على الفور في وضع الأمور في نصابها. ورِث السير جيلبرت، بالطبع، كلَّ الأراضي، وتشارك هو والسيدة رالستون في الأموال، والتي كانت، بالمناسبة، كبيرة؛ حيث حصل كلٌّ منهما على ما يقرب من مائة ألف، نقدًا. وهذا هو الحال الذي عليه الأمور!»

سأل السيد ليندسي: «أهذا كل شيء؟»

تردَّد السيد بورتلثورب لحظة، ثم نظر نحوي.

فقال السيد ليندسي: «يُمكن ائتمان مونيلوز على سِر.» وأضاف: «إن كان سرًّا بالفعل.»

أجاب السيد بورتلثورب: «حسنًا، إذن، ليس كل شيء بالضبط. ثمة مُلابسة، لا أستطيع أن أقول إنها أزعجتني، لكنها أثارت قلقي إلى حدٍّ ما. لقد مضى الآن ما يزيد على العام بقليلٍ منذ استحوذ السير جيلبرت كارستيرز على ملكية أراضيه، وخلال ذلك الوقت باع كلَّ ياردة منها تقريبًا باستثناء هاثركلو!»

أطلق السيد ليندسي صفيرًا. لقد كانت المرة الأولى التي تتجلَّى عليه فيها مظاهر الدهشة، وبسرعة ألقيتُ عليه نظرةً خاطفة ورأيتُ على وجهه نظرةً عابرةً تشي بذكاءٍ لا

يُوصف ومكرٍ لا يكاد يُنْكَر. لكنها اختفت بسرعةٍ كما ظهرت، وأومأ برأسه فقط، كما لو كان متفاجئًا.

وصاح: «عجبًا.» وتابع: «تصرُّف سريع، يا بورتلثورب.»

أجاب السيد بورتلثورب: «أوه، لقد قدَّم أسبابًا وجيهة!» وتابع: «قال، منذ البداية، إنه كان ينوي فعل ذلك؛ إذ أراد، وأرادت زوجته أيضًا، التخلُّص من هذه المُمتلكات الشمالية الصغيرة والمنفصلة، وشراء ملكية رائعة حقًّا في جنوب إنجلترا، والإبقاء على هاثركلو مقرًّا لقضاء الإجازات. ولم يكن ينوي بيعه مُطلقًا. ولكن — هذه هي الحقيقة! — لقد باع كل شيء آخر تقريبًا.»

قال السيد ليندسي: «لم أسمع قطُّ عن مبيعات الأراضي هذه.»

أجاب السيد بورتلثورب: «أوه، لقد بِيعت جميعًا بمُوجب اتفاقية خاصة.» ثم أضاف: «لقد كانت ملكية كارستيرز عبارة عن أراضٍ مُجزَّأة، هنا وهناك؛ كان آخر بارونين قبل هذا قد اشتريا أراضيَ كثيرةً في أجزاءٍ أخرى. وكانت كلها أراضيَ ذات قيمة؛ فلم تكن تُوجَد صعوبة في البيع للمُلاك المجاورين.»

قال السيد ليندسي: «إذن، إذا كان قد باع كل هذه الأراضي، فلا بدَّ أن لدى السيد جيلبرت مبالغَ كبيرةً من المال تحت تصرُّفه، إلا إذا كان قد اشترى الملكية الجديدة التي تتحدَّث عنها.»

أجاب السيد بورتلثورب: «لم يشترِ أيَّ شيء، حسب علمي.» ثم أضاف: «ولا بدَّ أن لدَيه مبلغًا كبيرًا، كبيرًا جدًّا، من المال في حسابه المصرفي. وكل ذلك»، تابع، وهو ينظر باهتمامٍ إلى السيد ليندسي، «يجعلني مندهشًا تمامًا من سماعِ ما أخبرتني به للتو. إنه أمرٌ خطير للغاية، هذه التهمة التي تلمِّح بها ضده، يا ليندسي! لماذا يُريد أن يودي بحياةِ رجالٍ بهذه الطريقة! رجل في مكانته، وثروته العظيمة …»

قاطعه السيد ليندسي: «يا بورتلثورب! ألم تُخبرني الآن أن هذا الرجل، وفقًا لروايته، عاش حياةً مفعمة بالمغامرة، في جميع أنحاء العالم؟ الأمر الأرجح أنه خلال تلك الحياة تعرَّف على شخصياتٍ غريبة، وربما فعل هو نفسه بعض الأشياء الغريبة؟ ألا يُعَد أمرًا ذا مغزًى أنه، في غضون عام من حيازته اللقبَ والممتلكات، ظهر شخصان غامضان للغاية هنا، ونتج عن ذلك كلُّ هذه الأعمال الشائنة؟ من المُستحيل، الآن، الشكُّ في أن جيلفرثويت وفيليبس قد جاءا إلى هذه الأنحاء بسبب وجود هذا الرجل هنا بالفعل! إن كنت قد قرأتَ كلَّ الأخبار الموجودة في الصحف، وأضفت إليها ما أخبرناك به عن هذه المغامرة الأخيرة على اليخت، فلن يسعك الشكُّ في ذلك، أيضًا.»

قال السيد بورتلثورب: «غريب جدًّا، غريب للغاية؛ كل هذا.» ثم أضاف: «ألا تُوجَد لديك نظريةٌ ما، يا ليندسي؟»

أجاب السيد ليندسي: «لديَّ، نوعًا ما.» وتابع: «أظنُّ أنه من المُحتمَل أن جيلفرثويت وفيليبس كان بحوزتهما بعض الأسرار حول السير جيلبرت كارستيرز، وأنه ربما يكون كرون قد تنامت إليه معرفةٌ ولو طفيفة بها بطريقةٍ ما. الآن، كما نعلم، تُوفي جيلفرثويت فجأة، ومن المُحتمَل أن كارستيرز قتل كلًّا من فيليبس وكرون، كما عمَد بالتأكيد إلى قتْل هذا الفتى. فكيف يبدو لك كل هذا؟»

قبل أن يتمكَّن السيد بورتلثورب من الرَّد على هذا السؤال الأخير، وبينما كان يهزُّ رأسه بسببه، أعلن أحد موظفي المكتب عن وصول السيدة رالستون من كريج وأدخلها إلينا، وعند ذكْر اسمها تقدَّم السيد ليندسي للأمام على الفور. كانت امرأةً ذكية وحسنة المظهر، لم تبلُغ مرحلة الكهولة، وكانت أرملةً منذ أربع أو خمس سنوات، واشتُهرت في منطقتنا بكونها سيدة مجتمع نشطة ومنخرطة في الشأن العام ومنشغلة، بشكلٍ رئيسي، بأعمال الخير والإحسان، وكانت عضوةً بارزة في اللجان والمجالس المُختصة بذلك. وتفحَّصت المُحاميَين كما لو كانا مُرشَّحَين لامتحان، وهي المُمتحن.

وبدأت في الحديث على الفور، قائلةً: «لقد ذهبت إلى الشرطة، لمعرفة حقيقةِ كل هذا الحديث عن السير جيلبرت كارستيرز.» وتابعت: «وأخبروني أنك تعرف أكثرَ مما يعرفون، يا سيد ليندسي. حسنًا، ما قولك عن هذا؟ وما قولك، يا سيد بورتلثورب؟ لا بد أنكما تعرفان أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر. ما مُحصلة كل هذا!»

التفت السيد بورتلثورب، الذي كان وجهه قد صار مُكفهرًّا للغاية عند رؤية السيدة رالستون، إلى السيد ليندسي، كما لو كان يطلب المساعدة. كان واضحًا أنه فوجئ بأسئلة السيدة رالستون، وخاف منها قليلًا؛ لكن السيد ليندسي لم يكن خائفًا أبدًا من أيِّ أحد، وباغتَ زائرته على الفور.

قال: «قبل أن نُجيب على أسئلتك، يا سيدة رالستون، ثمة سؤال واحد أستأذنكِ أن أوجِّهه إليكِ. عندما عاد السير جيلبرت عند وفاة والدك، هل تأكدتِ من أنه أخوكِ؟»

هزَّت السيدة رالستون رأسها بنفاد صبر واضح.

وهي تصيح: «يا له من هراء سخيف، يا سيد ليندسي!» وأضافت: «بحقِّ السماء كيف تظنُّ أنه يُمكنني التأكد من هوية رجلٍ لم أرَه منذ أن كنتُ طفلةً في السابعة من عمري؛ وبالتأكيد لم أرَه منذ ثلاثين عامًا على الأقل؟ بالطبع لم أفعل! إنه أمر مُستحيل!»

الفصل السابع والعشرون

الرصيد المصرفي

حينئذٍ كنَّا أنا والسيد بورتلثورب مَن نتبادل النظرات، بتساؤلٍ مُتبادل. ما الذي كان يرمي إليه السيد ليندسي؟ وفجأة التفت السيد بورتلثورب إليه بسؤال مباشر.

سأله: «ما الذي ترمي إليه، يا ليندسي؟» وتابع: «ثمَّة شيء يجول بذهنك.»

أجاب السيد ليندسي: «ثمَّة الكثير.» ثم أضاف: «وقبل أن أكشف عنه، أظنُّ أنه من الأفضل أن نُبلغ السيدة رالستون بكلِّ ما حدث بتمامه، وبالموقف الحالي، حتى هذه اللحظة. هذا هو الموقف، يا سيدة رالستون، وهذه هي الحقائق»؛ ومضى في إعطاء زائرته مُلخَّصًا موجزًا ولكنه كامل لكلِّ ما تناقش للتو بشأنه مع السيد بورتلثورب. واختتم، في نهاية كلامه، الذي تزايد خلاله تدريجيًّا الذهول المُرتسِم على ملامح السيدة، قائلًا: «الآن تُدركين واقع الأمور.» ثم سأل: «والآن، ما قولكِ؟»

تحدَّثت السيدة رالستون بحدَّةٍ وحسم.

وأجابت: «بالضبط ما شعرت برغبة في قوله أكثرَ من مرة في الآونة الأخيرة!» ثم أضافت: «بدأت أشكُّ في أن الرجل الذي يُطلِق على نفسه اسم السير جيلبرت كارستيرز ليس السير جيلبرت كارستيرز على الإطلاق! إنه مُحتال!»

على الرغم من موقعي الفرعي كعضوٍ مُتميز، ولكن أقلَّ مكانةً في ذلك الاجتماع، لم يسعني إلا أن أُطلِق صيحةَ دهشةٍ متسرعة عند سماع ذلك. كنت مذهولًا تمامًا وبصدق؛ إذ لم يخطر ببالي مُطلقًا فكرةٌ كهذه. مُحتال! ليس الرجل الحقيقي؟ كانت الفكرة مُذهلة، ووجدها السيد بورتلثورب مذهلةً، أيضًا، وأتبع صيحتي بأخرى، وأكَّدها بضحكة عدم تصديق.

وقال باستنكار: «سيدتي العزيزة!» وتابع: «حقًّا! ذلك مُستحيل!»

لكن السيد ليندسي، بهدوءٍ أكثرَ من أي وقتٍ مضى، أومأ برأسه في ثقة.

وقال: «أنا أؤيد رأي السيدة رالستون تأييدًا تامًا.» ثم أضاف: «أعتقد أن ما تقترحه صحيح. إنه مُحتال!»

احمرَّ وجه السيد بورتلثورب وبدأ يبدو عليه اضطراب شديد.

وكرَّر: «حقًّا!» وتابع: «حقًّا! يا ليندسي! لقد نسيتَ أنني فحصتُ الأمر برمَّته! لقد رأيت كلَّ الأوراق؛ الخطابات، والوثائق. أوه، إن هذا الاقتراح — أستميحكِ عذرًا، يا سيدة رالستون — سخيف! لا يمكن لرجلٍ أن يكون في حوزته تلك المُستندات ما لم يكن الرجل الحقيقي؛ الرجل الحقيقي دون ادِّعاءٍ أو احتيال! عجبًا، يا سيدتي العزيزة، لقد أطلعني على خطاباتٍ كتبتِها بنفسكِ، عندما كنتِ طفلةً صغيرة، وجميع أنواع الأمور الخاصة الصغيرة. من المُستحيل أن يكون قد جرى أي احتيال؛ إنه ... إنه عارٌ عليَّ!»

قال السيد ليندسي: «إن رجالًا أكثرَ براعةً منك قد خُدِعوا، يا بورتلثورب.» ثم أضاف: «وربما تكون الأشياء التي تتحدَّث عنها قد سُرِقَت. لكن دعِ السيدة رالستون تُعطينا أسبابها للشكِّ في هذا الرجل؛ فأنا مُتأكد من أن لدَيها أسبابًا قوية.»

ظهرت على السيد بورتلثورب أمارات الحنق، لكن السيدة رالستون قبِلت على الفور تحدِّي السيد ليندسي.

حيث أجابت: «إنها قوية بما يكفي لتجعلني قلقةً جدًّا في الآونة الأخيرة، على أي حال.» ثم التفتت إلى السيد بورتلثورب. وتابعت: «أنت تتذكَّر أن أول لقاءٍ لي مع هذا الرجل، عندما جاء للمطالبة باللقب والمُمتلكات، كان في مكتبك في نيوكاسل، بعد أيام قليلة من تقديم نفسه لك لأول مرة. قال آنذاك إنه لم يكن قد ذهب بعدُ إلى هاثركلو؛ لكنني اكتشفتُ بعد ذلك أنه ذهب — أو، على وجه الدقة، أنه قد ذهب إلى المنطقة، مُتخفيًا. تلك مُلابسة مُريبة، يا سيد بورتلثورب.»

أجاب السيد بورتلثورب: «معذرة، يا سيدتي، لا أراها كذلك.» وتابع: «لا أراها كذلك على الإطلاق.»

قالت السيدة رالستون: «أنا أراها كذلك، إذن.» وأضافت: «مُريبة، لأنني، شقيقته، والوحيدة من عائلته على قيد الحياة، كنتُ على مقربة. فلماذا لم يأتِ إليَّ مباشرة؟ لقد كان هنا، وألقى نظرةً هادئة حوله قبل أن يُطلِع أيَّ شخصٍ على هويته. هذا أحد الأمور التي لدي ضده، وأيًّا ما تقوله، فقد كان سلوكًا مُريبًا للغاية؛ وقد كذب بشأنه، بقوله إنه لم يأتِ هنا، بينما كان قد أتى هنا بالتأكيد! لكن هذا ليس كل شيء. لقد عاش جيلبرت كارستيرز الحقيقي، يا سيد ليندسي، مثلما يعرف السيد بورتلثورب، في هاثركلو هاوس

حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره. وكان دائمًا في هاثركلو، عدا عندما كان في جامعة إدنبرة يدرس الطب. وكان يعرف المنطقةَ بأكملها معرفةً تامة. لكن، كما اكتشفتُ بنفسي، هذا الرجل لا يعرف المنطقة! لقد اكتشفت، أثناء زيارته — على الرغم من أنني لم أذهب إلى هناك كثيرًا، لأنني لا أُحبُّه ولا أحبُّ زوجته — أن هذا بلد غريب عليه. فهو لا يعرف شيئًا تقريبًا — على الرغم من أنه بذل قصارى جهده للتعلُّم — عن سمائه، وتاريخه، وشعبه. هل يُحتَمَل أن رجلًا عاش في بوردر حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره يمكن أن ينسى كلَّ شيءٍ عنها، لمجرد أنه كان بعيدًا عنها لمدة ثلاثين عامًا؟ مع أنني كنت في السابعة أو الثامنة من عمري فقط عندما غادر شقيقي جيلبرت المنزل، إلا أنني كنت حينها طفلةً ذكية للغاية، وأتذكَّر أنه كان يعرف كلَّ مِيلٍ من الريف حول هاثركلو. لكن هذا الرجل لا يعرف.»

تمتم السيد بورتلثورب بشيءٍ عن أنه من الممكن جدًّا أن ينسى رجل الكثير خلال ثلاثين عامًا، لكن السيدة رالستون والسيد ليندسي هزَّا رأسيهما اعتراضًا على مخالفته لرأيهما. أما أنا، فكنت أفكِّر في الحقيقة المؤكدة التي مفادها أنني قد رأيتُ السير جيلبرت كارستيرز المزعوم يُضطرُّ إلى استخدام خريطةٍ لتحديد مكانه بالضبط عندما كان حرفيًّا على بُعد ميلَين من منزله.

تابعت السيدة رالستون: «ثمة شيء آخر؛ خلال زياراتي القليلة لهاثركلو منذ قدومه، اكتشفت أنه مع اطلاعه الجيد جدًّا على تفاصيلَ مُعينة من تاريخ عائلتنا، إلا أنه لعلةٍ غير معلومة يجهل تفاصيلَ أخرى كان يجب أن يعرفها معرفةً تامَّة. واكتشفت، أيضًا، أنه بارعٌ للغاية في تجنُّب الموضوعات التي قد يُفتضَح جهله فيها. ولكن، على الرغم من براعته تلك، فقد أمدَّني أكثرَ من مرة بأسبابٍ للشك. وأقول لك بكلِّ وضوح يا سيد بورتلثورب، إنه ما دام يبيع الممتلكات بالقدرِ الذي ذكرته، يجب عليك، في هذه المرحلة، ومع ما آلت إليه الأمور، أن تعرف الموقف المالي. لا بدَّ أن يكون قد تحصَّل على مبالغَ طائلة نقدًا! فأين هي!»

ردَّ السيد بورتلثورب: «في حسابه المصرفي، في نيوكاسل، يا سيدتي العزيزة!» وتابع: «أين يمكن أن تكون غير هناك؟ فهو لم يُجرِ بعدُ عملية الشراء التي كان يفكِّر فيها؛ لذلك من المؤكد أن الأموال اللازمة ما زالت هناك إلى أن يفعل. لا يسعني إلا أن أظن أنكِ والسيد ليندسي مُخطئان، وأنه يُوجَد تفسير مناسب وكافٍ لكل هذا، و…»

صاح السيد ليندسي: «يا بورتلثورب! لا جدوى من ذلك. لقد وصلت الأمور إلى حدٍّ خطير. وسواء كان هذا الرجل هو السير جيلبرت كارستيرز أو شخصًا مُحتالًا، فقد بذل

قصارى جهده لقتل مساعدي، ونشتبه في قتله كرون، وسيُؤتَى به ليمثُل أمام العدالة؛ ذلك أمرٌ لا جدال فيه! وواجبك في الوقت الحالي أن تنضمَّ إلينا لتحقيق هذا المقصد؛ يجب أن تتبنَّى اقتراح السيدة رالستون، وتتأكَّد من الموقف المالي. وكما تقول السيدة رالستون، وهي مُحقة، بعد بيع هذه الممتلكات لا بد أن قدرًا هائلًا من الأموال السائلة قد تجمَّع، وأصبح تحت تصرُّف هذا الرجل، يا بورتلثورب! يجب أن نعرف إن كان هذا صحيحًا!»

سأل السيد بورتلثورب، الذي أخذ يزداد توترًا وقلقًا: «كيف يُمكنني أن أخبرك بذلك؟» وتابع: «لا علاقة لي بحساب السير جيلبرت كارستيرز المصرفي الخاص. ولا يُمكنني أن أذهب، مباشرةً، وأسأل المصرف الذي يتعامل معه عن مقدار الأموال التي في حسابه لديه!»

صاح السيد ليندسي: «إذن سأفعل أنا!» وأضاف: «أنا أعرف المصرف الذي يتعامل معه في نيوكاسل، وأعرف المدير. وسأذهب هذه الليلة إلى منزل المدير، وأخبره بالضبط بكلِّ ما حدث؛ سأخبره بشكوك السيدة رالستون وشكوكي، وأسأله عن مكان المال. هل تفهم ذلك؟»

قالت السيدة رالستون: «هذا هو المسار الصحيح الذي يجب اتباعه!» وأضافت: «هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب فعله. يجب فعل ذلك!»

قال السيد بورتلثورب: «أوه، حسنًا؛ إذن في هذه الحالة أظن أنه من الأفضل أن أذهب معك.» ثم أضاف: «بالطبع، لا فائدةَ من الذهاب إلى المصرف؛ إذ سنجده مغلقًا؛ ولكن يُمكننا، كما تقول، أن نقابل المديرَ مقابلةً خاصة. وسنُصبح في وضعٍ لا نُحسد عليه إذا ظهر السير جيلبرت كارستيرز مع تفسيرٍ جيد لكل هذا الغموض.»

أشار السيد ليندسي بأصبعه نحوي.

وصاح: «لا يمكنه شرح ذلك!» وتابع: «لقد ترك ذلك الفتى ليغرق! هل تلك محاولة قتل، أم إنها ليست كذلك؟ أؤكد لك، سأضع هذا الرجل في قفص الاتهام، غير عابئ بمكانته! هيو، أحضِر لي دليل السكك الحديدية.»

وبعد برهةٍ اتُّفِق على أن يسافر السيد بورتلثورب والسيد ليندسي إلى نيوكاسل بالقطار التالي لمقابلة مدير المصرف. أصرَّ السيد ليندسي على أن أذهب معهما؛ إذ قال إنه ليس لديه ما يُخفيه، ويجب أن أحكي قصتي للرجل الذي سنقابله، حتى يعرف بعضًا من أساس شكوكنا. أيَّدت السيدة رالستون ذلك؛ وعندما أبدى السيد بورتلثورب ملاحظةً مفادها أننا نتحرَّك بسرعةٍ أكثر من اللازم، ونعمل على تجميع عناصر فضيحة كبرى،

علَّقت بطريقةٍ لاذعة قائلةً إنه لو كان ثمة إيلاء للمزيد من العناية في البداية، لما حدث كل هذا.

وجدنا مدير المصرف في منزله، خارج نيوكاسل، ذلك المساء. كان يعرف رفيقيَّ كليهما معرفةً شخصية، واستمع باهتمامٍ كبير لكلِّ ما قاله السيد ليندسي، بصفته المُتحدث، كما سمع قصتي عن حادثة اليخت. كان رجلًا مُسنًّا فطِنًا، ومن الواضح أنه كان سريعًا في تقدير الأمور، وأدركتُ من الطريقة التي التفت بها إلى السيد بورتلثورب والنظرة التي رمقه بها، بعد سماع كل شيء، أن استنتاجاته كانت نفس استنتاجات السيد ليندسي والسيدة رالستون.

علَّق بهدوءٍ قائلًا: «أخشى أن ثمَّة خطْبًا ما، يا بورتلثورب.» ثم أضاف: «حقيقة الأمر أن الشكوك قد ساورتني أنا أيضًا في الآونة الأخيرة.»

صاح السيد بورتلثورب: «يا إلهي الرحيم! أنت لا تقصد ذلك!» ثم أضاف: «كيف، إذن؟»

تابع مدير المصرف: «منذ أن بدأ السير جيلبرت في بيع الأراضي، وصلت مبالغُ ضخمة جدًّا إلى حسابه في مصرفنا، حيث كان لديه بالفعل رصيد كبير، قبل ذلك. ولكن في الوقت الحالي لدَينا القليل جدًّا — أعني، قليلًا نسبيًّا — من ماله.»

قال السيد بورتلثورب: «ماذا؟» وتابع: «ماذا؟ أنت لا تقصد أنه …؟»

قال مدير المصرف: «خلال الأشهر الثلاثة أو الأربعة الماضية، سحب السير جيلبرت بانتظام شيكاتٍ كبيرة جدًّا لصالح السيد جون بالي. قُدِّمَت إلينا عبر البنك الاسكتلندي الأمريكي في إدنبرة. كما أنني»، أضاف بنظرةٍ ذاتِ مغزًى نحو السيد ليندسي، «أظن أنه من الأفضل أن تذهب إلى إدنبرة، وتكتشف مَن هو السيد جون بالي.»

نهض السيد بورتلثورب، باديًا عليه الشحوب الشديد وعلامات خوفٍ كبير.

وسأل، بصوتٍ أجشَّ: «كم تبقَّى من كل هذا المال في حسابه لديكم؟»

أجاب مدير المصرف بسرعة: «ما لا يزيد عن ألفي جنيه.»

سأل السيد بورتلثورب بحدة: «إذن كم دفع من المال، بالطريقة التي ذكرتها؟»

اختتم مُحدِّثنا حديثه، بنظرةٍ خبيرةٍ أخرى: «مائتي ألف جنيه بالتمام والكمال! والآن بعد أن علمتُ بالحقائق التي أخبرتموني بها للتو، يتعيَّن عليَّ أن أنصحكم أن تذهبوا وتعرفوا ما إذا كان السير جيلبرت كارستيرز وجون بالي هما نفس الشخص!»

الفصل الثامن والعشرون

كبير الخدم في هاثركلو

غادر ثلاثتنا منزل مدير المصرف وكلٌّ منَّا يُعاني حالةً مزاجية تتواءم مع شخصيته؛ حيث كان السيد بورتلثورب مُنزعجًا بشدة، نظرًا لأنه بطبيعة الحال رجلٌ عصبي، ميَّال لليأس، وأظهر مشاعره في صيحات يأسٍ متنوعة؛ أما أنا، كوني شابًّا صغيرًا، فكنتُ مفعمًا بالذهول من الأخبار التي قُدِّمَت لنا للتوِّ، وبإثارة مطاردة الرجل الذي كنَّا نعرفه باسم السير جيلبرت كارستيرز. لكنَّني لستُ متأكدًا من أن السيد ليندسي عانى كثيرًا من أي شيء؛ فقد كان هادئًا ورابطَ الجأش كالعادة، وبدأ على الفور في التفكير في إجراءاتٍ عملية.

قال، بمجرد أن ركِبنا السيارة التي استأجرناها من محطة نيوكاسل: «اسمع، يا بورتلثورب، علينا أن نشرع في هذا الأمر في الحال، على الفور! يجب أن نصِل إلى إدنبرة في وقتٍ مُبكر قدرَ الإمكان صباحًا. أطعِني فيما سأقوله لك؛ عُد مباشرةً إلى بيرويك، وأمضِ الليلةَ معي في منزلي، وسنذهب إلى إدنبرة على متن أول قطار؛ يُمكننا الوصول إلى هناك مبكرًا، وقت فتْح المصارف. ثمة سببٌ آخر لرغبتي في مجيئك؛ إذ إن لديَّ بعض الوثائق التي أرغب في أن تراها؛ وثائق قد يكون لها صِلة مُهمة جدًّا بهذه القضية. تُوجَد واحدة في محفظتي الآن، وستندهِش عندما تسمع كيف وصلت إلى حوزتي. لكنها ليست مُدهشة بقدرِ أخرى أحتفظ بها في منزلي.»

تذكَّرت حينها أننا كنَّا مشغولين للغاية منذ عودتنا من الشمال في ذلك الصباح لدرجةِ أنه لم يكن لدَينا وقتٌ لمُتابعة أمرِ الرسالة التي عهِد بها السيد جافين سميتون إلى السيد ليندسي؛ وهنا، مرة أخرى، سيتعيَّن إجراء مزيدٍ من التحريات. لكن كان واضحًا أن السيد بورتلثورب لا يستمتع بالألغاز، وليس لدَيه رغبة كبيرة في أن يبرح سريره، حتى من أجل حُسن ضيافة السيد ليندسي، واحتاج الأمر إلى الإصرار حتى يوافق على العودة معنا إلى بيرويك. ومع ذلك فقد عاد، وقبل منتصف الليل كنَّا في بلدتنا مرةً أخرى،

وبعدما عبرنا الشوارع الخالية من المارة باتجاه منزل السيد ليندسي، ذهبتُ مع الرجُلَين الآخرين لأن السيد ليندسي أصرَّ على أن الوقت كان قد تأخَّر كثيرًا على عودتي إلى المنزل، وسأُصبح أقرب إلى المحطة إذا نِمت الليلة في منزله. ومباشرةً قبل أن نصل إلى المنزل، الذي كان عبارةً عن فيلا هادئة وسط حديقةٍ خاصة، تقع شمالًا قليلًا من الطرف العلوي من البلدة، استدار فجأة رجل كان يسير أمامنا ببطء، وجاء إلى السيد ليندسي، وعلى ضوء مصباح الشارع تبيَّن لي أنه كبير الخدم في هاثركلو.

تعرَّف السيد ليندسي على الرجل، أيضًا، وكذلك فعل السيد بورتلثورب؛ وتوقَّف كلاهما تمامًا، وهما يُحدِّقان فيه. ونطق كلاهما نفس السؤال، بكلماتٍ مُتطابقة:

«أخبار جديدة؟»

نظرتُ بلهفةٍ إلى كبير الخدَم كما فعَلا. لقد كان حادًّا ومُتعاليًا للغاية في أسلوبه وموقفه تجاهي في تلك الليلة التي زُرت فيها سيده، وفاجأني الآن أن أرى كم كان مُهذبًا ولطيفًا، وبطريقةٍ ما، مُتملقًا في سلوكه مع المُحاميَين. كان رجلًا ضخمًا، سمينًا، قويَّ البنية، ذا وجهٍ مُترهل ومُتغضن إلى حدٍّ ما، وبشرة شاحبة، وبدا أكثر شحوبًا بسببِ معطفه وقبَّعته العلوية الأسودين؛ وبينما كان يقف هناك، يفرك يدَيه، وينقِّل بصره بين السيد ليندسي والسيد بورتلثورب، ويتحدَّث بنبراتٍ ناعمة، لزِجة، مُوحية، شعرت أنني أكرهه أكثرَ مما فعلتُ عندما كان يُخاطبني بنبرةٍ مُتغطرسة على أبواب هاثركلو.

أجاب: «حسنًا، ليست أخبارًا بالضبط، أيها السيدان.» وتابع: «في الحقيقة، أردتُ أن أقابلك على انفراد، يا سيد ليندسي، يا سيدي ... لكن، بالطبع، ليس لدي أيُّ اعتراضٍ على التحدُّث أمام السيد بورتلثورب؛ لأنه محامي السير جيلبرت. هل يُمكنني الدخول معك، يا سيد ليندسي؟ في الحقيقة، كنت أنتظر في الجوار، يا سيدي؛ قالوا إنك ذهبت إلى نيوكاسل، وربما تعود في هذا القطار الأخير. والأمر — ربما يكون — من الأهمية بمكان.»

قال السيد ليندسي: «تعالَ.» وفتَح لنا الباب بمفتاحِهِ وسمح لنا جميعًا بالدخول إلى منزله، وقادَنا إلى غرفة مكتبه، حيث أغلق الباب. واستطرد، مُلتفتًا إلى كبير الخدم: «والآن.» وتابع: «ما الأمر؟ يمكنك التحدُّث بحرية؛ فنحن الثلاثة جميعنا — السيد بورتلثورب، والسيد مونيلوز، وأنا — على درايةٍ جيدة جدًّا بكلِّ ما يجري، في الوقت الحالي. ولعلِّي لا أكون مُخطئًا عندما أقول إنك تعرف شيئًا ما، أليس كذلك؟»

فرك كبيرُ الخدم، الذي جلس على الكرسي الذي كان قد أشار إليه السيد ليندسي، يدَيه، ونظر إلينا بتعبيرٍ ينمُّ بوضوح عن المكر والخبث.

وقال بنبرةٍ منخفضة، مُوحية: «حسنًا، يا سيدي!» وتابع: «من الطبيعي أن يعرف رجلٌ في مثل وظيفتي أمورًا، سواء أراد ذلك أم لا، في بعض الأحيان. كانت لديَّ أفكار، أيها السادة، لبعض الوقت.»

سأل السيد بورتلثورب: «أن ثمَّة خطْبٌ ما؟»

أجاب كبير الخدم: «شيء قريب من هذا القبيل، يا سيدي.» ثم أضاف: «بالطبع، سوف تضع في اعتبارك أنني، إن صحَّ التعبير، غريبٌ؛ فقد عمِلت لدى السير جيلبرت كارستيرز منذ تسعة أشهر فقط. ولكن ... لديَّ عينان. ولديَّ أذنان. وباختصار، أيها السادة، أعتقد أن السير جيلبرت، والليدي كارستيرز، قد رحلا!»

صاح السيد بورتلثورب: «رحلا نهائيًّا؟» وتابع: «عجبًا، يا هولينز! أنت لا تقصد ذلك!»

أجاب هولينز، الذي سمعتُ اسمه الآن للمرة الأولى: «سأفاجأ كثيرًا إذا لم تكن تلك هي الحقيقة، يا سيدي.» وتابع: «وبالمناسبة — إن جاز التعبير — يمكنني القول إنني أظن أنه سيُكتَشَف أن الكثيرَ من المُمتلكات قد اختفت معهما!»

سأل السيد بورتلثورب: «أيُّ ممتلكات؟» وتابع: «مستحيل! لا يمكنهما نقْل الممتلكات، والذهاب كما يبدو أنهما فعلا، أو كما يُقال إنهما قد فعلا!»

سَعَل هولينز مُخفيًا فمه بإحدى يدَيه الكبيرتَين، السمينتَين، ونظر بفطنةٍ نظرةً خاطفةً نحو السيد ليندسي، الذي كان يستمع في صمت، ولكن باهتمامٍ بالغ.

وقال: «لستُ متأكدًا من ذلك يا سيدي.» وتابع: «أنت تعرف أنه كانت تُوجَد بعض المُقتنيات الصغيرة في هاثركلو التي يمكن أن نُطلق عليها ذات طبيعة تراثية، وإن كنتُ لا أستطيع الجزمَ إن كانت مُقتنياتٍ تراثية أم لا؛ الصورة المُصغَّرة للبارونيت الثاني المُرصَّعة بالماس التي قدَّمها له جورج الثالث، والعقد الماسي أيضًا الذي كان يخصُّ ملكة إسبانيا، والصورة الصغيرة التي لا تقدَّر بثمن، والتي منحها قيصر روسيا للبارونيت الخامس، وأشياء مُماثلة، يا سيد بورتلثورب. كذلك، أيها السادة، مجوهرات العائلة! اختفت جميعها. لقد أخذا كلَّ تلك الأشياء!»

سأل السيد ليندسي فجأة: «هل تقصد أن تقول، على حدِّ علمك، إنها ليست موجودة في هاثركلو؟»

أجاب كبير الخدم: «أقصد أن أقول إنها بالقطع ليست هناك، يا سيدي.» ثم أضاف: «لقد كانت محفوظةً في خزينةٍ مُعينة في غرفةٍ صغيرة تستخدمها الليدي كارستيرز مخدعًا

لها. وقد غادرت سيادتها على عجلٍ وفي سرِّيةٍ أمس، كما أخبرَتْك الشرطة حسبما فهمت، وبينما هي في عجلة من أمرها، نسِيَت إغلاق الخزينة التي كانت قد فتحتها بلا شك قبل مغادرتها. تلك الخزينة، يا سيدي، خالية من تلك الأشياء على أي حال.»

صاح السيد بورتلثورب، بانفعال شديد: «فليبارك الرب روحي!» ثم أضاف: «هذا أمرٌ فظيع حقًّا!»

سأل السيد ليندسي: «هل يمكنها أن تحمل هذه الأشياء، كلها، على درَّاجتها، التي سمعت أنها غادرت وهي تركبها؟»

أجاب هولينز: «بسهولة يا سيدي.» وتابع: «كان لديها حاملُ أمتعة صغير على درَّاجتها، ويمكن أن يتَّسِع لكل تلك الأشياء. لم تكن ضخمة، بالطبع.»

سأل السيد ليندسي: «ألا تعرف إلى أين ذهبت على تلك الدرَّاجة؟»

ابتسم هولينز بمكر، وسحب كرسيه مُقتربًا قليلًا منَّا.

وأجاب: «لم أكن أعرف، عندما ذهبتُ إلى السيد موراي، في قسم الشرطة، هذا الصباح.» وتابع: «لكن، الآن أعرف. ذلك تحديدًا هو سبب مجيئي لُمقابلتك، يا سيد ليندسي.»

وضع يدَه داخل معطفه وأخرج دفترَ جيب، وسحب منه قصاصةَ ورق.

وتابع: «بعد أن قابلتُ السيد موراي هذا الصباح، عُدت إلى هاثركلو، وأخذتُ على عاتقي تفتيش المكان. ولم أجد أيَّ شيءٍ ذي طبيعة تُثير شكًّا كبيرًا حتى بعد ظُهر هذا اليوم، في وقتٍ مُتأخر، عندما اكتشفتُ ما جرى للخزينة في المخدع؛ أن جميع المُمتلكات التي ذكرتها قد اختفت. ثم بدأتُ بفحص سلَّة المهملات في المخدع؛ إذ كنتُ قد رأيت بنفسي الليدي كارستيرز تُمزِّق بعض الرسائل التي تلقَّتها صباح أمس من خلال البريد الأول، وتُلقي القصاصات في تلك السلة، التي لم تكن قد أُفرِغَت منذ ذلك الحين. ووجدتُ هذه، أيها السادة، وربما يُمكنكم، استخلاصُ استنتاجٍ ما منها؛ فلم أجد صعوبةً في استخلاص واحدٍ بنفسي.»

ووضع على المنضدة قصاصةَ ورقٍ مُمزقة، انحنَينا نحوَها نحن الثلاثة في الحال. لم يكن يُوجَد أكثر من نهايات سطور، لكن الصياغة كانت بالتأكيد موحية:

«... في الحال، بهدوء.

... أفضل وقت سيكون قبل الغداء.

... في كيلسو.

... المكان المُعتاد في جلاسجو.»

انتفض السيد بورتلثورب عند رؤيته خطَّ اليد.

وصاح: «هذا خطُّ يد السير جيلبرت!» وتابع: «لا شك في ذلك. ما الذي نفهمه من ذلك، يا ليندسي؟»

سأل السيد ليندسي، مُلتفتًا إلى هولينز: «ماذا تستنتِج من ذلك؟» وتابع: «أنت تقول إنك قد توصَّلت لاستنتاجٍ ما، أليس كذلك؟»

أجاب كبير الخدم، بهدوء: «لقد توصَّلتُ لاستنتاجٍ بالفعل يا سيدي.» ثم أضاف: «صباح الأمس، كانت تُوجَد أربع رسائل فقط لليدي كارستيرز. اثنتان كانتا من لندن، بخطِّ يد سيدات. وواحدة كانت من تاجر، من نيوكاسل. والرابعة كانت في مظروفٍ مُسجَّل — وقد كُتِب العنوان على الآلة الكاتبة — مع ختم بريد إدنبرة. أنا مُقتنع، يا سيد ليندسي، أن الرسالة المُسجَّلة احتوت على ... هذه! رسالة، كما تفهم، من السير جيلبرت، وقد وجدتُ قصاصاتٍ أخرى منها، ولكنها صغيرة جدًّا لدرجةٍ أنه من المُستحيل تجميعها معًا، ومع ذلك هي معي هنا. وأستنتج أنه أعطى أوامر لليدي كارستيرز أن تذهب بالدرَّاجة إلى كيلسو، وهي رحلةٌ سهلة عليها، ثم تستقل القطار إلى جلاسجو، حيث سيقابلها هناك. جلاسجو، يا سيدي، مدينة مُلائمة للغاية، على ما أعتقد، للأشخاص الذين يرغبون في الاختفاء. وأقترح التواصُل مع السلطات في جلاسجو.»

سأل السيد ليندسي الذي استمع باهتمامٍ لكلِّ هذا: «هل سبق لك معرفة أن السير جيلبرت كارستيرز قد زار جلاسجو مؤخرًا؟»

أجاب هولينز: «كان هناك منذ ثلاثة أسابيع.»

سأل السيد ليندسي: «و... إدنبرة؟»

قال كبير الخدم: «كان يذهب بانتظامٍ إلى إدنبرة، وفي إحدى المرات، ذهب مرَّتَين في أسبوع واحد.» ثم، دون أن يُدلي السيد ليندسي بأي ملاحظةٍ أخرى، نظر كبير الخدم نحوَه ونحو السيد بورتلثورب. وتابع: «بالطبع، أيها السيدان، هذا كله فيما بيننا. أشعر أن ذلك كان من واجبي، كما تعلمان.»

أجاب السيد ليندسي بأننا جميعًا فهمنا الموقف، وبعد قليلٍ ترك الرجل يُغادر، بعد جملةٍ هامسة أو جملتَين بينهما في الرَّدهة. ثم عاد إلينا، ودون أن ينبس ببنتِ شفة عمَّا حدث للتو، أخرج رسالة سميتون من جيبه.

الفصل التاسع والعشرون

كلُّ شيء على ما يُرام

حتى نتمكَّن من الحصول على الخصوصية، كنَّا قد عُدنا من نيوكاسل إلى بيرويك في مقصورة من الدرجة الأولى، وبداخلها أخبر السيد ليندسي السيد بورتلثورب قصة سميتون بأكملها. وقد استمع السيد بورتلثورب، كما بدا لي، بقدرٍ كبير من التوتُّر واللهفة؛ إذ كان من الواضح أنه من أولئك الأشخاص الذين لا يُحبون التدخُّل فيما يَعتبرونه نظامًا ثابتًا للأشياء، وكان جليًّا أنه كان يُزعجه طرح أيِّ أسئلةٍ بخصوص شئون كارستيرز، التي كان، بالطبع، هو نفسه قد فعل الكثير لتسويتها عندما ورِث السير جيلبرت اللقب. في رأيه، كان الأمر برمَّته قد حُسِم، وانتهى، وكان لا يزال مُتلهفًا ومضطربًا عندما وضع السيد ليندسي أمامه الرسالة التي كان قد أعارها لنا السيد جافين سميتون، ودعاه للنظر بعنايةٍ إلى خط اليد. فلم يبدِ استجابةً مناسبة لتلك الدعوة؛ فما فعله كان إلقاء نظرةٍ غاضبة على الرسالة، ثم إزاحتها جانبًا، مع صيحةٍ غاضبة بنفس القدر.

وهو يقول: «ماذا فيها؟» وأضاف: «إنها لا تُوحي لي بشيء!»

قال السيد ليندسي مُعترضًا، بينما يفتح دُرجًا في مكتبه: «خُذ وقتك، يا بورتلثورب.» وتابع: «لعلَّها توحي لك بشيءٍ عندما تقارن تلك الكتابة بتوقيعٍ مُعيَّن سأعرضه عليك الآن. هذه»، تابع، وهو يُخرِج وصيةَ جيلفرثويت، ويضعها أمام زائره، «هي وصيةُ الرجل الذي تسبَّب مجيئه إلى بيرويك في كل هذه الألغاز. الآن، إذن، هل لاحظتَ مَن كان أحد شهود الوصية؟ انظر، يا رجل!»

نظر السيد بورتلثورب، وانتفض من الغضب.

وصاح: «يا إلهي!» وأضاف: «مايكل كارستيرز!»

قال السيد ليندسي: «بالضبط.» وتابع: «والآن، قارِن خطَّ يدِ مايكل كارستيرز بخط اليد المكتوبة به تلك الرسالة. تعالَ إلى هنا، يا هيو! أنت أيضًا، ألقِ نظرة. ولا حاجةَ لأي فحصٍ عن قُرب أو بعناية أيضًا! لا حاجة إلى شهادة خبير خطوط، أو لاستخدام المجهر. سأراهن بكلِّ ما أملك على أن ذلك التوقيع وتلك الرسالة بخط اليد نفسه!»

بعد أن رأيتُ رسالةَ سميتون وتوقيع الشاهد الأول على وصية جيلفرثويت، جنبًا إلى جنب، لم أتردَّد في أن أظن ما ظنَّه السيد ليندسي. لقد كان خطُّ يدٍ غريبًا بشكلٍ استثنائي، بل كان مُتفردًا للغاية؛ فقد صيغت بعض الحروف بطريقةٍ غريبة، واختُصِرَت حروفٌ أُخرى بدلًا من صياغتها. بدا مُستحيلًا أن يكون بوسع شخصَين مُختلفَين أن يكتبا بذلك الأسلوب؛ فقد كان أسلوب كتابةٍ طوَّره لنفسه رجلٌ احتقر كلَّ الأمور التقليدية، وكان مُتميزًا بذاته في فنِّ الخط كما كان على الأرجح في حياته وأفكاره. على أي حال، كان يُوجَد تشابُه غير عادي، لا يمكن إنكاره، وحتى السيد بورتلثورب اعترف أنه، بلا شك، كان يُوجَد تشابُه. وتخلَّص من نفاد صبره وانفعاله، وأصبح مُهتمًّا ورزينًا.

وقال: «ذلك غريب جدًّا، وفي غاية الأهمية، يا ليندسي!» وتابع: «أنا … أجل، أنا بالتأكيد أميل إلى الاتفاق معك. والآن، ماذا تستنتج من ذلك؟»

أجاب السيد ليندسي: «إذا كنتَ تريد أن تعرف فكرتي المُحدَّدة، فهي هكذا؛ إن مايكل كارستيرز ومارتن سميتون هما نفس الرجل، أو ينبغي أن أقول، كانا! هذا كلُّ شيءٍ تقريبًا، يا بورتلثورب.»

صاح السيد بورتلثورب: «إذن في هذه الحالة، ذلك الشاب في دندي هو ابن مايكل كارستيرز؟»

قال السيد ليندسي: «وفي رأيي، ذلك ليس بعيدًا عن الحقيقة.» ثم أضاف: «لقد أصبتَ كبِدَ الحقيقة!»

قال السيد بورتلثورب: «ولكن … مايكل كارستيرز لم يتزوَّج قط!»

التقط السيد ليندسي وصية جيلفرثويت ورسالة سميتون، ووضعهما بحذَرٍ في دُرجه وأغلقه.

وقال، بطريقة جافة: «لستُ متأكدًا من ذلك.» وتابع: «من الواضح جدًّا أن مايكل كارستيرز كان رجلًا غريبَ الأطوار فعلَ الكثير من الأشياء بطريقةٍ غريبة خاصة به، وأن …»

قاطعه السيد بورتلثورب: «إن المحامي الذي أرسل إلينا دليلًا رسميًّا على وفاته، من هافانا، قبل وفاة السير ألكساندر، قال بوضوحٍ إن مايكل لم يتزوَّج قط.» وتابع: «وبالتأكيد هو يعرف!»

ردَّ السيد ليندسي: «وأنا أقول بكل تأكيدٍ إنه بناءً على كلِّ ما سمعته عن مايكل كارستيرز، ثمة الكثير من الأشياء التي لن يعرفها أيُّ محامٍ، حتى لو جلس على سرير مايكل وهو يحتضر!» وتابع: «لكنَّنا سنرى. وبمناسبة الحديث عن الأَسِرَّة، حان الوقت لأن أُرشدك إلى سريرك، ويجب أن نخلد جميعًا إلى النوم، لأنها الساعة الواحدة صباحًا، وسيتعيَّن علينا أن نتحرَّك مرةً أخرى في تمام السادسة. وسأُخبرك بما سنفعله، يا بورتلثورب، لتوفير الوقت؛ سنأخُذ فنجانًا من القهوة فقط مع القليل من الخبز هنا، وسنتناول الإفطار في إدنبرة، حيث سنصل هناك في الثامنة والنصف. هيا الآن إلى سريريكما.»

قادنا إلى الطابق العلوي، وكان هو والسيد بارتلثورب قد تناولا بالفعل مشروبهما الليلي أثناء حديثهما، وبعدما أرشد ضيفه الرئيسي إلى غرفته، جاءني في غرفتي، حاملًا مُنبِّهًا وضعه عند رأس سريري.

وقال: «هيو يا ولدي! سيكون عليك أن تستيقِظ قبل ساعةٍ من وقت استيقاظي أنا والسيد بورتلثورب. لقد ضبطتُ هذا المنبِّه على الساعة الخامسة. استيقظ عندما يرن، وجهِّز نفسك واذهب إلى موراي في قسم الشرطة، وأيقِظه من سريره. وأخبِره بما سمِعناه من ذلك الرجل هولينز الليلة، واطلُب منه التواصُل مع شرطة جلاسجو للبحث عن السير جيلبرت كارستيرز. وأخبره أيضًا أننا ذاهبون إلى إدنبرة، والسبب في ذلك، وأنني، إن لزِم الأمر، سأتَّصِل به من فندق المحطة خلال الصباح لأُبلغه بأيِّ أخبارٍ لدَينا، وسأطلُب معرفة الأخبار التي لدَيه في نفس الوقت. وأكِّد له ضرورةَ التواصُل مع شرطة جلاسجو؛ فقد هربت الليدي كارستيرز، بلا شك، إلى هناك، حيث سيُقابلها السير جيلبرت؛ ودَعْه يبدأ التحرِّيات حول مكاتب الشحن وما شابه. وهذا كل شيء، وهيا فلتنلْ قسطًا من النوم.»

أيقظتُ موراي من سريرِه قبل الساعة الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم، وشدَّدتُ عليه بشأن موضوع جلاسجو الذي، كما عرفنا لاحقًا، كان أكبرَ خطأ ارتكبناه، وورَّطَنا في مشكلاتٍ كبيرة لا حصرَ لها، وفي الساعة السادسة والربع، كنتُ أنا والسيد ليندسي والسيد بورتلثورب نشرب قهوتنا وينظُر بعضنا إلى بعضٍ من فوق حواف الأكواب. لكن السيد ليندسي كان حاضر الذهن بما يكفي حتى في تلك الساعة، وقبل أن ننطلِق من بيرويك، كتبَ برقيةً إلى السيد جافين سميتون، يطلُب منه مقابلتنا في إدنبرة خلال اليوم،

حتى يتمكَّن السيد بورتلثورب من التعرُّف عليه. وترك هذه البرقية مع مديرة منزله، كي تُرسلها بمجرد فتح مكتب البريد. وبعد ذلك غادرنا البلدة، وفي الثامنة والنصف كنا نتناول الإفطار في محطة ويفرلي، وفي تمام الساعة العاشرة بتوقيت إدنبرة، كنا نسير داخل مبنى المصرف الاسكتلندي الأمريكي.

نظر المدير، الذي استقبلنا في مكتبه الخاص، إلى السيد ليندسي والسيد بورتلثورب بدهشةٍ واضحة؛ ربما كان ذلك لوجود غموضٍ بادٍ على وجهيهما. أعرف أنني، بدوري، شعرت كما لو أن رجلًا أعمى قد رأى أن الغموض يلفُّني من قمَّة رأسي إلى أخمص قدمي! وبدا أكثرَ دهشةً عندما أوضح السيد ليندسي، بإيجاز، ولكن بشكلٍ كامل، سببَ زيارتنا له.

فقال، عندما كان السيد ليندسي، بمساعدة بعض الملاحظات من السيد بورتلثورب، قد وصل إلى نهاية شرحه: «بالطبع، قرأتُ في الصحف عن أحداثكم الغريبة في بيرويك.» وتابع: «وأُدرك أنكم تريدون الآن معرفةَ ما نعرفه هنا، عن السير جيلبرت كارستيرز والسيد جون بالي. يُمكنني الرد على ذلك بجملةٍ واحدة؛ لا شيء يضرُّ بسُمعتهما! إنهما سيدان جديران بالاحترام والثقة للغاية على حدِّ عِلمنا.»

تساءل السيد ليندسي الذي كان باديًا عليه الاندهاش بوضوح: «إذن يُوجَد بالفعل شخص يُدعى السيد جون بالي؟»

كان واضحًا أن المدير، هو الآخر، فوجئ بعلامات اندهاش السيد ليندسي.

وأجاب: «السيد جون بالي سمسار أوراق مالية في هذه المدينة.» ثم أضاف: «وهو معروف للغاية! الحقيقة هي أننا، أي أنا، مَن عرَّفته إلى السير جيلبرت كارستيرز. ربما يكون»، تابع، وهو يُلقي نظرةً خاطفة على كِلا السيدَين، «من الأفضل أن أُخبرك بكل الحقائق. وهي بسيطة للغاية وذات طبيعة عادية تمامًا. جاء السير جيلبرت كارستيرز إلى هنا، وعرَّفنا بنفسه، قبل بضعة أشهر. وأخبرني أنه ينوي بيعَ قدرٍ كبيرٍ من مُمتلكات كارستيرز، وأنه يريد إعادة استثمار عائداته في أفضل السندات الأمريكية. استنتجتُ أنه كان قد أمضى الكثير من الوقت في أمريكا، وأنه يفضِّل أمريكا على إنجلترا، وباختصار، كانت لدَيه نية مُزمعة على العودة إلى الولايات المتحدة، مع الإبقاء على هاثركلو، ليكون بمثابة مكانٍ يأتي إليه من حينٍ لآخر. وسألني إن كان بوسعي أن أُرشِّح له وسيطًا هنا في إدنبرة على درايةٍ تامة بأفضل فئةٍ من الاستثمارات الأمريكية، وعلى الفور رشَّحتُ له السيد جون بالي. وهذا كلُّ ما أعرفه، أيها السادة.»

قال السيد ليندسي: «باستثناء، أنك تعلم أن تعامُلات مالية كبيرة قد جرت بين السيد بالي والسير جيلبرت كارستيرز. نحن نعلم ذلك، مما سمعناه الليلة الماضية في نيوكاسل.»

أجاب المدير: «بالضبط! إذن أنت تعرف بقدرِ ما أستطيع أن أُخبرك به.» وتابع: «ولكن ليس لدي أيُّ اعتراض على القول إن مبالغَ كبيرةً من المال، قادمة من السير جيلبرت كارستيرز، قد مرَّت بالتأكيد عبْر الحساب المصرفي للسيد بالي هنا، وأفترض أن السيد بالي قد أجرى الاستثمارات التي أرادها السير جيلبرت؛ في الواقع، أعلم أنه فعل. وأقترح عليك مقابلة السيد بالي نفسه.»

إثر ذلك غادرنا، وبدا لي أن السيد ليندسي كان مُندهشًا إلى حدٍّ ما. وبمجرد ابتعادنا عن المصرف باغته السيد بورتلثورب، بقليل من الانتصار، وقليل من الخبث.

وصاح: «هو ذا! ماذا قلتُ لك؟» وتابع: «كل شيءٍ على ما يُرام، كما ترى، يا ليندسي! أعترف أنني مُندهش للسماع عن هذه الاستثمارات الأمريكية؛ ولكن، في نهاية الأمر، يحقُّ للسير جيلبرت فعلُ ما يحلو له بماله. قلت لك إننا كنا نتحرَّك بعنادٍ في مسارٍ خاطئ، وأنا شخصيًّا، لا أرى فائدةً تُرجى من مقابلة السيد بالي هذا. نحن نتدخَّل فقط في شأن الآخرين. وفي رأيي، يمكن للسير جيلبرت أن يتصرَّف كما يشاء في مُمتلكاته الخاصة.»

ردَّ السيد ليندسي: «ورأيي، يا بورتلثورب، هو أنني أريد أن أقتنع بأنها مُمتلكاته الخاصة! سأُقابل بالي سواء أردتَ أنت ذلك أم لا؛ وستكون أحمقَ إن لم تأتِ.»

احتجَّ السيد بورتلثورب، لكنه رافقنا. وسرعان ما كنَّا في مكتب السيد جون بالي؛ وهو رجل هادئ، رابط الجأش لم يُبدِ أيَّ شعورٍ بالمفاجأة عند ظهورنا؛ وفي الواقع، أشار على الفور إلى أن مدير البنك كان قد اتصل به للتوِّ وأخبره بأننا في الطريق، وبسبب الزيارة.

قال السيد ليندسي: «إذن سأطرح عليك سؤالًا في الحال.» وتابع: «وأنا مُتأكد من أنك رجل صالح ولن تتوانى عن الإجابة. متى رأيتَ السير جيلبرت كارستيرز آخر مرة؟»

التفت السيد بالي على الفور إلى دفترِ يومِيَّاتٍ على مكتبه، وألقى نظرةً واحدة عليه. ثم أجاب على الفور. قال: «قبل ثلاثة أيام.» وتابع: «الأربعاء، الساعة الحادية عشرة.»

الفصل الثلاثون

شعار عائلة كارستيرز

فكَّر السيد ليندسي لحظةً بعد حصوله على هذه الإجابة الدقيقة، ونظر نحوي كما لو كان يحاول أن يتذكَّر شيئًا ما.

وسألني: «هل ذلك في نفس صباح اليوم الذي تلا حادثة اليخت؟»

لكن قبل أن أتمكَّن من التحدُّث، سبقني السيد بالي قائلًا نفس الكلمات التي كنت سأقولها.

وقال بهدوء: «هذا صحيح.» وتابع: «لم أكن أعرف شيئًا عن الأمر في ذلك الوقت، بالطبع، لكنني قرأتُ الكثير في الصحف منذ ذلك الحين. كان ذلك في صباح اليوم التالي لمغادرة السير جيلبرت بيرويك في يخته.»

سأل السيد ليندسي: «هل ذكر لك أيَّ شيءٍ عن اليخت؟»

أجاب سمسار البورصة: «ولا كلمة! لقد اعتبرتُ أنه جاء لرؤيتي على نحوٍ روتيني. وتابع: «أمضى هنا أقلَّ من عشر دقائق. لم يكن لديَّ أيُّ فكرةٍ أن أي شيءٍ قد حدث.»

قال السيد ليندسي: «قبل أن نسترسِل، أتسمح أن تُخبرنا بما جاء من أجله؟ أتعلم أن السيد بورتلثورب محاميه؟ وأنا أطرح السؤال نيابةً عنه وبالأصالة عن نفسي.»

أجاب السيد بالي: «لا أجد مانعًا من أن أُخبرك.» وتابع: «جاء من أجل أعمالٍ مشروعة تمامًا. من أجل طلب بعض السندات المالية التي كانت في حوزتي؛ وهي خاصة به، بالطبع.»

سأل السيد ليندسي: «وأخذها معه؟»

ردَّ سمسار البورصة: «بالطبع!» وأضاف: «ذلك ما جاء من أجله.»

سأل السيد ليندسي: «هل أعطاكَ أيَّ تلميح عن وجهته؟» وتابع: «هل تصادف، على سبيل المثال، أن ذكر أنه سيغادر البلاد لبعض الوقت؟»

أجاب السيد بالي: «على الإطلاق.» وأضاف: «لم يتحدَّث عن أيِّ شيءٍ سوى الشأن الذي جاء من أجله. كما قلت للتو، أمضى هنا أقلَّ من عشر دقائق.»

كان واضحًا لي أن السيد ليندسي كان لا يزال مندهشًا للغاية. وبدا أن ما علِمناه خلال نصف الساعة الماضية قد فاجأه. وأدرك السيد بورتلثورب، الذي كان حادَّ الملاحظة بما فيه الكفاية، هذا، وسارع إلى الدخول إلى ساحة الحوار.

فقال: «إن السيد ليندسي مُنزعج للغاية من ظروف اختفاء السير جيلبرت كارستيرز التي تبدو غير عادية، ويمكنني القول إن شقيقة السير جيلبرت، السيدة رالستون، تشعر بانزعاجٍ مُماثل. وقد أشرت إلى أن السير جيلبرت قد يكون لديه — على الأرجح لديه — تفسيرٌ مناسبٌ تمامًا لتحركاته. انتظر لحظة يا ليندسي!» تابع، بينما كان السيد ليندسي يُبدي علامات تململُ. وقال وهو ينظر إلى السيد بالي مرة أخرى: «إنه دوري، على ما أظن.» وتابع: «لقد كانت معاملاتك مع السير جيلبرت سليمة تمامًا، في مُجملها، على ما أظن، وعادية تمامًا، أليس كذلك؟»

أجاب سمسار البورصة بسرعة: «سليمة تمامًا، وعادية تمامًا.» ثم أضاف: «لقد أرسله إليَّ مدير البنك الاسكتلندي الأمريكي، الذي يعرف أنني أتعامل على نطاقٍ واسعٍ في السندات والاستثمارات الأمريكية من الدرجة الأولى. وأخبرني السير جيلبرت أنه كان بصددِ بيعِ قدرٍ كبيرٍ من مُمتلكاته في إنجلترا ويرغب في إعادة استثمار العائدات في أسهُم أمريكية. وقد فهمتُ من كلامه أنه يرغب في قضاء معظم وقته هناك في المستقبل، حيث لم يكن هو ولا زوجته مُهتمَّين بهاثركلو، ومع ذلك أرادا الاحتفاظ بملكيته وبه مقرٌّ للعائلة. وكان يُرسل لي مبالغَ كبيرة من وقتٍ لآخر، واستثمرتها وفقًا لتعليماته، وكنتُ أسلِّمه السندات عند إتمام كل صفقة. وذلك بالفعل كلُّ ما أعرفه.»

تحدَّث السيد ليندسي قبل أن يتمكَّن السيد بورتلثورب من التحدُّث مرة أخرى.

وقال: «لديَّ سؤالان فقط أودُّ طرحهما، وهما سؤالان أظنُّ أنه لا يمكن لأحدٍ أن يتغاضى عنهما.» وتابع: «الأول هو هل استثمرتَ كلَّ الأموال التي أرسلها السير جيلبرت إليك؟»

أجاب السيد بالي: «أجل؛ كلها تقريبًا.» وأضاف: «ما زال لديَّ رصيد، رصيد صغير.»

تابع السيد ليندسي: «والسؤال الآخر هو أنني أظنُّ أن كل هذه السندات الأمريكية التي يمتلكها الآن ذات طبيعة يمكن تحويلها إلى نقودٍ في أي وقت، وفي أي سوق، أليس كذلك؟»

قال السيد بالي: «هذا صحيح، بالتأكيد.» وأضاف: «بلى، بالتأكيد، هي كذلك.»

صاح السيد ليندسي، وهو ينهض ويشير إليَّ كي أتبعه: «إذن ذلك يكفيني!» ثم أضاف: «أنا مُمتن لك كثيرًا يا سيدي.»

دون مزيدٍ من المجاملات، خرج إلى الشارع، وأنا في عقِبه، وتبعني السيد بورتلثورب بعد بضع دقائق. وعندئذٍ بدأت مُشادَّة كلامية حامية بينهما استمرت حتى توارى ثلاثتنا جميعًا في ركنٍ هادئ من غرفة التدخين بالفندق الذي كان سيُقابلنا فيه السيد جافين سميتون عند وصوله، وهناك تجدَّدت بنفس القوة؛ على الأقل، من جانب السيد ليندسي. أما أنا، فجلستُ أمام المُتنازِعَين، ويدايَ في جيبيَّ، أستمع، كما لو كنتُ القاضي وهيئة المُحلَّفين في آنٍ واحد، لدفاع كلٍّ منهما.»

كانا، بالطبع، على طرفي نقيض. كان أحدهما يرى الأمر من خلال وجهة نظر. ويراه الآخر من وجهةٍ معاكسة تمامًا. كان السيد بورتلثورب مؤيدًا تمامًا لفكرة تهوين الأمور، والسيد ليندسي يصرُّ على التهويل منها. وقال السيد بورتلثورب إنه حتى لو لم نكن قد أتينا إلى إدنبرة في مهمة حمقاء — وهو ما بدا أنه مفهومه السري والخاص عن الأمر — كنا سنحصل على أيِّ حالٍ على المعلومات التي كان يُريدها السيد ليندسي، وأن من الأفضل العودة إلى بلدنا الآن ومتابعة أعمالنا الحقيقية، التي، حسبما أضاف، لا تتضمن التطفُّل على شئون الآخرين. كان مقتنعًا بأن السير جيلبرت كارستيرز هو بالفعل السير جيلبرت كارستيرز، وأن شكوك السيدة رالستون والسيد ليندسي كلها خاطئة. وعجز عن أن يرى أيَّ صِلة بين السير جيلبرت وألغاز وجرائم بيرويك؛ وأنه كان من السخف افتراض وجود تلك الصلة. أما بشأن حادثة اليخت، فقد اعترف بأنها بدت غريبةً على الأقل؛ لكنه، أضاف، بنظرةٍ شبه مُعتذرة نحوي، أنه يود سماع رواية السير جيلبرت عن تلك المسألة قبل أن يتَّخذ هو نفسه قرارًا بشأنها.

ردَّ السيد ليندسي: «إذا تمكَّنا من وضع أيدينا عليه، فستسمع روايته وهو داخل قفص الاتهام!» وتابع: «إن رغبتك الطبيعية في ترك الأمور تسير بسلاسة، يا بورتلثورب، تقودك إلى مسارات غريبة! عجبًا لك يا رجل! — ألقِ نظرة على الأمر برمَّته من موقفٍ مُحايد! منذ أن استحوذ الرجل على مُمتلكات هاثركلو، باع كلَّ شيء، فعليًّا، عدا هاثركلو نفسه؛ ولم يُضِع وقتًا وحوَّل العائدات — التي تبلغ مائتي ألف من الجنيهات! — إلى سنداتٍ مالية أجنبية، هي، كما يقول ذلك الرجل بالي، قابلة للتحويل إلى نقودٍ في أي لحظةٍ وفي أي سوق! أمرٌ ما يحدث، لا نعرف ما هو حتى الآن، يجعله غير مُطمئن على موقعه؛

وبلا شك، له علاقة بفيليبس وجيلفرثويت، وبلا شك، بعد ذلك، كان له علاقة بكرون. وهذا الفتى هنا عرف شيئًا بالصدفة قد يشكِّل خطرًا؛ ومن ثم حاول كارستيرز بعد أن — حسبما أظن — قَتَل كرون، أن يغرق مونيلوز! وماذا بعد ذلك؟ من الواضح تمامًا أنه، بعد تركه مونيلوز، قاد يخته إلى مكانٍ ما على الساحل الاسكتلندي، ثم تركه ينجرف؛ أو — وهو الأرجح — اتَّفق مع الصياد روبرتسون في لارجو، ورشاه ليحكي قصةً وهمية عن الأمر كله، واتجه إلى إدنبرة في صباح اليوم التالي، واستحوذ على بقية السندات المالية، وبعد ذلك هرب، على أن تنضمَّ إليه في مكانٍ ما زوجته التي، إن كان ما أخبرنا به هولينز الليلة الماضية صحيحًا، وهو بلا شك كذلك، حملت معها بعض الأشياء الثمينة! إلامَ يشير كل ذلك إلا إلى أنه مُحتال، نهب كلَّ ما أمكنه من المُمتلكات بينما كانت لديه الفرصة، وهو الآن في مكانٍ بعيد يستمتع بمكاسبه غير المشروعة؟ هذا هو رأيي، يا بورتلثورب، وأنا أُصرُّ على أن وجهة نظري منطقية بخصوص هذه القضية!»

ردَّ السيد بورتلثورب: «وأنا أقول إنه من المنطقي الإصرار، مثلما أفعل، على أن الأمر كلَّه خليقٌ بتفسيرٍ مُناسب ومعقول!» ثم أضاف: «أنت جيد في رسم الاستنتاجات، يا ليندسي، لكنك سيئ في افتراض النظريات! تبدأ بمطالبتي باعتبارِ أمرٍ ما مُسلَّمًا به، وأنا لستُ مغرمًا بالألعاب الذهنية. لو أنك منطقي للغاية ...»

استمرَّا في الجدال هكذا، أحدهم في مواجهة الآخر، ساعةً كاملة، وبدا لي أن الحديث الذي كانا بصدده كان سيستمر إلى الأبد، إلى أجلٍ غير مُسمًّى، لو لم يصل السيد جافين سميتون، في وقت الظهيرة. حيث توقَّفا عند رؤيته، واستغرقا بعد برهةٍ في بحث مسألةٍ تُشابُه خطَّ اليد؛ إذ كان السيد ليندسي قد أحضر الرسالة والوصية معه. كان السيد ليندسي والسيد بورتلثورب، على أي حال، واثقَين للغاية؛ أما السيد جافين سميتون، فقد بدا مندهشًا تمامًا من الافتراض الذي طرحه عليه السيد ليندسي؛ وهو أن الأب الذي كان يعرف القليل جدًّا عنه هو، في الواقع، مايكل كارستيرز.

تساءل السيد بورتلثورب بحدَّة على نحوٍ مفاجئ: «هل تعرف ما هذا الذي تقترحه يا ليندسي؟»

وتابع: «إنك مُقتنع أن والد هذا الشاب، الذي سمع عنه دائمًا باسم مارتن سميتون، هو في الحقيقة الراحل مايكل كارستيرز، الابن الأكبر للراحل السير ألكساندر؛ في الحقيقة، ولكونك رجلًا عنيدًا ومُتصلِّبَ الرأي، هل أنت مُتأكِّد من ذلك بالفعل؟»

قال السيد ليندسي: «أنا متأكد!» وتابع: «هذه حقيقة، يا بورتلثورب.»

سأل السيد بورتلثورب: «إذن ماذا بعد؟» وتابع: «إن كان السيد سميتون هذا هو الابن الحقيقي والشرعي للراحل مايكل كارستيرز، فإن اسمه ليس سميتون على الإطلاق، بل كارستيرز، وهو الحامل الحقيقي للقب البارونية، ونظرًا لأن جده قد تُوفِّي دون وصية، فهو المالك القانوني للأراضي! هل تعي ذلك؟»

ردَّ السيد ليندسي: «ينبغي أن أكون أحمقَ إن لم أفعل!» وتابع: «لقد كنتُ أفكِّر في ذلك منذ ستٍّ وثلاثين ساعة.»

تمتم السيد بورتلثورب: «حسنًا، سيتعيَّن إثبات ذلك.» كان قد أخذ يُحدِّق بشدة في السيد جافين سميتون منذ دخوله، وفجأة أطلق تعجُّبًا صريحًا. وقال: «ليس من المُمكن إنكار أنك تحمل ملامح عائلة كارستيرز!» ثم أضاف: «يا إلهي! هذه أغرب قضية!»

وضع سميتون يدَه في جيبه، وأخرج لفةً صغيرة بدأ في فكها.

وقال: «أتساءل إن كان لهذا علاقة بالأمر.» وتابع: «لقد تذكَّرت وأنا أفكِّر في الأمور الليلةَ الماضية، أنْ كان ثمَّة شيء — هكذا اعتاد الزوجان واتسون أن يُخبراني — حول رقبتي عندما أتيتُ إليهما لأول مرة. إنه يُشبه قلادة ذهبية، مع شعار عليها. لقد احتفظتُ به بعناية سنواتٍ طويلة!»

أخرج من لفَّته قلادةً على شكل قلب، مُتصلة بها سلسلة ذهبية بالية، وقلَبها لإظهار نقشٍ محفور على الجانب الخلفي.

وقال: «ها هو ذا الشعار.» وتابع: «هل ترَون «مَن جدَّ، وجد». تُرى لِمَن هو؟»

صاح السيد بورتلثورب: «ليباركنا الرب!» وتابع: «شعار عائلة كارستيرز! أجل! شعارهم منذ عدة مئاتٍ من السنين! يا ليندسي، هذا شيء غير عادي! أنا أميل إلى الظن بأنك قد يكون لديك بعض الحق في أفكارك. يجب علينا أن ...»

ولكن قبل أن يتمكَّن السيد بورتلثورب من قولِ ما يجب عليهم فعْله، حدث تحوُّل في الوقائع أزال عني كلَّ الاهتمام بها، وجعلني أنسى أيَّ غموضٍ حول كارستيرز، أو سميتون، أو أي شخص آخر. إذ جاء خادم ببرقيةٍ في يده يسأل هل يُوجَد سيدٌ يحمل اسم مونيلوز؟ فأخذت المُغلَّف منه وسط دوامة من الدهشة، وفتحته، وأنا أشعر بإحساسٍ غير مُبرَّر بكرب قادم. وبعد دقيقة أخرى كانت الغرفة تدور حولي؛ لكن صياغة البرقية كانت واضحةً بما فيه الكفاية:

«عُد إلى الديار في أول قطار، مايسي دنلوب مفقودة لأسبابٍ مجهولة منذ الليلة الماضية ولا أثرَ لها. موراي.»

رميتُ قطعة الورق على المنضدة أمام الثلاثة الآخرين، شاعرًا كأن رأسي يشتعل، خرجت من القاعة والفندق، إلى الشارع وعدوتُ إلى المحطة، قبل أن يتمكَّن أحدُهم من أن يجد كلمةً ينطق بها لسانه.

الفصل الحادي والثلاثون

بلا أثر

أزاحت تلك البرقية كلَّ أعمال الصباح بعيدًا عن تفكيري. صار اهتمامي بعائلة كارستيرز وكل الغموض الذي يُحيط بهم ضئيلًا مقارنةً بالخبر الذي أرسله موراي بهذه الطريقة المفجعة بغرابة! كنتُ سأتخلَّى بسعادةٍ عن كلِّ ما أتمنَّى أن أُحقِّقه لو أنه فقط أضاف المزيد من الأخبار؛ لكنه قال ما يكفي ليجعلني أشعُر كما لو أنني يجِب أن أُصاب بالجنون لو لم أتمكَّن من العودة إلى الديار في التوِّ واللحظة. لم أكن قد رأيتُ مايسي منذ تركتني هي وأمي مع السيد ليندسي في دندي؛ فقد كنتُ مشغولًا تمامًا منذ ذلك الحين، مع الشرطة، والسيدة رالستون، والسيد بورتلثورب، والرحلات العاجلة، أولًا إلى نيوكاسل ثم إلى إدنبرة، بحيث لم يكن لدي دقيقة واحدة كي أعودَ لأرى كيف كانت تسير الأمور. ما دفعني، بالطبع، إلى مُعاناة التخوُّف، هو استخدام موراي لتلك الكلمة «لأسبابٍ مجهولة.» لماذا مايسي مفقودة «لأسبابٍ مجهولة»؟ ما الذي حدث وجعلها تخرج من منزل والدها؟ أين ذهبت، بحيث لا يمكن العثور على أيِّ أثرٍ لها؟ ما الذي أدَّى إلى هذا التطوُّر المُذهل للغاية؟ ماذا …

لكن التكهُّن بهذه الأشياء لم يكن مُجديًا؛ فالأمر كان يستدعي التحرك. وكنتُ قد أمسكت بأول حمَّالٍ قابلته، وكنتُ أسأله عن القطار التالي إلى بيرويك، عندما أمسك السيد جافين سميتون بذراعي.

وقال بهدوء: «سيأتي قطار في غضون عشر دقائق، يا مونيلوز.» وتابع: «هيا نستقلُّه؛ سأذهب معك، سنذهب جميعًا. يظن السيد ليندسي أننا سنبذل قصارى جهدنا هناك مِثلما نفعل هنا، الآن.»

نظرتُ حولي فرأيتُ المُحاميَين يُسرعان في اتجاهنا، والسيد ليندسي يحمل برقية موراي في يده. سحبني جانبًا بينما كنَّا نسير جميعًا نحو القطار.

وسأل: «ماذا استنتجتَ من هذا، يا هيو؟» وتابع: «هل يمكنك تحديد أي سبب لاختفاء الفتاة؟»

قلت: «ليس لديَّ أي فكرة.» وتابعت: «ولكن إذا كان السبب أي شيءٍ له صلة بهذه القضية، يا سيد ليندسي، فليحترسوا! لن أرحم أيَّ شخصٍ يؤذيها؛ وهل يمكن أن يُوجَد سبب آخر؟ ليتني لم أغادر البلدة أبدًا!»

قال مواسيًا: «نعم، حسنًا، سنعود إليها قريبًا.» ثم أضاف: «ونأمُل أن نجد أخبارًا أفضل. كنتُ أتمنَّى لو أن موراي كان قد قال المزيد؛ فمن الخطأ تخويف الناس بهذه الطريقة؛ لقد قال خبرًا مروِّعًا جدًّا وتفسيرًا قليلًا جدًّا.»

لقد كان قطارًا سريعًا ذلك الذي ركبناه إلى بيرويك، وقطع المسافة في زمنٍ قصير، لكنه بدا لي دهرًا، وفشل الباقون في الحصول على كلمةٍ من بين شفتَي طوال الوقت. وكاد قلبي يقفز من بين أضلعي بينما كنا ندخل محطة بيرويك، عندما رأيت تشيسهولم وأندرو دنلوب على الرصيف في انتظارنا. دائمًا ما يكون الأشخاص الذين تلقَّوا أخبارًا سيئة في حالةٍ من الخوف من تلقِّي ما هو أسوأ، وكنتُ أخشى ما ربما يكونون قد جاءوا إلى المحطة لإخبارنا به. وأدرك السيد ليندسي كيف كنتُ أشعر، فبادرهما بسؤالٍ فوري.

وسأل في حدة: «هل تعرفان عن الفتاة أكثرَ ممَّا ورد في برقية موراي؟» وتابع: «إذا كان الأمر كذلك، فما هي؟ إن الشابَّ سيُجن كي يعرف الأخبار!»

هزَّ تشيسهولم رأسه، ونظر أندرو دنلوب نحوي بتمعُّن.

وأجاب: «لا نعرف أكثرَ من ذلك.» ثم أضاف، مُحدقًا نحوي بقوة أكبر: «ألا تعرف أنت أي شيء، يا ولدي؟»

صحت: «أنا، يا سيد دنلوب!» وتابعت: «ماذا تظنُّ كي تسألني سؤالًا مثل هذا! ما الذي يمكن أن أعرفه؟»

قال: «كيف لي أن أعرف ذلك؟» وتابع: «لقد جررتَ والدتكَ وابنتي إلى دندي من أجل لا شيء، بقدرِ ما علمت، و...»

قاطعه السيد ليندسي: «كان لدَيه سببٌ وجيه.» وتابع: «لقد أحسن التصرُّف. والآن ما أمرُ ابنتك، يا سيد دنلوب؟ فقط أخبِرْنا بالقصة البسيطة، وبعد ذلك سنعرف كيف نتحرك.»

كنتُ قد أدركتُ بالفعل أن أندرو دنلوب كان مُنزعجًا مِنِّي، والآن فهمتُ السبب. كان رجلًا مقتصدًا للغاية؛ إذ كان يدَّخر كلَّ بنسٍ يمكن أن يصِل إلى يده، وبما أنه لم يبدُ أنه قد أتى أيُّ نفعٍ مُحدَّد، ولم يكن يُوجَد سبب وجيه لذلك، بقدرِ ما يمكن أن يُدرك، فقد كان منزعجًا لأنني أرسلتُ لابنته كي تأتي إلى دندي، وأكثر انزعاجًا لأن مايسي ذهبت لتلك الرحلة دون الحصولِ على إذنٍ منه، على الرغم من أنني، بالطبع، بريء تمامًا من ذلك. ولم يكن مُتقبلًا أو مُهذبًا أكثرَ من المُتوقَّع مع السيد ليندسي.

وقال: «أجل، حسنًا!» وتابع: «ثمة أمور غريبة تحدُث، ولا أريد لابنتي أن تختلِط بها على الإطلاق يا سيد ليندسي! كل هذا الذي يجري هنا وهناك، في شأنٍ لا يعني ...»

كان السيد ليندسي سريع الغضب للغاية في بعض الأحيان، وأدركت أنه قد نفد صبره بالفعل. واستدار مُبتعدًا فجأةً وهو يزمجر وأمسك تشيسهولم من ذراعه.

وصاح وهو ينظر خلفه: «أنت أحمق، يا دنلوب.» وتابع: «لسانك بحاجةٍ إلى تهذيب! إذن، أيها الرقيب! ما كل هذا عن الآنسة دنلوب؟ هيا أخبِرني!»

انصرف حموي المستقبلي وهو يشعُر باستياءٍ شديد، لكن تشيسهولم شرح الأمور على عجلٍ.

وقال، وهو يُشير برأسه إلى أندرو وهو يبتعد: «إنه في حالةٍ من الغضب، يا سيد ليندسي.» وتابع: «قبل مجيئك، كان لديه اعتقاد راسخ بأنك أنت والسيد هيو قد أرسلتُما الفتاةَ مرةً أخرى في مهمةٍ ذاتِ صِلة بهذه الأمور الغامضة؛ فلم يكن لدَيه أي تفسيرٍ آخر. وأصدقك القول، كنت أنا نفسي أتساءل عما إذا كنتَ قد فعلت ذلك! ولكن بما أنك لم تفعل، فالمسألة هنا، وآمُل ألا يُصيب تلك الفتاة المسكينة مكروه، من أجل ...»

قلت: «أستحلفك بالله، يا رجل، أفصِح!» وتابعت: «كفى مُقدمات، وقُل قصتك!»

أجاب، بهدوء: «أنا فقط أشرح لك يا سيد هيو.» وتابع: «وأتفهَّم نفاد صبرك. إن الأمر هكذا، لأندرو دنلوب أختٌ مُتزوجة من رجل، مزارع أغنام، بيته بالقُرب من كولدزماوث هيل، بين ميندرم وكيرك يثولم ...»

قلت: «أعلم!» وأضفت: «تقصد السيدة هيسلتون. حسنًا، وماذا بعدُ يا رجل؟»

قال: «السيدة هيسلتون، بالطبع.» وتابع: «أصبتَ. وفي الليلة الماضية، حوالي الساعة السابعة مساءً، وصلت برقية إلى منزل عائلة دنلوب تقول إن السيدة هيسلتون أُصيبت بمرضٍ شديد، وهل من الممكن أن تذهب الآنسة دنلوب إليها؟ فذهبت على الفور، على درَّاجتها، وحدَها، ولم تصِل إلى المكان مُطلقًا!»

سأل السيد ليندسي بحدَّة: «كيف علمت ذلك؟»

أجاب تشيسهولم: «لأنه، في حوالي الساعة التاسعة صباحًا، أتى أحدُ أبناء هيسلتون إلى دنلوب ليُخبره أن والدته قد ماتت أثناء الليل؛ وعندئذٍ، بالطبع، سألوا هل وصلت الآنسة دنلوب في الوقت المناسب، فقال الفتى إنهم لم يرَوها مُطلقًا. وهذا كلُّ ما يمكن قوله، يا سيد ليندسي.»

كنتُ سأشرع في المغادرة، وفي ذهني، على ما أظن، فكرةُ ركوب دراجتي على الفور والانطلاق إلى مزرعة هيسلتون، عندما أمسك السيد ليندسي بمرفقي.

وقال: «تمهَّل يا فتى.» وتابع: «دعنا نفكِّر فيما نفعله. والآن، كم يبعُد المكان الذي كانت الفتاة ذاهبة إليه؟»

قلت على الفور: «سبعة عشر ميلًا.»

سأل: «هل تعرفه؟» وتابع: «والطريق المؤدي إليه؟»

أجبت: «لقد ذهبتُ معها إلى هناك، عدة مرات، يا سيد ليندسي.» وأضفت: «أنا أعرف كلَّ بوصةٍ في الطريق.»

قال: «تحرَّك الآن إذن! استأجِر أفضلَ سيارةٍ موجودة في المدينة، وانطلق! استفسِر على طول الطريق، وسيكون غريبًا ألا تتمكَّن من تتبُّع شيءٍ ما؛ لقد ذهبَتْ إلى رحلتها في وضح النهار. عليك إجراء بحثٍ شامل واستفسارٍ كامل؛ فلا بدَّ أن أحدًا ما قد شاهدها. ثم التفت إلى السيد سميتون الذي كان يقِف بالقُرب منه، مُستمعًا. وقال: «اذهب معه!» وأضاف: «ستُسديه صنيعًا جيدًا؛ فهو يحتاج إلى صحبة.»

سارعت أنا والسيد سميتون إلى خارج المحطة، حيث كانت تقف سيارة أو اثنتان في الساحة، فاخترنا الأفضل. وبينما كنَّا نركبها، جاء تشيسهولم إلينا.

وقال: «من الأفضل أن تتحدَّث مع رجالنا على طول الطريق، يا سيد هيو.» وتابع: «لا يُوجَد الكثير منهم بين مكانك هنا والمكان الذي ستذهب إليه، لكن لن يضيرك أن تعطِيَهم فكرةً عما تبحث عنه، وتطلُب منهم أن يُبقوا أعيُنهم مفتوحة، وآذانهم أيضًا، من أجل تلك المسألة.»

أجبت: «أجل، سنفعل ذلك، يا تشيسهولم.» ثم أضفت: «وأنتَ أبقِ عينَيك وأُذنَيك مفتوحتَين هنا في بيرويك! سأعطي عشرة جنيهات، عدًّا ونقدًا، لأول رجلٍ يقدِّم لي أخبارًا، ويُمكنك أن تنشر هذا الأمر كما تشاء، وفي الحال؛ سواء كان أندرو دنلوب يعتقد أن هذا إهدار للمال أم لا!»

وبعد ذلك انطلَقْنا، وربما ليَجذبني بعيدًا عن الكثير من المخاوف، بدأ السيد سميتون يسألني عن الطريق الذي قد تسلُكه مايسي للوصول إلى مزرعة عائلة هيسلتون، الطريق الذي كنَّا بالطبع، نسلكه بأنفسنا. وشرحتُ له أن الطريق السريع العادي الذي يمرُّ بين بيرويك وكيلسو هو الطريق الوحيد الذي يُمكن أن تسلكه مايسي، حتى تصِل إلى كورنهيل، حيث ستتَّجه جنوبًا عبر ميندرم ميل، ثم — إن كان لهذه الحقيقة أي صِلةٍ باختفائها — ستدخل إلى منطقةٍ مُوحشة من الريف على الحافة الشمالية من تلال تشفيوتس.

سأل: «أتوقَّع أنه تُوجَد أماكن، قرًى وما شابه، على طول الطريق، أليس كذلك؟»

أجبت: «إنه طريق مُنعزل، يا سيد سميتون.» وتابعت: «أنا أعرفه جيدًا؛ الأماكن الموجودة فيه، بعيدة عن الطريق وليست قريبة، ولكن لا يُوجَد جزء منه خارج نطاق ما يمكن أن تُسميه متناول البشر. ولا أعلم كيف يمكن لأي شخصٍ أن يختفي فيه خلال أُمسية صيف، ما لم نكن قد عُدنا بالفعل إلى أزمنة الاختطاف القديمة. ولو كنتَ تعرف مايسي دنلوب، لكنتَ ستعرف أنها من النوع الذي سيخوض معركةً إذا تعدَّى عليها أحد! أنا أتساءل عما إذا كان هذا الأمر له علاقة بقضية كارستيرز تلك؟ ثمة جوٌّ من الغموض حول ذلك، وخسَّة شديدة، لدرجةِ أنني أتمنَّى لو لم أسمع بالاسم أبدًا!»

أجاب: «أجل.» وتابع: «أنا أفهمك. لكن، أوشك الأمر على نهايته. وبطرُق غريبة، بطرق غريبة، حقًّا!»

لم أجِبه، وكنتُ قد سئمتُ من أمور كارستيرز؛ إذ بدا لي أنني كنتُ آكُل وأشرب وأعيش وأنام مع القتل والاحتيال حتى اختنقتُ من التفكير فيهما. قلت لنفسي، دعْني أجد مايسي فقط، وسأبتعِد عن أي شيءٍ له صلة بالأمر الشرير برمَّته.

لكننا لم نعثُر على مايسي خلال الساعات الطويلة من عصر ذلك اليوم المُرهق والمساء الذي أعقبه. كان السيد ليندسي قد أمرَني بالاحتفاظ بالسيارة وعدم ادِّخار أي نفقات، فتجوَّلنا هنا وهناك في جميع أنحاء المنطقة، بحثًا عن أخبارٍ ولم نحصُل على أيٍّ منها. كانت قد شُوهدت مرة واحدة فقط، في إيست أورد، خارج بيرويك مباشرةً، من قِبَل رجلٍ كان يعمل في حديقة كوخه الواقع على جانب الطريق، لم نتمكَّن من الحصول على أي أخبارٍ أخرى. بحثنا على طول الطريق المُمتد بجانب بومونت واتر، بين ميندرم ويتهولمز، مُكرِّسين أنفسنا بشكلٍ خاص لهذا الامتداد باعتباره الأكثر انعزالًا، ودون نتيجة. ومع حلول الشفق، وقد نال منَّا التعب، عُدنا باتجاه البلدة، وأنا أشعر بيأسٍ أكثرَ بكثيرٍ مما شعرتُ به عندما كنتُ أسبَح للنجاة بحياتي في بحر الشمال.

صحتُ بعد أن توقَّفنا عن البحث في ذلك الوقت: «وأنا مُتأكِّد تمامًا من حقيقة الأمر، الآن، يا سيد سميتون!» ثم أضفت: «ثمة لعبة قذرة! وسأجعل كل رجال الشرطة في نورثمبرلاند يعملون لحلِّ هذه القضية، أو ...»

قال: «أجل! إن هذه مهمة الشرطة، بلا شك، يا مونيلوز. من الأفضل أن نعود إلى بيرويك، ونحثَّ موراي على توجيه رجاله للعمل على تلك القضية.»

ذهبنا أولًا إلى منزل السيد ليندسي عندما عدنا، حيث كان منزله في طريقنا. وعندما رآنا أسرع للخارج ثم أخذَنا إلى مكتبه. كان معه هناك سيد مُحترم؛ السيد ريدلي، رجل الدين الذي كان قد قدَّم أدلةً حول جيلفرثويت عند افتتاح التحقيق في قضية فيليبس.

الفصل الثاني والثلاثون

الصلة

علمتُ من خلال نظرةٍ خاطفة واحدة على وجه السيد ليندسي أنه كانت لديه أخبار لنا؛ ولكن لم يكن يُوجَد سوى نوعٍ واحد من الأخبار التي كنتُ أريدها في تلك اللحظة، وأدركتُ بنفس السرعة أنه، أيًّا كانت الأخبار التي لدَيه، فهي لم تكن لي. وبمجرد أن سمعتُه يقول إنه لم يسمع أيَّ شيءٍ عن مايسي دنلوب أثناء غيابنا، كنتُ سأُغادر، عازمًا على أن أبدأ تحرياتٍ أُجريها بنفسي في المدينة، في التو واللحظة، وبكل إصرار. لكن قبل أن أصل إلى الباب أمسكني بيده.

وقال، بطريقته المُسيطرة التي لا يقوى أحدٌ على مُقاومتها: «هيا ادخُل، يا ولدي، واجلس لتناوُلِ عشائك أنت والسيد سميتون فقد أُعِدَّ لكما.» ثم أضاف: «لا يُمكنك فعْل المزيد الآن؛ فقد أُجريتُ كلَّ الترتيبات المُمكنة مع الشرطة، وهم يجوبون الريف. لذا اجلس على هذا الكرسي، وتناول الطعام والشراب، وستُصبح أفضل حالًا لمواصلة البحث. يا سيد سميتون»، تابع، بينما يأخذنا معًا إلى مائدة العشاء ويبدأ في تقديم الطعام لنا، «لديَّ أخبار لك، وهي، في رأيي، أخبار تهمك أكثرَ من أي رجلٍ له علاقة بها. لقد اكتشف السيد ريدلي شيئًا له صِلة بمايكل كارستيرز من شأنه أن يُغيِّر مجرى الأحداث بالكامل! خاصةً إذا أثبتنا، مثلما لا شكَّ لديَّ في أننا سنفعل، أن مايكل كارستيرز هو والدك، الذي كنت تعرفه باسم مارتن سميتون.»

استدار سميتون في كُرسيه ونظر إلى السيد ريدلي، الذي، بعد أن تناول هو والسيد ليندسي العشاء قبل مجيئنا، كان جالسًا في زاوية بجوار المدفأة، يتفحَّص الغريب القادم من دندي باهتمامٍ واضحٍ وفضولي.

وقال: «لقد سمعتُ عنك، يا سيدي.» وتابع: «لقد قدَّمت بعض الأدلة في التحقيق عن مقتل فيليبس حول بحث جيلفرثويت في سجلَّاتك، على ما أظن، أليس كذلك؟»

قال السيد ليندسي: «أجل، ومن حُسن الحظ — ويُظْهِرُ كيف يؤدي شيءٌ إلى آخر — أن جيلفرثويت ذهب إلى السيد ريدلي!» وتابع: «لقد وضع هذا السيد ريدلي على مسار، وأخذ يتابعه، ولاختصار الأمور، وجد تفاصيلَ عن زواج مايكل كارستيرز، الذي قيل إنه تُوفِّي دون أن يتزوَّج. وتمنَّيت لو لم يكن بورتلثورب قد رجع إلى المنزل في نيوكاسل قبل أن يأتي إليَّ السيد ريدلي بالأخبار.»

مع أني كنتُ متعبًا، ومُنفطر القلب للغاية بشأن مايسي، أصغيتُ السمع لذلك. لأنه على فترات مُتقطعة، ناقشنا أنا والسيد ليندسي احتمالات هذه القضية، وعرفتُ أن ثمَّة احتمالًا قويًّا لاكتشاف أن مارتن سميتون الغامض لم يكن سوى مايكل كارستيرز الذي غادر هاثركلو إلى الأبد وهو شاب. وإن ثبت أنه كان مُتزوجًا، وأن جافين سميتون هو ابنه الشرعي، عجبًا، عندئذٍ … لكن السيد ريدلي كان يتحدَّث، وقد قطعتُ تكهُّناتي الخاصة للاستماع إليه.

قال: «لا أستحقُّ الكثير من الشكر على هذا، يا سيد سميتون.» ثم أضاف: «بطبيعة الحال كان يُوجَد قدرٌ كبير من الحديث في المنطقة بعد ذلك التحقيق في قضية فيليبس؛ إذ بدأ الناس يتساءلون عما كان ذلك الرجل جيلفرثويت يُريد أن يجده في سجلات الأبرشية، والتي، كما أعلم الآن، فحص عددًا كبيرًا منها، على كِلا جانبي نهر تويد. وفي المسار العادي للأمور — وإذا أجرى شخصٌ ما بحثًا مُحدَّدًا بهدفٍ محدَّد — فإن ما عُثِر عليه الآن كان يمكن العثور عليه في الحال. لكنني سأُخبرك كيف كان الأمر. منذ ما يصل إلى ثلاثين عامًا، كانت تُوجَد كنيسة أبرشية قديمة في الجزء الأكثر انعزالًا من تلال تشفيوتس وكانت تخدم قريةً اختفت تدريجيًّا من الوجود، مع أنها لا تزال تحمِل اسمًا، وولهولم، ولا يُوجَد سوى منزل أو اثنَين فيها حاليًّا؛ ولأنه لم يكن يُوجَد هناك أيُّ طائفة، والكنيسة نفسها أصبحت مُتهدِّمة، أُلغِيت الأبرشية القديمة، ودُمِجَت في أبرشية فيلسايد المجاورة، التي يمتلك كاهنها، صديقي السيد لونجفيلد، سجلات وولهولم القديمة في حوزته. وعندما قرأ عن تحقيق فيليبس، وما قلته آنذاك، فكَّر في تلك السجلات وأخرجها، من صندوقٍ مكثَتْ فيه لمدة ثلاثين عامًا على أي حال، ووجد على الفور بيانات زواج مايكل كارستيرز من ماري سميتون، والذي كان بموجبِ تصريح، وعقَده آخِرُ قسٍّ في وولهولم؛ كان، في الواقع، آخرَ زيجة تُعقَد على الإطلاق في الكنيسة القديمة. وينبغي أن أقول»، اختتم السيد ريدلي،

«كان ذلك ما يُمكن أن نُطلق عليه زفافًا سريًّا؛ سريًّا، على أي حال، لدرجةِ أنه مع كونه أُقيمَ بتصريح، ومع أن الكنيسة القديمة كانت في مكانٍ ناءٍ ومعزولٍ للغاية، بعيدًا عن أي مكان، ومع ذلك لم يَعرف بأمره سوى رجل الدين المسئول والشاهدَين، الذين كان يمكن بالطبع، أن يُطلَب منهم أن يلتزموا الصمت بشأن الأمر، وهو ما حدث على الأرجح. ولكن تُوجَد نسخة من البيانات في السجل القديم.»

تصفَّحتُ أنا وسميتون بتلهُّف قطعة الورق التي مرَّرها السيد ريدلي. ولم يسأل هذا الأخير، الذي كان ذلك الأمر يَعنيه بشدة، إلا سؤالًا واحدًا:

«أتساءل عما إذا كان بوسعي اكتشاف أيِّ شيءٍ عن ماري سميتون!»

علَّق السيد ريدلي قائلًا: «لقد أجرى السيد لونجفيلد بالفعل بعض التحقيقات المُستترة مع اثنَين أو ثلاثة من كبار السنِّ في المنطقة حول تلك النقطة.» ثم أضاف: «لقد تُوفِّي الشاهدان على الزواج، منذ سنوات. لكن يُوجَد أناس يعيشون في المنطقة يتذكَّرون ماري سميتون. الحقائق هي ما يلي: كانت شابةً جميلة جدًّا، لم تكن من مواطني المنطقة، وقد جاءت للخدمة في إحدى المزارع في تلال تشفيوتس، ومن خلال مقارنة التواريخ، يتبيَّن أنها تركت عملَها على نحوٍ مُفاجئ إلى حدٍّ ما بعد ذلك الزواج بوقتٍ قصير.»

التفت سميتون إلى السيد ليندسي بنفس الأسلوب الهادئ.

وسأل: «ما رأيك في كل هذا؟»

أجاب السيد ليندسي بأسلوبه البالِغ الثقة: «الأمر واضح كالشمس.» وتابع: «لقد أُغرِم مايكل كارستيرز بهذه الفتاة وتزوَّجها في هدوء؛ فكما يقول السيد ريدلي، نظرًا لأن الزواج عُقِد بتصريح، فمِن المُحتمل، بل من المؤكد، أنه لم يعرف أحدٌ أيَّ شيءٍ عن الأمر سوى القس والشاهدَين. وأظن أنه بعد الزواج مباشرةً غادر مايكل كارستيرز وزوجته إلى أمريكا، وأنه، لأسبابٍ خاصة به، تخلَّى عن لقب عائلته المُستَحَق واتَّخذ لقب عائلتها. علاوة على ذلك»، اختتم كلامه، وهو يضرب بكفِّه على ركبته، «ليس لديَّ أي شكٍّ في أنك ثمرة ذلك الزواج، وأن اسمك الحقيقي هو جافين كارستيرز، وأنك وريث البارونية، وأنك ... المالك الحقيقي لهاثركلو، وهو الأمر الذي سيُسعدني أن أُثبته.»

قال سميتون، بهدوءٍ كعادته: «سنرى.» ثم أضاف: «ولكن ... أمامنا الكثير ممَّا يتعيَّن علينا فعلُه قبل أن نصِل إلى تلك النقطة، يا سيد ليندسي! المالك الحالي، أو المُدَّعي، على سبيل المثال، ماذا عنه؟»

أجاب السيد ليندسي: «لقد أصررتُ على أن تضع الشُّرطة كلَّ ذرةٍ من الآليات المُتاحة في إطار جهدٍ مبذولٍ للقبض عليه.» ثم أضاف: «لم ينقُل موراي فحسب كلَّ ما أخبرَنا به هولينز الليلة الماضية لشرطة جلاسجو هذا الصباح، وهو ما كان أول شيءٍ شرع في فعله، لكنه أرسل رجلًا إلى هناك مع أخبارٍ وافية للغاية؛ كما أبرق لسلطات لندن، وطلب مساعدة مُحقِّقٍ خاص. وحصل على اثنين من المُحقِّقين من نيوكاسل؛ وكل ما يمكن فعْله قد فُعِل. ومن أجلك أيضًا، يا هيو، يا ولدي!» أضاف، وهو يلتفت نحوي فجأة. وقال: «أيًّا كان ما تبذُله الشرطة في الاتجاه الآخر، فهي تبذل مثله من أجل قضيتك. لأنه، مع القُبح الذي قد يبدو عليه الأمر، لا يُوجَد شيء يُضاهي مواجهة الحقائق، وأخشى، أخشى كثيرًا، أن يكون اختفاء مايسي دنلوب هذا له صِلة بهذه الجرائم الحقيرة التي حدثت … أخشى ذلك بالفعل!»

دفعتُ طبقي بعيدًا عند سماع ذلك، وانتصبتُ واقفًا. كنتُ أنا نفسي أرتعد خوفًا من ذلك، طوال اليوم، لكنني لم أجرؤ مُطلقًا على التفوُّه به.

وسألته: «أتقصد، يا سيد ليندسي، أنها بطريقةٍ ما وقعَتْ في أيدي … ماذا؟ مَن؟»

أجاب وهو يهزُّ رأسه أسفًا: «شيءٌ ما وشخصٌ ما في أعماق كل هذا!» وتابع: «للأسف، يا ولدي، للأسف!»

بعد ذلك تركتهم جميعًا، ولم يُحاول أحد إيقافي، تلك المرة؛ فربما رأوا في وجهي أنه لا فائدة من المحاولة. غادرتُ المنزل، وذهبت، دون وعي، على ما أظن، بعيدًا عبر البلدة إلى منزل والدتي، دافعًا أظافري في راحة يدي من التوتُّر، وأنا ألعن السير جيلبرت كارستيرز — شعرت وكأن هذا هو اسم الشيطان! — وأنا أصِرُّ على أسناني. ومِن لعنِه انتقلت للعنِ نفسي؛ لأنني لم أُبلِغ على الفور أنني رأيتُه عند مُفترق الطرق في الليلة التي ذهبتُ فيها لقضاء مهمة جيلفرثويت.

كان الوقت متأخِّرًا عندما وصلنا أنا وسميتون إلى منزل السيد ليندسي، وكان الليل قد هبط حينئذٍ على المدينة؛ ليل أسود حالك، تكتنِفه غيوم هائلة تُنذِر بعاصفةٍ رعدية. كان منزلنا في جزءٍ سيئ الإضاءة من الشارع، وكان كئيبًا بما فيه الكفاية عندما اقتربت، وأنا أتناقش في نفسي حول ما يُمكنني فِعْله أكثر؛ كنتُ أعرف أنه لا ينبغي لي النومُ حتى أتلقَّى أنباءً عن مايسي. ووسط تخميناتي، خرج رجل من زاوية زقاقٍ ضيِّق يمتدُّ من زاوية منزلنا، ولمس مرفقي. كان ثمة بصيص من الضوء عبر نافذة أحد الجيران؛ من

خلاله استطعت تمييز أن الرجل هو شخص اسمه سكوت يشتغل بأعمال بستنةٍ قليلة هنا وهناك في المنطقة.

قال وهو يجذبني إلى ظلال الزقاق: «ابقَ هادئًا، يا سيد هيو! لقد كنتُ أنتظر مجيئك، أريد التحدُّث معك على انفراد.»

فقلت: «حسنًا، ماذا تريد؟»

قال بحماس: «سمعتُ أنك تَعِد بعشرة جنيهات، نقدًا في الحال، للرجل الذي يُمكنه أن يُقدِّم لك بعض الأخبار عن خطيبتك؟» وتابع: «هل هذا صحيح؟»

سألت: «هل يُمكنك ذلك؟» وتابعت: «لأنك إن فعلت، فسترى على الفور أن الأمر صحيح.»

رجاني، وقد سمح لنفسه مرةً أخرى أن يُمسك ذراعي: «هل ستكون عقلانيًّا حيال ذلك؟» ثم أضاف: «إذا لم أتمكَّن بالضبط من منحك ما تُسمِّيه أخبارًا دقيقةً ومُحدَّدة، فهل ستعتبرها نفسَ الشيء إذا قدَّمت تلميحًا يا سيد هيو؟ تلميحًا من شأنه أن يؤدي إلى شيءٍ ما؟»

صِحتُ: «أجل، سأفعل!» وتابعت: «وإذا كان لدَيك أي تلميحات يا سكوت، فأفصح عنها، ولا داعيَ للَّفِّ والدوران! أخبِرني بأي شيءٍ يؤدي إلى كشف الغموض، وستحصل على العشرة جنيهات فورًا.»

أجاب: «حسنًا، يجب أن أكون مُتأكدًا، لأنني رجل فقير، كما تعلم، وأطفالي صغار، وسيكون سيئًا أن أُلمِّح إلى أي شيءٍ من شأنه قطْع لقمة عيشهم، ولقمة عيشي. ولديَّ الآن فرصة للحصول على وظيفةٍ جيدة، ومُنتظمة في هاثركلو، ولا أرغب في المجازفة بإضاعتها.»

سألته بلهفة: «إنك تتحدَّث عن هاثركلو إذن، أليس كذلك؟» ثم أضفت: «بحقِّ الرب يا رجل، أفصِح! ما الذي يُمكنك أن تُخبرني به؟»

رجاني قائلًا: «لن تُخبر مخلوقًا بما سأقول، في أي وقت، حاضرًا أو مستقبلًا، يا سيد هيو، أليس كذلك؟»

صِحت بلهفة: «ويحك، يا رجل، لن أنطق بكلمة!» وتابعت: «لن أُفصح أبدًا أنني سمعتُ كلمة منك في هذا الشأن!»

همس، وهو يقترب منِّي أكثر: «حسنًا، إذن، ضع في اعتبارك أنه لا يُمكنني قول أي شيءٍ على وجه اليقين؛ إنه مجرد تلميح أعطيك إيَّاه، ولكن لو كنتُ مكانك، لكنتُ سآخُذ

جولةً هادئة في ذلك الجزء العتيق من هاثركلو هاوس، كنتُ سأفعل ذلك بالتأكيد! إنه لا يُستخدَم أبدًا، كما تعلم، لا أحد يقترب منه مُطلقًا، ولكن، يا سيد هيو، أيًّا كان وكيفما كان الأمر، فإن ثمة شخصًا ما فيه الآن!»

صِحت: «الجزء العتيق!» وتابعت: «جزء البرج، أليس كذلك؟»

أجاب: «بلى، بالتأكيد!» ثم أضاف: «إذا كان بإمكانك الوصول إليه بهدوء …»

أمسكتُ ذراعه بقبضتي بقوَّة ربما تكون قد أوحت بالكثير.

وقلت: «سأراك على انفرادٍ غدًا يا سكوت.» ثم أضفت: «وإذا كانت أخبارك ذات نفع، يا رجل، فستحصل على العشرة جنيهات في يدك بمجرد أن أراك!»

بعد ذلك انطلقتُ مُبتعدًا عنه ودخلتُ مُسرعًا إلى مدخل منزلنا.

الفصل الثالث والثلاثون

البرج العتيق

كانت والدتي تمارس أشغال الإبرة، على كُرسيها المُريح، في ركنها الخاص من غرفة المعيشة عندما دخلتُ مُسرعًا، وعلى الرغم من أنها انتفضت عندما رأتني، فقد استمرَّت في التطريز بطريقةٍ منهجية كما لو كان العالَم كله مُتسقًا مثل غُرَزها.

وقالت، مع مسحةٍ من الحدة تتحدَّث بها في بعض الأحيان: «إذن فقد حططتَ على سطح منزلك أخيرًا، يا رجُلي!» ثم أضافت: «سيقول البعض إنك قد نسيتَ الطريق إليه، بحُكم التجربة؛ لماذا لم تُخبرني أنك لن تعود إلى المنزل الليلة الماضية، وأنت في البلدة، حسبما سمعتُ من البعض؟»

فصِحت: «كفى يا أمي.» وتابعت: «كيف يُمكنك طرح مثل هذه الأسئلة وأنت تعرفين ما عليه الأمور! لقد وصلتُ أنا والسيد ليندسي من نيوكاسل في منتصف الليل، وجعلني أبيتُ في منزله، ثم غادرنا مرةً أخرى إلى إدنبرة في الصباح الباكر.»

ردَّت: «أجل، حسنًا، إذا كان السيد ليندسي يُحِب إنفاق أمواله في التجوال حول البلاد، فليفعل ما يحلو له!» وتابعت: «لكنَّني سأُصبح مُمتنَّةً عندما تعود إلى حياتك المُستقرة الآمنة. إلى أين أنت ذاهب الآن؟» تساءلت بحدَّة. وأضافت: «يُوجَد عَشاء دافئ من أجلك في الفرن!»

قلت، وأنا أسحب درَّاجتي من الجزء الخلفي للمنزل: «لقد تناولتُ العشاء في منزل السيد ليندسي، يا أمي.» وتابعت: «يجب أن أخرج من توِّي، سواء أردتُ أم لا، ولا أعرف أيضًا متى سأعود، هل تَظنِّين أن بوسعي النوم في سريري وأنا لا أعرف أين مايسي؟»

أجابت: «لن تفلح أن تفعل، يا هيو، ما فشِلَت فيه الشرطة.» وتابعت: «لقد جاء ذلك الرجل تشيسهولم إلى هنا خلال المساء، وأخبرَني أنهم لم يعثروا على أي أثرٍ لها، حتى الآن.»

صِحت: «إذن تشيسهولم كان هنا؟» وتابعت: «من أجل ذلك فقط؟»

أجابت: «نعم، من أجل ذلك فقط.» ثم أضافت: «ثم في هذه الظهيرة، جاءت تلك السيدة الأيرلندية التي كانت تخدم بمنزل كرون، تسأل عنك عند الباب.»

قلت: «عجبًا، نانسي ماجواير!» وتابعت: «ماذا كانت تريد؟»

ردَّت والدتي: «تُريدك أنت!» ثم أضافت: «صار يأتي إلى بابنا نوعٌ لطيفٌ من الناس هذه الأيام؛ الشرطة، والقتلة، والأيرلنديون ...»

قاطعتُها قائلًا: «هل قالت لماذا كانت تريدني؟»

قالت والدتي: «لم أمنحها فرصة.» وتابعت: «هل تظنُّ أنني كنتُ سأخوض في حديثٍ مع مخلوقةٍ مثل هذه على عتبة منزلي؟»

صِحتُ فيها بينما أُغادر: «أنا على استعدادٍ للتحدُّث مع الشيطان نفسه، يا أمي، إذا استطعتُ الحصول على بعض الأخبار عن مايسي!» ثم أضفت: «أنتِ سيئة مِثل أندرو دنلوب!»

كان باب المنزل حائلًا بيني وبينها قبل أن تتمكَّن من الردِّ على ذلك، وفي اللحظة التالية وضعتُ درَّاجتي على الطريق وساقي فوق المقعد، وتردَّدتُ قبل أن أضع قدَمي على البدال. ماذا أرادت منِّي نانسي ماجواير؟ هل كان لديها أي أخبار عن مايسي؟ كان من الغريب أن تأتي إلى منزلي؛ هل من الأفضل أن أقود دراجتي عبر البلدة وأذهب لمُقابلتها؟ لكنني فكَّرتُ في أنه لو كان لديها أي أخبار، وهو ما كان أمرًا غير مُحتمَل للغاية، لكانت ستُبلغها للشرطة؛ وإذ كنت مُتلهفًا للغاية لاختبارِ ما ألمح إليه سكوت، قُدت درَّاجتي دون مزيدٍ من التأخير أو التفكير وذهبت نحو هاثركلو.

وبينما كنتُ أعبر الجسر القديم، في بداية هبوب العاصفة القادمة، شعرتُ باستنارةٍ جاءت فجأة مثلما جاء وَمِيض البرق الذي أعقب ذلك على الفور. لقد كان باعثًا على دهشتي طوال اليوم أن لا أحد، باستثناء رجلٍ واحد في إيست أورد، لاحظ مايسي وهي تسير على طول الطريق بين بيرويك وميندرم في الليلة السابقة، وحينئذٍ تذكَّرت، وأخذتُ ألوم نفسي على أنني لم أتذكَّر من قبل، أنه يُوجَد طريق مختصر، بناءً على حقِّ مرور مُعيَّن، من خلال أراضي هاثركلو هاوس، كان من شأنه أن يوفِّر عليها ثلاثة أميال في رحلتها. من الطبيعي أنها كانت مُتلهِّفة على الوصول إلى عمَّتها في أسرعِ وقتٍ مُمكن، وكانت ستفكِّر في أقرب طريق، وكانت ستسلكه. عندئذٍ بدأتُ أدرك الأمر بِرمَّته: لقد ذهبت مايسي إلى أراضي هاثركلو، ولم تُغادرها أبدًا!

هذا الإدراك جعل الخوف يَعتريني. كانت فكرة أن تكون فتاتي مُحتجزة من قِبَل رجل شرير، بقدر الشر الذي كنت أومن إيمانًا راسخًا بأن الرجل الذي نعرفه باسم السير جيلبرت كارستيرز يتصف به، كافيةً لزعزعة كل عصبٍ في جسدي، لكن التفكير في أنها كانت تحت رحمته لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، بمُفردها، بلا حماية، أصابني بدوارٍ يفوق تحمُّلي. فشعرتُ بضعفٍ في جسدي وعقلي. ومع ذلك، يعلم الرب، لم يجُل في خَلدي على الإطلاق أيُّ تفكيرٍ انهزامي. ما شعرتُ به هو أنني يجِب أن أصل إلى هناك، وأن أبذل بعض الجهدِ الذي من شأنه أن يضع حدًّا لقلق كِلَينا. كنتُ قد بدأت في رؤية كيف يمكن أن تكون الأمور؛ فعند مرورها عبر تلك الأراضي ربما يكون قد صادفها شيءٌ ما، أو شخصٌ ما، أو السير جيلبرت نفسه، الذي، بطبيعة الحال، لن يسمح أن يهرُب منه أيُّ شخصٍ يُمكن أن يُخبرنا بأيِّ شيءٍ عن مكان وجوده. ولكن إذا كان في هاثركلو، فماذا عن الحكاية التي أخبرَنا بها هولينز الليلة السابقة؟ كلَّا، ذلك الصباح؛ لأن الوقت كان بعد منتصف الليل عندما جلس هناك في رَدهة السيد ليندسي. وفجأة، خطرَتْ لي فكرة أخرى؛ سواء كانت تلك الحكاية صحيحة، أو كان الرجل يُخبرنا حفنة من الأكاذيب، أكان كل ذلك من أجل غايةٍ ما؟ في مواجهة هذه الفكرة الأخيرة كانت تُوجَد، بالطبع، قصاصة الرسالة المُمزَّقة لدحضها، ولكن … ولكن لنفترض أن هذا كله كان جزءًا من مؤامرة، الغرَض منها خداعنا بينما يهرُب هؤلاء الأشرار — باعتبار أن هولينز كان مشاركًا في لعبة الرجل الآخر — في اتجاهٍ مختلف تمامًا؟ إن كان الأمر كذلك، فقد نجحت؛ لأننا كنَّا قد ابتلعنا الطُّعم، وكان كل الاهتمام مُوجَّهًا إلى جلاسجو، وليس إلى أي مكانٍ آخر، وبقدرِ ما كنتُ أعرف، بالتأكيد ليس إلى ضيعة هاثركلو نفسها، حيث لم يتوقَّع أحد أن يعود السير جيلبرت إليها.

لكن هذه كلها كانت تكهُّنات، وكان الأمر الرئيسي هو الوصول إلى هاثركلو، والتصرُّف بناءً على التلميح الذي كنتُ قد تلقيتُه للتوِّ من سكوت، وإلقاء نظرةٍ في أنحاء الجزء العتيق من المنزل الكبير، قدرَ استطاعتي. لم يكن من الصعب الوصول إلى هناك، على الرغم من أنني كنتُ على درايةٍ بسيطة بالمنزل والأراضي؛ إذ لم أذهب إلى هناك قطُّ إلا ليلة زيارتي للسير جيلبرت كارستيرز. كنتُ أعرف جيدًا المناطق المُحيطة بما يكفي لأن أعرف كيفية الدخول بين الشُّجيرات والنباتات، كان بإمكاني الدخول إلى هناك دون أن يُلاحِظني أحد في النهار، وكانت حينئذٍ ليلة ظلماء. كنتُ قد حرصتُ على إطفاء مِصباحي بمجرد عبوري الجسر الحدودي، والآن، وأنا أقود دراجتي في الظلام، كنتُ في مأمنٍ من ملاحظة أي عدوٍ

مُحتمل. وقبل أن أصل إلى الحدود الفعلية لهاثركلو، ترجَّلت عن الدرَّاجة، وأخفيتُها بين الشجيرات على جانب الطريق، وبدلًا من الدخول إلى الأراضي عبر الطريق الخاص الذي كنتُ مقتنعًا بأنه لا بد أن تكون مايسي قد سلكته، تسلَّقت سياجًا وتقدَّمت عبر مجموعةٍ من شجر الصنوبر الصغير في اتجاه المنزل. بعد برهةٍ أصبح لديَّ القدرة على تحديد طريقي نحوه؛ إذ بعدما نزعتُ بهدوءٍ آخِرَ الفروع الخفيفة التي كنتُ قد شققتُ طريقي عبرها بهدوء، وخرجتُ على حافة الحديقة المفتوحة، أظهر لي وميضُ برقٍ قوي المبنى الكبيرَ رابضًا على هضبته أمامي مباشرةً، على بُعد رُبع ميل، بأبراجه وأسطُحه المائلة التي التمعت بوضوحٍ في الوهج. وعندما اختفى ذلك الوهج، بنفس السرعة التي ظهر بها، وسادت الظُّلمة الشديدة مرةً أخرى، بدا وميضٌ من الضوء، قادمًا من نافذةٍ أو أخرى، فاتجهتُ نحوه، بسرعةٍ وصمتٍ فوق المساحة المنبسطة، لا يخلوان من خوفٍ من أنه إذا تصادف وجود أيِّ شخصٍ يحرس المكان فقد يكشف وميضُ برقٍ آخر عن هيئتي بينما أتقدَّم.

لكن لم يكن ثمَّة المزيد من البرق حتى وصلتُ إلى الهضبة التي بُني عليها هاثركلو، ولكن عندئذٍ سطع وميض برق يغشي الأبصار أكثر من الأخير، تبِعَه على الفور هزيم رعد. في ذلك الوميض رأيتُ أنني كنتُ حينئذٍ قريبًا من البقعة التي أردتُها بالضبط، الجزء العتيق من المنزل. رأيت، أيضًا، أنه بين المكان الذي وقفتُ فيه والجدران لم يكن يُوجَد ساتر من الشُّجيرات أو من الأجمات أو الصنوبر، لم تكن تُوجَد سوى مساحةٍ عُشبية مجزوزة يتعيَّن عليَّ عبورها. فعبرتُها في الظلام، في التوِّ واللحظة، مُسرعًا إلى الأمام وبعد قليلٍ لمَسَتْ يدايَ الممدودتان البناءَ الحجري. في نفس اللحظة انهمر المطر كالسَّيل. وفي نفس اللحظة، أيضًا، حلَّ شيء آخر أضعفَ معنوياتي أكثرَ من أي مطرٍ يُمكن أن يُبلل بشرتي، مهما كان غزيرًا وثقيلًا، وهو الإحساس بعجزي التام. ها أنا ذا، بعدما تصرفتُ باندفاع، عند سفح كتلةٍ من حجارة رمادية كانت ذات يومٍ منيعة، وكانت لا تزال تبعث على الخوف! لم أكن أعرف كيف أدخُل، ولا كيف أُلقي نظرةً على ما بالداخل، لو كان ذلك مُمكنًا؛ وأدركتُ الآن أنه كان يجب أن آتي برفقة فرقةٍ من الشرطة لها سُلطة تفتيش المكان بأكمله، من أوله إلى آخره ومن أعلاه إلى أسفله. وفكَّرت، مع شعور سخريةٍ كئيب، أنَّ فعْلَ ذلك كان من شأنه أن يكون مهمةً طويلة جدًّا لعشرة رجال؛ إذن، كيف سيكون الحال وقد اضطلعتُ بها بمفردي؟

في هذه اللحظة، بينما كنتُ أتشبَّث بالجدار، مُحتميًا قدرَ استطاعتي من المطر الغزير، سمعت من خلال دقَّاته المُستمرة دقًّا مُستمرًّا بنفس القدر كما لو كان لآلةٍ ما. كان صوتًا خافتًا للغاية، لا يكاد يكون واضحًا، لكنه كان موجودًا، ولا يمكن أن تُخطئه أُذني. وفجأة، رغم أننا في تلك الأيام كنَّا بدأنا مؤخَّرًا نعتاده، عرفتُ ما هو؛ كان صوت مُحرِّكِ نوعٍ من السيارات؛ لكنه لم يكن يعمل، جاء الصوت من الغلايات أو المُكثفات، أو أيًّا كان اسم تلك الأشياء التي يستخدمونها في السيارات البخارية. وكان قريبًا، قريبًا من يدي اليُمنى، على امتداد خطِّ الجدار الذي كنتُ أرتعِد تحته. شيءٌ ما ألهب فضولي! ما الذي تفعله سيارة هناك، في تلك الساعة؛ إذ كان الوقت حينئذٍ يُشارف على منتصف الليل، وبهذا القُرب من مكان شِبهِ مُتهدِّم مثل هذا؟ وعندئذٍ، غيرَ عابئ بالمطر الذي اعتبرتُه ليس أكثر من زخَّات ربيع، بدأتُ ببطءٍ أزحف على طول الجدار في اتجاه الصوت.

وهنا ستفهم وضع الأشياء فهمًا أفضل، إذا قلتُ إن الجزء الصالح للسكنى في هاثركلو كان بعيدًا عن الجزء العتيق الذي أتيتُ إليه. كانت الكتلة الكاملة للمبنى، العتيق والجديد، ذات امتدادٍ شاسع، ويفصل المبنى العتيق عن الجديد جناحٌ مُتهدِّم ومُدَمَّر تمامًا، ومُغطًّى منذ فترةٍ طويلة باللبلاب. أما المبنى العتيق فكان يُوجَد في أحد أركانه بُرج مُربع كبير، له جدران مُمتدة من زاويتَيه؛ وكنتُ حينئذٍ أزحف على امتداد أحد هذه الجدران. وبعد برهةٍ، بينما أخذ صوت النبض اللطيف يتصاعد قليلًا وأنا أشقُّ طريقي، وصلتُ إلى البرج، وإلى البوابة الغائرة فيه، وعرفتُ على الفور أنه في داخل تلك البوابة كانت تُوجَد سيارة موضوعة هناك، وجاهزة للمغادرة.

مُتلمسًا بهدوءٍ بحثًا عن ركن البوابة، نظرتُ حولي، بحذَر، خشيةَ أن يكشف وجودي ضوء مصباح أمامي في السيارة. لكن لم يكن يُوجَد ضوء، ولم يكن يُوجَد صوت سوى الخفقان المُستمر للبخار والهطول المُتواصِل للمطر خلفي. وبعد ذلك، بينما كنتُ أنظر، سطع وميض ثالث للبرق، وأضاء المشهد بأكمله أمامي؛ البوابة الغائرة بسقفها المُتعرِّج والمُقوَّس، والجدران المظلمة على الجانبَين، والبناء الحجري الهائل المُظلم خلفها، وهناك، داخل المَوئل، سيارة صغيرة، جديدة تمامًا، من الواضح أنها قوية وجيدة الصُّنع، أدركَتْ حتى عيناي عديمةُ الخبرة أنها كانت جاهزةً للرحيل من ذلك المكان في أي لحظة. ورأيتُ شيئًا آخر أثناء ذلك الوميض؛ بابًا مواربًا في الحائط الكائن على يسار السيارة، والدرجات الأولى لِسُلَّمٍ حلزوني.

عندما حلَّ الظلام مرةً أخرى، أكثرَ سوادًا من أي وقتٍ مضى، ودوَّى الرعد فوق البرج العتيق، تسللتُ بحذاء الجدار إلى ذلك الباب، عازمًا على الاستماع إن كان ثمة تحرُّكٌ ما في الداخل، أو على السلالم، أو في الغُرَف بالأعلى. وكنتُ قد وضعتُ أصابعي للتوِّ على العمود المُستدير للمدخل، وكان صوتُ الرعد يخفت للتو، عندما قبضت يدٌ على مُؤخِّرة رقبتي كما لو كانت كَلَّابة، وشيءٌ صلب، ومُستدير، وبارد يضغط بإصرارٍ على صدغي الأيمن. حدث كل هذا في نصف ثانية، لكنني عرفت، بوضوحٍ تامٍّ كما لو كنتُ أستطيع رؤيته، أن رجلًا ذا قوة غير عادية قد أمسك بي من رقبتي بيد، وكان مُمسكًا بمسدسٍ يُوجِّهه نحو رأسي باليد الأخرى.

الفصل الرابع والثلاثون

الصفقة

عندما يُوضَع المرء في مأزقٍ مثل ذلك الذي وجدتُ نفسي فيه، ربما يتَّقد ذكاؤه فجأة، ويُمنَح إدراكًا جديدًا. وسواء كان الأمر كذلك أم لم يكن، فقد كنتُ متأكدًا من أن المُعتدي هو كبير الخدم، هولينز، كما لو أنَّني رأيتُه بالفعل. وكانت ستُصيبني مفاجأة لا حدَّ لها لو تكلَّم أي صوتٍ آخر غير صوته؛ إذ تكلَّم بالفعل عندما تلاشى آخر هزيمٍ للرعد بهمهمةٍ عابرة ومُتردِّدة.

أمرني قائلًا: «ادخُل من ذلك الباب، واصعد السُّلَّم مباشرةً، يا مونيلوز!» وتابَع: «وأسرِع، إذا كنتَ لا تُريدني أن أفجِّر دماغك. هيا، أسرِع!»

حرَّك فوَّهة المُسدس من صدغي إلى مُؤخِّرة رأسي وهو يتكلَّم، وضغطه في شعري بطريقةٍ لم تكن مُطَمئنة على الإطلاق. لقد فكرتُ كثيرًا منذ ذلك الحين في أنني توقَّعت أن تنطلِق رصاصة من المُسدَّس في أي لحظة، وفي أنني كنت — وهذه حقيقة — أشعر حيال ذلك بفضولٍ يفوق خوفي. لكن غريزة حُب البقاء تَملَّكتني، مع ثقةٍ كافية بالنفس، وانصعتُ له، مُتعثرًا وأنا أدخل من الباب تحت ضغط ذراعه القوية والمُسدس، وبدأت أتردَّد ذاهلًا عند الدرجات الأولى، العتيقة والبالية للغاية، والتي كانت مُجوَّفة بشدَّة في المنتصف. فدفعني إلى الأمام.

وقال: «اصعد لأعلى، للأمام مباشرةً! ارفع ذراعَيك للأعلى وللخارج أمامك حتى تشعُر بالباب، وعندئذٍ افتحه.»

أبقى إحدى يدَيه على مؤخِّرة رقبتي، بإحكامٍ مُؤلم، وبالأخرى ضغط المُسدس في التجويف الموجود فوقها مباشرةً، وبهذه الطريقة صعدنا. وحتى في ذلك المأزق لا بدَّ أنَّ ذكائي كان حاضرًا؛ لأنني أحصيتُ اثنتَين وعشرين درجة سُلَّم. ثُم وصلنا إلى الباب، وهو

قطعة ثقيلة من خشب البلوط المتين، مُرصَّعة بالحديد، وكان مفتوحًا قليلًا، وعندما دفعتُه لأفتحه أكثرَ في الظلام، انبعثت رائحة عفنٍ من شيءٍ ما كان بالداخل.

قال: «لا تُوجَد درجات سُلَّم، تابِع السير! والآن، توقَّف، وابقَ ساكنًا! إذا حرَّكت أصبعًا واحدة يا مونيلوز، سأُفجِّر دماغك! لن يُسبب ذلك خسارةً كبيرة للمجتمع يا فتى، لكنَّني ما زلتُ بحاجةٍ لك حتى الآن.»

أبعدَ يدَه عن رقبتي، لكن المُسدس كان لا يزال مضغوطًا في شعري، ولم يخفَّ الضغط أبدًا. وفجأة سمعتُ صوت طقطقةٍ خلفي، وأُضيء المكان الذي كنَّا نقف فيه، على نحوٍ خافت، لكنه كان كافيًا لإظهار غرفةٍ تُشبه الزنزانة، ذات جدرانٍ حجرية، بالطبع، وخالية من الأثاث باستثناء طاولةٍ قديمة غريبة الشكل ومقعدَين بأرجلٍ ثُلاثية على جانبيها. التقط بيده الخالية مقبضَ مصباح جيب كهربائي، وعلى وهجِه الأزرق، سحب المُسدس بعيدًا عن رأسي، وتنحَّى جانبًا، لكنه ظلَّ يُصوِّبه نحوي، ويُوجِّهني إلى المقعد البعيد. فأطعته بتلقائية، وسحب هو الطاولة قليلًا تجاهه، وجلس على المقعد الآخر، وأسند كوعه على حافة الطاولة، ووكزني بالمُسدس على بُعد بضع بوصاتٍ من أنفي.

قال بهدوء: «الآن، سنتحدَّث بضع دقائق، يا مونيلوز؛ ففي وجود العاصفة أو عدم وجودها، يتعيَّن عليَّ الخروج لإتمام مُهمتي، وكنتُ سأُغادر الآن لولا فعلتك اللعينة بتسلُّلك واختلاسك النظر. لكنني لا أريد قتلك، إلا إذا كنتُ مُضطرًّا لذلك؛ لذا سيكون من مصلحتك أن تُجيب على سؤالٍ أو سؤالَين دون كذِب. هل يُوجَد أحد سواك في الخارج أو حول المكان؟»

قلت: «ليس على حدِّ علمي!»

سأل: «هل جئتَ وحدَك؟»

أجبت: «وحدي تمامًا.»

سأل بحدة: «ولماذا؟»

أجبت: «لأرى إن كان بإمكاني الحصول على أي أخبارٍ عن الآنسة دنلوب.»

سأل، وتبيَّنتُ أنه يسأل بفضولٍ حقيقي: «لماذا ظننتَ أنك يُمكن أن تجِدَ الآنسة دنلوب هنا، في هذه الأطلال العتيقة؟» وتابع: «أجِبْني بلا كذب يا مونيلوز! وهذا من مصلحتك.»

أجبت: «إنها مفقودة منذ الليلة الماضية.» وتابعت: «وخطر لي أنها على الأرجح قد سلكت طريقًا مُختصرًا عبر هذه الأراضي، وأنها بفعلها ذلك صادفت السير جيلبرت، أو

صادفتك، فاحتُجِزَتْ، خشية أن تكشِفَ عمَّا رأته. هذه هي الحقيقة المُطلقة، يا سيد هولينز.»

كان يُراقبني بنفس القدْر من الثبات الذي كان يُصوِّب به المسدس نحوي، وأدركتُ من نظرته أنه يُصدِّقني.

وقال: «عجبًا!» ثم أضاف: «أرى أنه يُمكنك استخلاص النتائج، إذا وصل الأمر إلى ذلك. ولكن، هل احتفظتَ بفكرتك هذه لنفسك فقط؟»

كرَّرت: «بكل تأكيد!»

سأل بتمعُّن: «ألم تذكُرها لأيِّ أحد؟»

قلت: «لم أذكرها لأي أحد.» ثم أضفت: «لا يُوجَد رجل، أو امرأة، أو طفل يعرف أنني هنا.»

اعتقدت أنه قد يخفض فوَّهة المسدس عند سماع ذلك، لكنه ظلَّ يُصوبها نحو أنفي ولم يبدِ أيَّ علامةٍ على تهدئة يقظته. ولكن، إذ ظلَّ صامتًا في الوقت الحالي، طرحتُ عليه سؤالًا.

قلت: «لن يضيرك أن تُخبرني بالحقيقة يا سيد هولينز.» وتابعت: «هل تعرف أيَّ شيء عن الآنسة دنلوب؟ هل هي في أمان؟ ربما كان لدَيك خطيبة ذات يوم، وستفهم ما أشعُر به حيال ذلك؟»

أومأ برأسه بجدية عند سماع ذلك وبطريقة ودِّية للغاية.

وأجاب: «أجل!» وتابع: «أتفهَّم مشاعرك جيدًا جدًّا، يا مونيلوز، وأنا رجل ذو مشاعر؛ لذا سأخبرك على الفور أن الفتاة آمنة للغاية، ولا يُوجَد أي ضرر يمكن أن تتعرَّض له، مطلقًا! لكن، أنا لست واثقًا من أنك أنت نفسك آمن»، تابع، وهو لا يزال يُراقبني بعناية. «أنا رجل رقيق القلب، يا مونيلوز، وإلا ما كنتَ احتفظتَ بدماغك في مكانه في هذه اللحظة!»

قلت، مع ضحكةٍ فاجأتني: «ثمَّة احتمال كبير أن أوذيك، على أي حال!» وتابعت: «لا أحمل حتى مدية جيب، وأنت تحمِل هذا الشيء المصوَّب إلى رأسي.»

قال: «أجل! لكن لدَيك لسان في ذلك الرأس.» وتابع: «وربما تستخدِمه! لكن هلم، الآن، أنا أكره أن أوذيك، والأفضل لك أن تُخبرني أكثرَ قليلًا. ما الذي تفعله الشرطة؟»

سألت: «أي شرطة تقصد؟»

صاح: «هنا، هناك، في كل مكان، في أي مكان!» ثم أضاف: «لا أُريد مراوغات، الآن! يجب أن يكون لديك الكثير من المعلومات.»

أجبته: «إنهم يتصرَّفون وفقًا للمعلومات التي أدليتَ بها.» وتابعت: «ويبحثون في جلاسجو عن السير جيلبرت والليدي كارستيرز — لقد وضعْتَنا على هذا المسار، يا سيد هولينز.»

أجاب: «تعيَّن عليَّ أن أفعل.» ثم أضاف: «أجل، وضعتُ ليندسي على ذلك المسار، بالتأكيد، وقد أخذ كلَّ شيءٍ كما لو كان مُسلَّمًا به، وكذلك فعلتم جميعًا! وقد كسبتُ الوقت بذلك، كما ترى، يا مونيلوز؛ كان لا بدَّ مِن فعْل ذلك.»

سألت: «إذن، هما ليسا في جلاسجو؟»

هزَّ رأسه الكبير نفيًا بجديةٍ ردًّا على ذلك، وظهر شيءٌ مثل ابتسامة على زاويتَي شفتيه.

وأجاب على الفور: «ليسا في جلاسجو، ولا بالقُرب منها، ولكن حيث سيجد جميع رجال الشرطة في إنجلترا، وفي اسكتلندا، أيضًا، من أجل هذا الأمر، صعوبة في التحدُّث معهم. بعيدًا عن المتناول يا مونيلوز! بعيدًا عن المتناول، أتفهم، عن طائلة الشرطة!»

أطلق ضحكةً مكتومة عندما قال هذا، مما شجَّعني على أن أنبري له، بقدرِ ما مكَّنتني الكلمات.

فسألت: «إذن ما الضَّرر الذي يُمكنني أن أُسبِّبه لك يا سيد هولينز؟» وتابعت: «أنت لست مُعرَّضًا لأي خطرٍ أنا على علمٍ به.»

نظر نحوي كما لو كان يتساءل عما إذا كنتُ أحاول أن أسخرَ منه، وبعد التحديق برهةً هزَّ رأسه.

وأجاب: «سأترك هذا المكان، أخيرًا.» ثم أضاف: «السيارة التي تنتظرني بالأسفل هي سيارة السير جيلبرت الجديدة تمامًا؛ وكما قلت، سواء كانت تُوجَد عاصفة أم لا، يجب أن أغادر. ويُوجَد شيئان فقط يُمكنني فعلهما، يا مونيلوز؛ يمكنني أن أُفجِّر دماغك، وأُرديك قتيلًا، أو يمكنني ... الثقة بشرفك!»

نظر أحدنا إلى الآخر لمدة دقيقةٍ كاملة في صمت، حيث التقت عينانا في الضوء المُزرق الغريب لمصباح الجيب الكهربائي الذي وضعه على المنضدة أمامنا. وبيننا، أيضًا، كان يُوجَد ذلك المسدس، وعينه السوداء المصوبة نحوي على الدوام.

قلت ببطء: «إذا كان الأمران متساويين لك، يا سيد هولينز، فأنا أُفضِّل أن تثِق بشرفي. وأيًّا كان مستوى ذكاء دماغي، فإنني أُفضِّل بقاءه في موضعه! إذا كان الأمر هو هذا فحسْب؛ أنك تُريدني أن أُمسك لِساني ...»

قاطعني قائلًا: «سأعقد معك صفقة.» وتابع: «أستسعد برؤية حبيبتك يا مونيلوز، وتتأكد بنفسك من أنها لم تُصَب بأذًى، وأنها بخير وبصحة جيدة؟»

صحت: «أجل! سيُسعدني ذلك!» وتابعت: «أعطني الفرصة، يا سيد هولينز!»

قال بلهفة: «إذن أعطني كلمتَك أنه مهما حدث، ومهما كان ما ستتكشف عنه الأمور، لن تذكرَ للشرطة أنك رأيتني الليلة، وأنك عندما تُستَجوَب لن تُدلي بأي شيءٍ عني!» ثم أضاف: «إن صمتك لمدة اثنتي عشرة ساعة — بل، ست ساعات! — يعني الأمان بالنسبة إليَّ، يا مونيلوز. هل ستلتزم الصمت؟»

سألت: «أين الآنسة دنلوب؟»

أجاب: «يُمكنك أن تراها بعد ثلاث دقائق، إذا أعطيتني كلمتك — وأنت فتًى صادق، حسبما أظن — أنكما ستظلَّان في مكانكما حتى الصباح، وأنك بعد ذلك ستُمسِك عليك لسانك، فهل ستفعل ذلك؟»

سألت بحدة: «هل هي بالقُرب من هنا؟»

قال بهدوء: «فوقَنا.» وتابع: «وعليك فقط أن تُعطيني كلمة شرف ...»

صِحت: «لك هذا يا سيد هولينز!» ثم أضفت: «امضِ في طريقك! لن أنبس ببنت شفةٍ لأحد! لا بعد ستٍّ ولا اثنتي عشرة ولا ألف ساعة! سِرُّك في أمانٍ بما فيه الكفاية معي، ما دمتَ ستلتزم بكلمتك بشأنها، وعلى الفور!»

سحب يدَه الفارغة من على الطاولة، وهو لا يزال يُراقبني، ولا يزال يُصوِّب المسدس، ومن دُرجٍ في الطاولة التي بيننا، أخرج مفتاحًا ودفعه عبرها.

وقال: «يُوجَد باب خلفك في ذلك الركن.» وتابع: «وستجد مصباحًا موضوعًا عند قاعدته، وأنت تحمل أعواد ثقابٍ معك، بلا شك. وخلف الباب يُوجَد سُلَّم آخرُ يؤدي إلى البرج، وستجدها هناك، وآمنة، والآن امضِ في طريقك، يا مونيلوز، وسأمضي في طريقي!»

ومن ثم ألقى المُسدَّسَ في جيبٍ جانبي من معطفه الواقي من الماء بينما كان يتحدَّث، ومشيرًا إلى الباب في الركن، استدار إلى الباب الذي دخل منه. وبينما كان يستدير أغلق ضوء مصباحه الكهربائي، وأما أنا، فبعدَ أن أخذتُ أتخبَّط بحثًا عن صندوق أعواد ثقاب، أشعلت واحدًا ونظرتُ حولي بحثًا عن هذا المصباح الذي كان قد أتى على ذِكره. وفي ضوئه المُشتعل رأيت هيئته الكبيرة حول الركن، ثم، بمجرد أن رأيتُ المصباح، انطفأ عود الثقاب وعاد الظلام مرةً أخرى. وعندما أشعلتُ عودًا آخر، سمعتُ وقْع أقدامه على السُّلَّم، وفجأةً سمعتُ صوت اشتباكٍ وسمعته يصرخ بصوتٍ عالٍ لمرةٍ واحدة، وصوت سقوط، ثم صوت

خطوات أخفَّ تُسرِع مبتعدة، ثم صوت تأوُّهٍ ثقيل وحشرجة. وبينما كان قلبي يكاد ينخلع وأصابعي ترتجِف لدرجة أني كنتُ أحمل عود الثقاب بصعوبة، أضأت الشمعة في المصباح، وذهبت وراءه في خوف. وهناك، عند ركن السُّلَّم، كان مُستلقيًا، والدم يسيل في تدفُّقٍ مُظلم من فجوةٍ في حلقه؛ بينما كانت يداه، اللتان كان قد وضعهما عليه غريزيًّا، تسقطان بضعف وتسترخيان على صدره العريض. وبينما كنتُ أضع المصباح بالقُرب منه نظر نحوي نظرةً غريبة ومُرتبكة، وفارق الحياة أمام عينَيَّ.

الفصل الخامس والثلاثون

الغنيمة

تراجعتُ إلى الوراء مُسندًا ظهري إلى الجدار المُتعفِّن لذلك السُّلَّم العتيق وأنا أرتجف كما لو كنتُ قد أُصبت فجأةً بالحمَّى. كانت كل أطرافي ترتجف قبل أن أسمع حتى صوت الاشتباك المفاجئ، ولأسبابٍ مُتعددة؛ الارتياح بعد سحب مُسدس هولينز بعيدًا عن أنفي، ومعرفة أن مايسي كانت على مقربة، والتدهور التدريجي لأعصابي خلال يومٍ كامل من القلق المُتعب للقلب، ولكن الآن كان الارتجاف قد ازداد حتى صار اهتزازًا كاملًا: سمعت أسناني تصطك، وقلبي ينقبض مثل المضخة، بينما كنتُ أقف هناك، مُحدقًا في وجه الرجل، الذي انتشر فيه بسرعةٍ شحوب رمادي. وعلى الرغم من أنني علمت أنه قد فارق الحياة، فقد ناديت عليه بصوتٍ عالٍ، وأخافني صوتي.

صِحت: «سيد هولينز!» وتابعت: «سيد هولينز!»

وبعد ذلك ازداد خوفي؛ لأنه، كما لو كان ردًّا على نداءاتي، ولكن بالطبع، بسبب بعض التقلُّصات العضلية التي أعقبت الموت، انفصلت الشفتان الخاليتان من الحياة قليلًا، وبدا وكأنهما تبتسمان في وجهي. وعندئذٍ فقدتُ البقيةَ الباقية من أعصابي، وأطلقت صرخة، واستدرتُ لأركض عائدًا إلى الغرفة التي كنَّا نتحدَّث فيها. لكن عندما استدرتُ سمعت أصواتًا عند أسفل السُّلَّم، ورأيت وميضَ مصباح عين ثور، وسمعتُ صوتَ تشيسهولم بالأسفل عند البوابة.

كان ينادي بحدة: «أنتم، يا مَن بالأعلى!» وتابع: «هل يُوجَد أحدٌ بالأعلى؟»

بدا كما لو أنني كنتُ أُفجِّر صدري عندما أخرجت منه إجابةً عليه.

صرخت: «أوه، يا رجل! اصعد! أنا هنا، وثمة جريمة قتل!»

سمعته يهتف برعبٍ ودهشة، ويُتمتم ببعض الكلمات لشخصٍ كان من الواضح أنه معه، ثم سمعتُ وقْع أقدامٍ ثقيلة في الأسفل، وبعد برهةٍ ظهر وجه تشيسهولم عبر الركن، وبينما كان يُمسك بالمصباح أمامه، سقط ضوءُه بالكامل على هولينز، فوثب إلى الوراء خطوةً أو خطوتين.

وصاح: «ليرحمنا الرب!» وتابع: «ما كل هذا؟ إن الرجل ميت!»

قلت، وقد بدأتُ في التخلُّص تدريجيًّا من خوفي: «إنه ميت بالفعل، يا تشيسهولم!» ثم أضفت: «ومقتول، أيضًا! لكن مَن قتله، الرب يعلم؛ فأنا لا أعلم! لقد احتجزني هنا، منذ أقل من عشر دقائق، وصوَّب نحوي فوَّهة مُسدس، ثم توصَّلنا إلى اتفاق، فتركني وغادر، ولم يكد ينزل السُّلَّم حتى سمعتُ القليل من الشجار، وصوته وهو يسقط ويتأوَّه، وركضت خارجًا لأجد ... ذلك! وهرب شخصٌ ما بعيدًا، هل رأيت أحدًا بالخارج هناك؟»

أجاب وهو ينحني على الرجل الميت: «لا يُمكنك أن ترى بوصةً واحدة أمام عينيك؛ إن الليلة مُظلمة للغاية.» ثم أضاف: «لقد جئنا للتو، من حول المنزل. ولكن ماذا كنتَ تفعل أنت هنا؟»

أجبت: «أتيتُ لأرى ما إذا كان بإمكاني العثور على أي أثر للآنسة دنلوب في هذا الجزء العتيق، وقد أخبرني، قبل حدوث ذلك بقليل، أنها في البرج بالأعلى، في أمان. وسأصعد إلى هناك الآن، يا تشيسهولم؛ لأنها إن كانت قد سمِعَت كل هذا ...»

كان معه شرطي آخر، فتخطَّيا الجثة وتبِعاني إلى الغرفة الصغيرة ونظرا حولهما بفضول. وتركتهما يتهامسان، وفتحت الباب الذي أشار إليه هولينز. كان يُوجَد سُلَّم، كما قال، غائرٌ في الجدار السميك، وصعدتُ شوطًا طويلًا قبل أن أصل إلى بابٍ آخر، حيث كان يُوجد مفتاح مُثبت في القفل. ففتحته على الفور، ووجدتُ مايسي بالداخل، فاحتضنتها وغمرتها بالأسئلة وسلطتُ الضوءَ على وجهها لمعرفةِ ما إذا كانت بأمان، كل ذلك دفعةً واحدة.

أمطرتها بالأسئلة: «هل تعرضتِ لأذًى؟ هل أنت بخير؟ هل انهرتِ من الرعب؟ كيف حدث كل هذا؟» وتابعت: «أوه، يا مايسي، كنتُ أبحث عنك طوال اليوم، و...»

وعندئذٍ، إذ كنتُ مجهَدًا للغاية، أخذتُ أتهاوى، وشعرتُ فجأة بدوار غريب يغشاني، ولولاها كنتُ سأسقط وربما كان سيُغشى عليَّ، ورأت ذلك، فأخذتني إلى أريكةٍ كانت قد انتفضت واقفةً من جِلستها عليها عندما أدرتُ المفتاح، وسقتْني من كوب ماءٍ كان موضوعًا على الطاولة، وساعدتني، أنا الذي كان يجِب أن أواسيها؛ كل ذلك في غضون

دقيقة من اللحظة التي رأيتُها فيها، وكنت مرهقًا للغاية، كما بدا، لدرجةِ أنني لم أستطِع أن أفعل شيئًا سوى التمسُّك بيدها، للتأكُّد من أنني قد وصلتُ إليها حقًّا.

تمتمت، وهي تُربِّت على ذراعي كما لو كنتُ طفلًا انتفض للتوِّ مُستيقظًا من حلمٍ سيئ: «اهدأ، اهدأ، كل شيء على ما يُرام، يا هيو!» وتابعت: «لم يلحق بي أيُّ ضررٍ على الإطلاق، باستثناء الانتظار المُرهق في هذا الجحر الأسود! لقد أعطوني طعامًا وشرابًا وضوءًا، كما ترى؛ وعدوني بألَّا أتعرَّض لأذًى عندما احتجزوني هنا. ولكن أوه، بدا الأمر كما لو أنه قد مرَّت سنوات منذ ذلك الحين!»

سألت في حدة: «احتجزوكِ؟ مَن هم؟» وتابعت: «مَن الذين احتجزوكِ هنا؟»

أجابت: «السير جيلبرت وكبير خدمه هولينز.» ثم أضافت: «لقد سلكتُ الطريق المُختصر عبر الأراضي هنا الليلة الماضية، وصادفت الاثنين عند ركن الجزء المُتهدم، فاستوقفاني، ولم يسمحا لي بالذهاب، واحتجزاني هنا، ووعداني بأن يتركاني أرحل في وقتٍ لاحق.»

صِحت: «السير جيلبرت!» وتابعت: «هل أنتِ متأكدة من أنه كان السير جيلبرت؟»

أجابت: «بالطبع متأكدة!» وتابعت: «مَن غيره؟ لقد أدركتُ أنهما كانا خائفَين من الإبلاغ عن أنني قد رأيتهما؛ كان السير جيلبرت نفسه هو مَن قال إنهما لا يستطيعان المجازفة.»

سألت: «هل رأيتِه منذ ذلك الحين؟» وتابعت: «هل أتى إلى هنا؟»

أجابت: «كلَّا، ليس منذ الليلة الماضية.» وأضافت وهي تضحك، مُشيرة إلى الأشياء التي وُضِعَتْ على الطاولة: «ولا هولينز منذ هذا الصباح عندما أحضر لي بعض الطعام، ولم أكن أرغب فيه.» ثم أضافت: «وقال، آنذاك، إنه عند منتصف الليل، الليلة، سأسمع المفتاح يدور، وبعد ذلك ستكون لديَّ حرية الذَّهاب، لكن عليَّ أن أشقَّ طريقي إلى المنزل سيرًا على الأقدام؛ لأنه لم يكن يُريدني أن أعود إلى بيرويك مرةً أخرى بسرعة.»

قلت وأنا أهزُّ رأسي: «أجل!» وتابعت: «لقد بدأتُ أدرك الأمر قليلًا! ولكن، يا مايسي، هل ستكونين فتاةً مُطيعة، وتفعلين بالضبط ما أُخبركِ به؟ وهو أن تظلِّي في مكانكِ هنا حتى أُخرجكِ أنا منه. لأنه يُوجَد المزيد من الخوف بالأسفل، ولا يعلم مكان السير جيلبرت إلا الرب، لكن هولينز يرقد قتيلًا على السُّلَّم؛ وإن لم أكن قد رأيتُه يُقتَل، فقد رأيته يلفظ أنفاسه الأخيرة!»

ارتجفَتْ هي أيضًا، قليلًا عند سماعها ذلك، وأطبقت قبضتَها عليَّ أكثر.

وسألَتْ بقلق: «هل أتيتَ بمُفردك يا هيو؟» وأضافت: «هل أنت في خطر؟»

ولكن عندئذٍ، نادى تشيسهولم عبر سُلَّم البرج، وسأل عما إذا كانت الآنسة دنلوب سالمة، فطلبتُ من مايسي أن تُخاطبه.

قال: «ذلك خبر سارٌّ!» ثم أضاف: «ولكن هلَّا تُخبرين السيد هيو أن ينزل إلينا؟ ومن الأفضل أن تظلِّي حيث أنتِ، يا آنسة دنلوب؛ فالمشهد هنا غير مُبهج على الإطلاق. ألَدَيكِ أيُّ فكرةٍ عمن فعل هذا؟» سأل بينما أنزل إليه. وأردف: «هل كنتَ معه؟»

صِحتُ: «يا إلهي، ليس لديَّ أي فكرةٍ أكثر ممَّا لديك!» ثم أضفت: «لقد كان ينوي الهرب إلى مكانٍ ما في السيارة الموجودة بالأسفل، وهدَّدني بأنني سأفقد حياتي إن لم أوافق على أن أدعه يفرُّ في سلام، وكان ينزل السُّلَّم مُتجهًا إلى السيارة عندما حدث ذلك. لكن سأخبرك بهذا: تقول الآنسة دنلوب إن السير جيلبرت كان هنا الليلة الماضية! وكان هو وهولينز مَن احتجزاها في الأعلى هناك، خوفًا من الإبلاغ عنهما إذا تركاها تذهب.»

صاح: «إذن حكاية جلاسجو كانت كلها أكاذيب؟» وتابع: «لقد اختلقها هذا الرجل، أيضًا، الذي يرقد ميتًا؛ لقد كانت مكيدة، أليس كذلك يا سيد هيو؟»

قلت: «كل هذا جزء من مكيدة يا تشيسهولم.» ثم أضفت: «أليس من الأفضل أن نُدخِل الرجلَ إلى هنا، ونفتِّشه؟ وما الذي جعلكم تأتون إلى هنا بأنفسكم؟ وهل يُوجَد آخرون منكم في الجوار؟»

أجاب: «جئنا نسأل عن بعض المعلومات في المنزل، وكنا نمرُّ من هنا، تحت الجدار، مُتجِّهين إلى الطريق، عندما سمعنا تلك السيارة تُصدر صوتًا، ثم رأينا القليل من الضوء. وتلك فكرة جيدة منك، سوف نُحضره إلى هذا المكان ونرى ما إذا كان يُوجَد ما يكفي لإعطائنا أي دليل. انزل إلى أسفل»، تابع، مُلتفتًا إلى الرجل الآخر، «وأحضِر المصابيح الأمامية للسيارة، حتى نتمكَّن من رؤيةِ ما نفعله. هل تظنُّ أن هذا مِن فعْل السير جيلبرت، يا سيد هيو؟» همس عندما صِرنا وحدنا. ثم أضاف: «إذا كان قد جاء إلى هنا، وكان هولينز هذا مُطلعًا على بعض أسراره ...؟»

صِحت: «أوه، لا تسألني عن ذلك!» ثم أضفت: «يبدو أنه لم يَعُد يُوجَد سوى القتل ليُقابلنا في كل مكان! ومَن فعل هذا لا يمكن أن يكون بعيدًا؛ ولكن الليلة مُظلمة للغاية، ويُوجَد الكثير من الجحور والزوايا في المكان بحيث يُصبح الأمر أشبه بالبحث عن جُحر أرانب؛ سيتعيَّن عليك أن تجلب مساعدةً من البلدة.»

قال: «أجل، بالتأكيد!» ثم أضاف: «لكننا سنُلقي نظرةً على الأشياء بأنفسنا، أولًا. ربما نجد معه أشياء تُوحي بشيءٍ ما.»

حملنا الجثة إلى الغرفة عندما جاء الشرطي حاملًا المصابيح من السيارة، وأرقدناها على المنضدة التي جلسنا أنا وهولينز عليها قبل ذلك بوقتٍ قصير؛ إلا أنه في ذلك الوقت، في الواقع، بدا لي حينئذٍ أنه ينتمي إلى حياةٍ أخرى! وأجرى تشيسهولم تفتيشًا سريعًا لما يُوجَد في جيوب الرجل، ولم يكن يُوجَد شيءٌ ذو أهمية، باستثناء أنه في محفظةٍ كان يحملها في الجيب الداخلي للصدرية، كان يُوجَد مبلغٌ كبير من المال على هيئة أوراقٍ نقدية وعملات ذهبية.

انتظر الشرطي الآخر، الذي كان يحمل أحد المصابيح فوق المنضدة بينما كان تشيسهولم يُفتِّش الجثة، في صمتٍ حتى انتهى الأمر، ثم أشار برأسه نحو السُّلَّم.

وقال: «يُوجَد بعض الصناديق، أو الحقائب، في السيارة بالأسفل.» وتابع: «كلها مُغلقة وعليها ملصقات، قد يكون من المفيد إلقاء نظرةٍ عليها، أيها الرقيب. والأكثر من ذلك، تُوجَد أدوات مُلقاة في السيارة تبدو وكأنها قد استُخدِمَت لغلقها.»

قال تشيسهولم: «سنُحضِرها إلى هنا إذن.» ثم أضاف: «انتظِر أنت هنا يا سيد هيو، بينما نُحضِرها، ولا تَدَع خطيبتك تنزل إلى هنا بينما تلك الجثة مطروحة هنا. ربما يُمكنك تغطيتها»، تابع بإيماءةٍ ذات مغزًى. وأضاف: «إنه مشهد مُرعب حتى على رجل!»

كانت هناك بعض الستائر القديمة التي أكلها العثُّ على الجدران هنا وهناك، فأخذت واحدة وبسطتها فوق هولينز، مُتسائلًا، بينما أفعل هذا الطقس من أجله، عن السرِّ الغريب الذي حملَه معه بعدما لقِيَ حتفه، ولماذا ارتسم هذا التعبير الغريب والحائر على وجهه لحظة الموت. وبعدما فعلت ذلك، صعدتُ إلى مايسي مرةً أخرى، وطلبتُ منها التحلِّي بالصبر لبعض الوقت، وتحدَّثنا قليلًا بصوتٍ خفيض حتى دعاني تشيسهولم للنزول لفحص الصناديق. كان يُوجَد أربعة منها؛ صناديق خشبية متينة حديثة الصنع، مدعمة بالحديد عند الزوايا، ومُغلقة بإحكام؛ وعندما دعاني الشرطيان لكي أختبر الوزن، خطر على بالي، بدرجةٍ أقل، صندوق جيلفرثويت من خشب البلوط.

سأل تشيسهولم: «ما الذي يُحتمَل أن يُوجَد بداخلها في رأيك، يا سيد هيو؟» وتابع: «أتعرف ماذا أظن؟ يُوجَد العديد من المعادن الثقيلة في العالم، أجل، أليس الذهب من أثقلها؟ ليس معدن الرصاص هو الموجود هنا! وانظر إلى هذا!»

أشار إلى بعض الملصقات الموجَّهة بعناية والمُثبتة بقوة على كل غطاء؛ كانت الكتابة بحروف ثابتة وغليظة تُشبه الحروف المطبوعة:

«جون هاريسون، مسافر، عبر أس أس آيرولايت. من نيوكاسل إلى هامبورج.»

كنتُ أتفحَّص الملصقات ووجدتها جميعًا متشابهة، عندما سمِعنا أصواتًا عند أسفل السلَّم، ومنها جاء صوت المدير موراي، يسأل في حدَّة بصوتٍ عالٍ عمَّن بالأعلى.

الفصل السادس والثلاثون

الذهب

صعدت مجموعةٌ كبيرة من الرجال عبر السلَّم مع موراي، وازدحمت الغرفة بهم جميعًا، وامتلأت عيونهم بالدهشة لِما رأوه: السيد ليندسي والسيد جافين سميتون، وشُرطي أو اثنان، وما كان أكثر إثارةً لاهتمامي، اثنان من الغرباء. لكن بالنظر إلى هذَين الشخصَين عن كثب، أدركتُ أنني قد رأيت أحدهما من قبل، وهو رجلٌ عجوز، تذكَّرت أنه كان حاضرًا في المحكمة عندما مَثُلَ كارتر أمام القضاة؛ كان رجلًا هادئًا ودقيق الملاحظة وتذكَّرت أنه كان يُبدي اهتمامًا كبيرًا وذكيًّا في الجلسات. وبدا أنه والرجل الآخر معه يهتمَّان بنفس القدْر بأقوالنا أنا وتشيسهولم؛ لكن بينما أمطرَنا موراي بالأسئلة، لم يُوجِّها أي أسئلة. فقط، أثناء هذا الاستجواب، رفع الرجل الذي لم أرَه من قبلُ الستارةَ التي وضعتُها على جثة هولينز بهدوء، وألقى نظرةً فاحصة على وجهه.

انتحى بي السيد ليندسي جانبًا وأشار إلى الرجل المُسن الذي تذكَّرت رؤيته في محكمة الشرطة.

وهمس: «أترى ذلك الرجل المحترم؟» ثم تابع: «إنه السيد إلفينستون، الذي كان سابقًا مديرَ أعمال السير ألكساندر كارستيرز. وقد تقاعد، منذ سنواتٍ عديدة، ويعيش في الجانب الآخر من ألنويك، في مكانٍ خاصٍّ به. ولكن هذه القضية جلبته إلى الضوء مرةً أخرى، لهدفٍ ما!»

قلت له: «لقد رأيته في المحكمة في محاكمة كارتر يا سيد ليندسي.»

قال السيد ليندسي بصوتٍ خفيض: «أجل! وقد تمنَّيتُ لو قال لي في ذلك اليوم ما كان يمكن أن يقوله!» وتابع: «لكنه رجل حذِر، حذِر للغاية، وفضَّل العمل في هدوء، ولم يأتِ إلى موراي إلا في وقتٍ مُتأخر جدًّا الليلة وأرسل في طلبي بعد ساعةٍ من عودتك إلى المنزل. الرجل الآخر الذي معه هو مُحقِّق من لندن. عجبًا يا رجل! لقد ظهرت اكتشافات

لطيفة! وهي إلى حدٍّ كبير على نفس المسارات التي كنتُ أشك فيها. كنَّا سنأتي إلى هنا منذ ساعةٍ لولا تلك العاصفة، ولكن الآن بعد أن انتهت العاصفة، يا هيو، يجب أن نُخرِج مايسي دنلوب من هذا المكان؛ اصعد، الآن، وأرِني مكانها؛ هذا أولًا، والباقي بعد ذلك.»

تركنا الآخرين لا يزالون مُتجمِّعين حول الرجل الميت والصناديق التي جُلِبَت من السيارة، وصعدتُ بالسيد ليندسي إلى الغرفة في البرج التي احتُجِزَت فيها مايسي طوال هذا الوقت المُرهِق. وبعد كلمةٍ أو كلمتَين معها عن مغامرتها المؤلمة، أخبرها السيد ليندسي بأنها يجب أن تُغادر، وسيطلُب من موراي إرسال أحد رجال الشرطة معها ليُوصلها إلى منزلها بأمان، أما أنا فما زلتُ مطلوبًا بالأسفل. لكن مايسي أظهرت علامات مُمانعةٍ ورفض واضحَين.

حيث قالت: «لن أتحرَّك ياردة واحدة يا سيد ليندسي، إلا إذا وعدتني بأنك لن تترك هيو يغيب عن عينيك مرةً أخرى حتى تسوية كل هذا والانتهاء منه! ففي مرَّتَين خلال الأيام القليلة الماضية كان الفتى على بُعد بوصةٍ واحدة من فقدان حياته، ويقولون إن الثالثة ثابتة، وكيف أعرف أنه قد لا تكون ثمة مرة ثالثة في حالته؟ وأنا أُفضِّل البقاء معه، وسنُلاقي مصيرنا معًا ...»

قاطعها السيد ليندسي، وهو يُربِّت على ذراعها: «اهدئي! اهدئي!» ثم أضاف: «يُوجَد ستة منَّا معه الآن، وسنحرص على عدم وقوع أي ضررٍ له أو لأيٍّ منا؛ لذا كوني فتاةً مُطيعة وعودي إلى منزل والدك أندرو، وأخبريه بكلِّ شيءٍ عن الأمر؛ لأن الرجل الفاضل لديه شكٌّ أننا مسئولون بطريقةٍ ما عن غيابك، يا بُنيتي. هل أنت متأكدة من أنك لم تُشاهدي السير جيلبرت مرةً أخرى بعد أن احتجزك هو وهولينز؟» سألها فجأة ونحن ننزل على السُّلَّم. وأضاف: «ولم تسمعي صوته هنا، أو في أي مكان؟»

أجابت مايسي: «لم أرَه مرة أخرى مُطلقًا، ولم أسمعه.» ثم أضافت: «وإلى أن جاء هيو منذ قليل، لم أرَ هولينز نفسه منذ الصباح و... أوه!»

كانت قد أبصرت الجثة المُتصلبة المُمددة في الغرفة السفلية، وأجفلت ممسكةً بي ونحن نُسرع بها بعيدًا نحو البوابة بالأسفل. وتبِعَنا موراي إلى هناك، وبعد القليل من الاستجواب وضعها في إحدى السيارات التي جاء فيها هو وبعض الآخرين، وأرسل معها أحد رجاله؛ ولكن قبل ذلك جذبتني مايسي بعيدًا في الظلام وأطبقت على ذراعي بإحكام.

وسألت بجدية: «هل ستَعِدني، يا هيو، قبل أن أنصرف، أنك لن تُعرِّض نفسك لأي مخاطر أخرى؟» وتابعت: «لقد خُضنا ما يكفي منها، وقد اكتفيتُ من ذلك، ويبدو أن ثمة شيئًا ما كامنًا حولنا ...»

بدأت ترتجِف وهي تنظر إلى الليل البهيم من حولنا، وكان كذلك بالفعل، على الرغم من أننا كنَّا في فصل الصيف، وهي أكثر الليالي التي رأيتها سوادًا وأحكمَتْ قبضة يدِها أكثر على يدي.

وهمست: «كيف تتأكَّد من أن ذلك الرجل الشرير ليس بالقُرب من هنا؟» ثم أضافت: «لقد كان هو مَن قتل هولينز، بالطبع! وإذا كان قد أراد قتلك تلك المرة في اليخت، فهو ما زال يريد ذلك مرةً أخرى!»

قلت: «ستكون فرصته لفعل ذلك ضعيفة إذن، الآن!» وتابعتُ: «لا يُوجَد خوف من ذلك، يا مايسي، وأنا وسط جميع أولئك الرجال في الأعلى. اذهبي الآن، واخلدي إلى النوم، وبالتأكيد سأعود إلى المنزل لأتناول فطوري معك. في رأيي إن الأمر قد شارف على نهايته.»

قالت: «ليس بينما ذلك الرجل على قيد الحياة!» وتابعت: «لقد كنتُ أُفضِّل أن أبقى معك حتى طلوع النهار، على أي حال.»

ومع ذلك، سمحت لي أن أصحبَها إلى السيارة. وبعد أن كَلَّفْت الشرطي الذي ذهب معها ألا تغيب عن ناظرَيه حتى تُصبح آمنة في منزل أندرو دنلوب، انطلقا، وصعدنا أنا والسيد ليندسي السلَّم مرةً أخرى. وكان موراي قد سبقنا، وبدأ تشيسهولم تحت إشرافه في فتح الصناديق المُغلقة بالمسامير. ووقف بقيتُنا حولها، بينما يجري العمل في هذه المهمة، ننتظِر في صمت. لم تكن مهمةً سهلة أو سريعة، فقد ثُبِّتَت المسامير بأسلوبٍ دقيق تمامًا، وعندما أزال الغطاء الأول أدركنا أن الصناديق نفسها قد صُنِعَت خصيصًا لهذا الغرَض. باستخدام أخشابٍ قوية للغاية، وكانت مبطنة، أولًا بالزنك، ثم بلباد سميك. وكانت كلها، كما علمنا الآن، مُمتلئة حتى حافتها بالذهب. كان موضوعًا بداخلها، قطعة فوق قطعة، كلها مُغلَّفة بعناية؛ أعني الذهب! كان يلمع بلونٍ أحمر وناري على ضوء مصابيحنا، وبدا لي أنه في كل بريقٍ له رأيت عيون شياطين، مُفعمة بالخبث والسخرية والقتل.

ولكن كان يُوجَد صندوق، أخفُّ من الباقين، وجدنا فيه، بدلًا من الذهب، الأشياء الثمينة التي كان هولينز قد أخبرنا أنا والسيد ليندسي والسيد بورتلثورب عنها عندما أتى إلينا في مُهمَّته الكاذبة، وكان ذلك في منتصف الليلة السابقة فحسب. كانت كلها بداخله؛ الهدايا التي قُدِّمَت للعديد من بارونات كارستيرز السابقين من قِبَل المانحين الملكيِّين، مُغلَّفة بعنايةٍ ومخزنة. وعند رؤيتها، نظر السيد ليندسي نحوي نظرةً ذات مغزًى، ثم نحو موراي.

وتمتم: «لقد كان رجلًا ماكرًا وذكيًّا، هذا الرجل الذي يرقُد خلفنا.» ثم أضاف: «لقد جذب انتباهنا لغرضٍ ما بقصته عن الليدي كارستيرز ودرَّاجتها، لكنني كدتُ أنسى»، توقَّف عن الحديث، وتنحَّى بي جانبًا. وهمس: «ثمَّة أمر آخر تكشَّف منذ أن تركتَني أنت وسميتون الليلة.» وتابع: «لقد اكتشف رجال الشرطة شيئًا بأنفسهم، سأمنحهم هذا الفضل. كان هذا كله أكاذيب ... أكاذيب، لا شيء سوى أكاذيب! ما قاله لنا هولينز، فعل كلَّ هذا حتى يُبعِدنا عن أثرهم. هل تتذكَّر حكاية الرسالة المُسجَّلة الواردة من إدنبرة؟ اكتشفت الشرطة الليلة الماضية من موظفي البريد أنه لم يكن يُوجَد أي خطابٍ مسجَّل. هل تتذكَّر قول هولينز إن السيدة كارستيرز قد رحلت على درَّاجتها؟ لقد اكتشفت الشرطة أنها لم ترحل مُطلقًا على أي دراجة؛ لم تكن هناك من الأساس حتى ترحل. كانت قد غادرت في الصباح الباكر؛ واستقلَّت قطارًا للجنوب من محطة بيل قبل الإفطار، على الأقل، هذا ما فعلته امرأة مُلثَّمة تنطبق عليها أوصافها، وهي مُختبئة بأمانٍ في لندن، أو في أي مكانٍ آخر الآن يا ولدي!»

فهمست: «ولكن ماذا عن ... الرجل ... السير جيلبرت، أو أيًّا كان؟» وتابعت: «ماذا عنه يا سيد ليندسي؟»

قال: «أجل، هذا هو السؤال بالفعل!» وتابع: «أنا تدريجيًّا أُكوِّن صورةً مكتملة للأمر، بينما نمضي قُدُمًا. يبدو لي أنه تَوجَّه إلى إدنبرة بعد التخلُّص منك، كما كان يظنُّ ويأمُل، وربما وصل إلى هناك في صباح اليوم التالي، بمساعدة ذلك الصيَّاد في لارجو، روبرتسون، الذي أخبرنا بالطبع نحن والشرطة بمجموعةٍ من الأكاذيب! وعندما حصل على آخِرِ تلك السندات المالية من بالي، عاد أدراجه إلى هنا، سرًّا، وبمساعدة هولينز، ولا شكَّ في أنه ظلَّ مُختبئًا في هذا البرج العتيق حتى يَتمكَّنا من الإفلات بهذا الذهب! بالطبع، كان هولينز مُشاركًا في كل هذا، ولكن، مَن قتل هولينز؟ وأين الشريك الرئيسي، الرجل الآخر؟»

صِحت: «ماذا؟» وتابعت: «ألا تظن أنه قتل هولينز، إذن؟»

أجاب: «سأكون أحمقَ إن ظننتُ ذلك يا ولدي.» ثم أضاف: «فكِّر بنفسك! عندما أصبح كل شيء جاهزًا للهروب، هل تظنُّ أنه كان سيغرس سكينًا في حلق حليفه؟ كلَّا! يُمكنني فهْم خطتهما، وقد كانت خطةً جيدة. كان هولينز سينقل هذه الصناديق إلى نيوكاسل في غضون ساعتَين، ولن يكون ثمة شك بشأنها، ولا أسئلة لن يستطيع الإجابة عنها، وكان سيذهب إلى هامبورج معها بنفسه. أما فيما يتعلق بالرجل الذي نعرفه باسم السير جيلبرت، فستسمع عنه شيئًا بعد برهةٍ من السيد إلفينستون الواقف هناك، لكن

انطباعي هو أنه، بما أن مايسي لم ترَه أو تسمع عنه مطلقًا أثناء الليل والنهار، فقد هرب بعد زوجته الليلة الماضية، ومعه تلك السندات المالية!»

قلت في دهشة مُطلقة: «إذن، مَن قتل هولينز؟» وتابعت: «هل يُوجَد آخرون ضالعون في كل هذا؟»

أجاب وهو يهزُّ رأسه: «يحقُّ لك أن تسأل هذا السؤال، يا ولدي.» وتابع: «في الواقع، أظن أننا لم نصل بعدُ إلى نهاية المطاف، وإن كنَّا نقترِب من ذلك، وسيكون ثمة انعطاف غريب أو اثنان، مع ذلك، قبل أن ننتهي. ولكن، ها قد وصل موراي إلى نهايةٍ للحادثة الحالية.»

أنهى موراي فحصه للصناديق وساعد تشيسهولم في إعادةِ أغطيتها إلى أماكنها. وتبادل هو وتشيسهولم والمُحقِّق بعضَ الملاحظات الهامسة حول هذه المهمة؛ ووقف السيد إلفينستون والسيد جافين سميتون يتحدَّثان معًا بأصواتٍ منخفضة بالقُرب من الباب. وبعد قليلٍ التفت إلينا موراي.

وقال: «ليس بوسعنا فِعْل المزيد هنا يا سيد ليندسي، وسأُوصِد هذا المكان حتى طلوع النهار وأترك رجلًا عند المدخل بالأسفل، للحراسة. ولكن بخصوص الخطوة التالية، هل لديك أدنى تصوُّر في رأسك، يا مونيلوز، عن مهاجم هولينز؟» تابع، ملتفتًا نحوي. وأردف: «ألم تسمع أو ترَ أي شيء؟»

أجبت: «لقد أخبرتُك بما سمعته، يا سيد موراي.» ثم أضفت: «بخصوص رؤية أي شيء، كيف كان سيمكنني ذلك؟ لقد وقع الأمر على السلَّم هناك، وكنت عند هذا الركن أفتح الباب الداخلي.»

فتمتم: «إنه لُغز كبير مثل بقية أحداث هذه القضية كلها!» وتابع: «وهذا يُقنعني فقط بأنه يُوجَد وراء كل هذا أمورٌ أكثر مما نحسب. وثمة شيءٌ واحد مؤكد؛ لا يُمكننا البحث في هذه الأراضي أو في المنطقة حتى يطلع النهار. ولكن يُمكننا البحث حول المنزل.»

بعد ذلك أخرجَنا جميعًا، وأوصد الغرفة بنفسه، تاركًا القتيل مع صناديق الذهب، وبعد أن وضع شرطيًّا على مدخل البرج العتيق، قادنا خارجًا إلى الجزء المأهول من المنزل. كان يُوجَد الكثير من الأضواء، واثنان من رجال الشرطة عند الباب، وخلفهم مجموعة كاملة من الخَدَم في القاعة، يرتدون بعضَ ملابس النوم، ويفتحون أفواههم في خوفٍ وفضول.

الفصل السابع والثلاثون

البِركة المُظلمة

بينما كنتُ أدخل ذلك المنزل مع بقيتهم، خطرَ لديَّ انطباعان مفاجئان. أحدهما أنه هنا بجانبي، كان يقف، في شخص السيد جافين سميتون، على الأرجح، مالكه الحقيقي، الحامل الحقيقي للقب العتيق، الذي كان على وشك أن يئول به الحال إلى الحصول على حقوقه المشروعة بهذه الطريقة الغريبة. والانطباع الآخر هو التبايُن بين مجيئي في هذه اللحظة والزيارة التي جئت فيها إلى هنا، قبل بضع أمسياتٍ فقط، عندما كان هولينز ينظر نحوي بشيءٍ من الاستياء وكان المُحتال ودودًا للغاية. أما الآن فكان هولينز جثةً هامدة في المبنى العتيق المُتهدم، والمحتال هاربًا ... ومَن يدري أين هو؟

كان موراي قد أتى بنا إلى هناك لفعلِ شيءٍ ما لتسوية تلك النقطة، وبدأ عمله على الفور بجمع كل رجلٍ وامرأة في المنزل، وبمساعدة مُحقِّق لندن، أخضعهم لتحقيق مُدقق حول الأفعال الأخيرة لسيدهم وسيدتهم وكبير الخدم. لكن السيد ليندسي أشار إلى السيد إلفينستون والسيد جافين سميتون وأنا كي نجتمع في غرفةٍ جانبية ونغلق الباب علينا.

وقال وهو يُشير إلينا كي نجلس إلى طاولةٍ مريحة: «يُمكننا أن نترك الشرطة تؤدي عملها.» ثم أضاف: «إن انطباعي هو أنهم سيجدون القليل من المعلومات لدى الخَدَم. وبينما ذلك يجري على قدمٍ وساق، أودُّ أن أحصل على قصتك الموعودة، يا سيد إلفينستون؛ لم يكن لدي سوى فكرة عنها، كما تعلم، عندما جئتَ مع موراي إلى منزلي. ويود هذان الاثنان سماعها؛ أحدهما، على أي حال، مُهتم بهذه القضية أكثر ممَّا تظن أو مما كان هو نفسه يحسب حتى وقتٍ قريب.»

بعد أن أصبحنا في غرفةٍ مضاءة على نحوٍ جيد، ألقيتُ نظرة أكثرَ تدقيقًا على مدير أعمال هاثركلو السابق. كان رجلًا محافظًا على صحته، تبدو عليه أمارات الذكاء، وعمره بين الستين والسبعين؛ كان هادئًا وقويَّ الملاحظة، من النوع الذي يمكن أن تراه يُفكِّر

كثيرًا دون أن يقول الكثير. ابتسم قليلًا وهو يضع يدَيه معًا على الطاولة ونظر إلى وجوهنا المُترقبة؛ كانت ابتسامة رجلٍ يعرفُ ما يتحدَّث عنه.

وأجاب: «أجل، حسنًا، يا سيد ليندسي، ربما لن تحوي هذه القضية الكثير من الغموض كما يبدو عليه الأمر بمجرد أن يُصبح لديك فكرة عنها. سأُخبرك كيف وصلت إليَّ فكرتي، وما الذي سينتج عنها. بالطبع، لن تعرف؛ لأني أظنُّ أنك لم تأتِ إلى بيرويك إلا بعد أن غادرتُ أنا المنطقة، لكنني كنتُ على صلةٍ بضَيعة هاثركلو منذ كنتُ شابًّا وحتى خمس عشرة سنة مضت، عندما تخلَّيت عن وظيفة مدير الأعمال وذهبتُ للعيش في بعضٍ من ممتلكاتي الخاصة، بالقُرب من ألنويك. بالطبع، كنتُ أعرف الابنَين، مايكل وجيلبرت؛ وأتذكَّر جيدًا عندما، بسبب تشاجرهما المُستمر مع والدهما، أعطاهما الكثيرَ من المال وغادرا ليسلك كلٌّ منهما سبلًا شتَّى. وبعد ذلك، لم أسمع أن أيًّا منهما عاد مُطلقًا، ولم أقابل أيًّا منهما، إلا في مناسبةٍ واحدة، وهي التي سأشير إليها في وقتها. بعد فترة، كما قلتُ للتو، تقاعدت؛ وبعد فترة أيضًا، تُوفي السير ألكساندر، وسمعت أن السير جيلبرت، إذ كان السيد مايكل قد تُوفي في جزر الهند الغربية، قد ورِث اللقب والأملاك. فكَّرت، مرةً أو مرَّتَين، في القدوم لمقابلته؛ لكن كلما تقدَّم المرء في السن، ازداد تفضيله للبقاء بجانب مِدفأته؛ لذا لم أحضُر إلى هنا، ولم أسمع الكثير عنه، ومِن المؤكَّد أنه لم يُقدِم على أي محاولةٍ لُمقابلتي. وهكذا نصل إلى بدايةِ ما سنُسميه الأزمة الحالية. جاءت تلك البداية مع الرجل الذي ظهر في بيرويك هذا الربيع.»

سأله السيد ليندسي: «هل تقصد جيلفرثويت؟»

وافقه السيد إلفينستون، بابتسامةٍ ماكرة: «نعم، لكنني لم أعرفه بذلك الاسم!» ثم أضاف: «لم أكن أعرفه بأي اسم. ما أعرفه هو ما يلي. لا بدَّ أنه كان قبلَ ما يقرب من أسبوع، بالتأكيد ليس أكثر، من وفاة جيلفرثويت — أنا متأكد من هويته، بسبب وصفه — عندما جاء لزيارتي في منزلي، وبقدرٍ كبير من التلميح وما شابه ذلك أخبرني أنه عميلُ تحقيق خاص، وسأل عما إذا كان يمكنني إخباره بشيء عن الراحل مايكل كارستيرز؟ وهو، كما اتضح، الآتي: هل كنتُ أعرف ما إذا كان مايكل قد تزوَّج قبل مغادرته إنجلترا، وإن كان قد فعل، فأين، وممَّن؟ بالطبع، لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك، وبما أن الرجل لم يُعطني أقلَّ قدرٍ من المعلومات فقد صرفته بحدة. والشيء التالي الذي سمعت به كان مقتل جون فيليبس. لم أربط ذلك بزيارة الرجل الغامض في البداية، لكن بالطبع قرأت تفاصيل التحقيق في الصحف، وأدلة السيد ريدلي، وبعد ذلك بدأت أُدرك أن أمرًا غريبًا

يحدُث، على الرغم من أنني لم أستطِع حتى تخمين كُنهه. ولم أفعل شيئًا، ولم أقُل شيئًا؛ فقد بدا أنه لا يُوجَد شيء، آنذاك، يمكنني أن أفعله أو أقوله، على الرغم من أنني نويت أن أتقدَّم لاحقًا، إلى أن طالعت قضية كرون في الصحف، وعرفت حينها أن الأمر يحوي أكثرَ مما يظهر على السطح. لذلك، عندما علمت أنه قد قُبِضَ على رجلٍ يُدعى كارتر بتهمة قتل كرون، أتيت إلى بيرويك، وذهبت إلى المحكمة لسماعِ ما قيل عندما مَثُل كارتر أمام القضاة. واخترت مقعدًا هادئًا في المحكمة، وربما لم ترَني.»

صِحت: «أنا رأيتُك!» ثم أضفت: «وأتذكَّرك جيدًا، يا سيد إلفينستون.»

قال بابتسامةٍ مرحة: «أجل!» وتابع: «أنت الفتى الذي تورَّط في الأمر؛ من حُسن طالعك أنك خرجتَ من الأمر سالمًا، يا رجل! حسنًا، لقد كنتُ هناك، وقد أشار رجل كان يجلس بجانبي ويعرف الجميع، وقبل حتى النداء على القضية في المحكمة، نحو السير جيلبرت كارستيرز عند دخوله وقال إنه قد مُنِحَ مقعدًا على المنصة. وعرفت أن ثمَّة لغطًا كبيرًا، وربما لا يعرفه أحد غيري؛ لأن الرجل الذي أُشيرَ إليه لم يكن السير جيلبرت كارستيرز، وليس من عائلة كارستيرز على الإطلاق، ليس هو! لكنني ... كنت أعرفه!»

صاح السيد ليندسي: «كنت تعرفه!» وتابع: «عجبًا! هذا هو أول شذرةٍ مباشرة نحصل عليها من الاستنارة الحقيقية! ومَن هو، إذن، يا سيد إلفينستون؟»

أجاب السيد إلفينستون: «تمهَّل!» ثم أضاف: «سيتعيَّن علينا العودة بالأحداث قليلًا: أخرِج أحداث محكمة الشرطة من عقلك لبعض الوقت. لقد مرَّ نحو ... لقد نسيتُ حقًّا كم مرَّ من الوقت منذ ذلك الحين، ولكن مباشرةً بعد أن تخلَّيتُ عن وظيفة مدير الأعمال أُتيحت لي الفرصة للذهاب إلى لندن في شأنٍ خاص بي. وهناك، ذات صباح، بينما كنت أتجوَّل في نهاية شارع ريجنت ستريت، قابلت جيلبرت كارستيرز، الذي لم أكن قد رأيته مُطلقًا منذ مغادرته المنزل. فتأبَّط ذراعي على الفور، وطلب منِّي الذهاب معه إلى منزله في شارع جيرمين ستريت الذي كان على مقربة، فوافقت. وذهبت، ووجدتُ غرفَ منزله مليئةً بالصناديق، والحقائب، وما شابه؛ حيث قال، إنه وصديق له، سيذهبان في رحلةِ صيد واستكشاف في ناحيةٍ ما من أمريكا الوسطى؛ لا أعرف ما الذي لم يكونا سيفعلانه، لكن من المفترض أنه كان أمرًا كبيرًا، وكانا سيعودان مُحمَّلين بعيناتٍ من التاريخ الطبيعي ويَجنيان أيضًا الكثيرَ من المال من المغامرة. وكان يُخبرني بكل شيء عن ذلك بطريقته المتحمسة، والمنفعلة عندما دخل الرجل الآخر، وقد عرَّفني عليه. وهذا الرجل، أيها السادة، كان هو الرجل الذي رأيته، باسم السير جيلبرت كارستيرز، على منصة المحكمة في بيرويك

في ذلك اليوم فقط! كان قد تغيَّر، بالطبع، أكثرَ مما ظننتُ خلال خمسة عشر عامًا؛ لأن تلك تقريبًا هي الفترة التي كانت قد مرَّت منذ أن رأيته مع جيلبرت هناك في جيرمين ستريت، لكنني عرفته ما إن وقعت عيناي عليه، وقد تبخَّرت أيُّ شكوك كانت لديَّ ما إن رأيته يرفع يده اليمنى نحو شاربه؛ لأنه تُوجَد أصبعان مفقودتان في تلك اليد، الأصبعان الوسطيان، وتذكَّرت تلك الحقيقة عن الرجل الذي عرَّفني عليه جيلبرت كارستيرز. عرفت، كما قلتُ لكم، بينما كنتُ جالسًا في تلك المحكمة، أن الرجل الجالس على المنصة يستمع، ما هو إلا مُحتال!»

كنَّا جميعًا مُنحَنِين إلى الأمام عبر الطاولة، نستمع بشغف، وتبادر سؤال إلى أذهاننا، صاغه السيد ليندسي في كلمات.

«ما اسم الرجل؟»

أجاب السيد إلفينستون: «لقد قُدِّم لي، في جيرمين ستريت ذلك الصباح، باسم ميكين، الطبيب ميكين.» ثم أضاف: «كان جيلبرت كارستيرز، كما تعلمون، هو نفسه طبيبًا؛ كان طبيبًا مؤهَّلًا، على أي حال، وكان هذا صديقًا له. ولكن ذلك كان كلَّ ما علمته في ذلك الوقت؛ إذ كانا مُنشغِلَين للغاية في استعداداتهما، حيث كانا سيُغادران إلى ساوثهامبتون في تلك الليلة، وتركتهما وسط ذلك، وبالطبع لم أسمع عنهما أيَّ أخبارٍ مرةً أخرى. لكن الآن بالعودة إلى محكمة الشرطة في ذلك اليوم: أقول لكم، لقد كنت، عمدًا، أجلس في ركنٍ هادئ، وبقيتُ هناك حتى انتهت الجلسة؛ ولكن في نفس اللحظة التي كان فيها الجميع يغادرون، رآني الرجل الجالس على المنصة ...»

صاح السيد ليندسي، وهو ينظر نحوي: «آه!» وتابع: «آه! ذلك سبب آخر، ذلك يكمل موضوع فأس الثلج! أجل! لقد رآك يا سيد إلفينستون ...»

تابع السيد إلفينستون: «ورأيتُ نظرةً غريبة، مُتحيرةً على وجهه. ونظر مرةً أخرى، نظر بحدَّة. لم أُبدِ ردَّ فعْلٍ على نظرته، مع أنني واصلتُ مُراقبته، وبعد برهةٍ استدار وخرج. لكنني علمتُ أنه تعرَّف عليَّ بصفتي رجلًا رآه في مكانٍ ما. تذكَّر الآن، عندما قدَّمني جيلبرت كارستيرز إلى هذا الرجل، لم يذكر جيلبرت أيَّ صلةٍ لي بهاثركلو؛ لقد تحدَّث عني فقط بصفتي صديقًا قديمًا؛ لذلك، عندما جاء ميكين إلى هذه البلدة، لم يكن يتوقَّع العثور عليَّ هنا. لكنني أدركتُ أنه كان خائفًا، خائفًا بشدة، بسبب تعرُّفه عليَّ وشكِّه بشأني. وكان السؤال التالي هو ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ أنا لستُ الرجل الذي يفعل الأشياء بتعجُّل، وكان بوسعي أن أرى أن هذه القضية سيئة، ومُتشعبة، مع احتمال وجود

جريمتَي قتْل فيها. غادرتُ وتناولتُ غدائي، وفكَّرت. في نهاية الأمر، بدلًا من الذهاب إلى الشرطة، ذهبت إلى مكتبك، يا سيد ليندسي، وكان مكتبك مُغلقًا، وكنتَ غائبًا طوال اليوم. وعندئذٍ طرأتْ على ذهني فكرة: لدي قريب، الرجل الذي بالخارج مع موراي، وهو ضابط رفيع المستوى في قسم التحقيقات الجنائية في نيو سكوتلاند يارد، سأذهب إليه. لذلك ذهبت مباشرة إلى لندن على متن قطار الجنوب السريع التالي. لماذا؟ لمعرفة إن كان يمكنه تتبُّع أيِّ شيءٍ عن ذلك الرجل ميكين.»

أومأ السيد ليندسي بإعجاب: «أجل!» وتابع: «لقد كنتَ مُحقًّا في ذلك؛ كانت تلك فكرة جيدة. وإلامَ توصَّلت؟»

أجاب السيد إلفينستون: «لم نبدأ من مُقابلتي معه في جيرمين ستريت.» وتابع: «لقد تتبَّعناه في السجل الطبي حتى تلك النقطة. اسمه فرانسيس ميكين، لديه رسائل طبية مختلفة تحمل هذا الاسم. كان في أحد مُستشفيات لندن مع جيلبرت كارستيرز، وتشارك ذلك المنزل في جيرمين ستريت معه. ووجدنا، بسهولة، رجلًا عمِل لديهما خادمًا، وتذكَّر سفرهما في رحلة الصيد، لم يعودا أبدًا، إلى جيرمين ستريت، على أي حال. ولم ترِد أيُّ أخبارٍ عنهما في أماكنهما القديمة في تلك المنطقة منذ ذلك الوقت. وعندما اكتشفنا كلَّ ذلك، جئنا إلى هنا مباشرةً، الليلة الماضية، إلى الشرطة، وهذا كل شيء، يا سيد ليندسي. وبالطبع، الأمر واضح لي، ربما مات جيلبرت أثناء وجوده برفقة هذا الرجل الذي استحوذ على خطاباته وأوراقه وما إلى ذلك، وبمرور الوقت، عندما سمع بما كانت عليه الأمور، وعندما سنحت الفرصة، قدَّم نفسه لمحامي الأسرة بصفته جيلبرت كارستيرز. هل يُوجَد تفسير أكثر وضوحًا من هذا؟»

صاح السيد ليندسي: «كلَّا!» وتابع: «إنها قضية مؤكدة، وبسيطة عندما تراها في ضوء معرفتك؛ قضية انتحال شخصية. لكني أتساءل ما العلاقة بين قضية جيلفرثويت وفيليبس وبين ميكين هذا، إن كان بإمكاننا استيضاحها؟»

قال السيد إلفينستون: «هل أُوضِّح لك نظريتي؟» وتابع: «لقد قرأتُ كلَّ ما ورد في الصحف، بالطبع، وأخبرني موراي بالكثير في الليلة الماضية قبل أن نأتي إليك، وأنت ذكرت اكتشاف السيد ريدلي، حسنًا، إذن، ليس لدي أدنى شك في أن هذا السيد الشاب هو ابن مايكل كارستيرز، ومن ثم هو المالك الحقيقي للَّقب والأراضي! وسأُخبرك كيف أُفسِّر الأمر برمَّته. إن مايكل كارستيرز، حسبما أتذكَّره، ورأيتُه كثيرًا وهو فتًى وشاب، كان ما يمكن أن تدعوه راديكاليًّا عنيفًا في أفكاره. كان شابًّا غريب الأطوار، قاسيًا في بعض

النواحي، ولطيفًا للغاية في أخرى. كان لدَيه اعتراض غير عادي على الألقاب، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، كان يرى أنه يجب على كل رجلٍ أن يصنع نفسه، إذا ما أُتيحت له الفرصة. الآن، رأيي هو أنه عندما تزوَّج سرًّا من فتاةٍ كانت أدنى منه كثيرًا في المكانة الاجتماعية، هاجر إلى أمريكا، عازمًا على وضع مبادئه موضعَ التطبيق. من الواضح أنه أراد ألا يدين ابنه بأي شيءٍ لمكان مَولده؛ وعلى الرغم من أنه قدَّم له بالتأكيد دعمًا وافرًا وسخيًّا، ومنحه بدايةً جيدة، فقد أراده أن يُقرِّر طريقةَ حياته ويصنع ثروته بنفسه. ذلك يفسِّر طريقة تنشئة السيد جافين سميتون. أما بخصوص السر فدَعْني أوضح لك. من الواضح أن مايكل كارستيرز كان شخصًا مُحبًّا للتجوال صادف بعض الأشخاص غريبي الأطوار، وكان جيلفرثويت أحدهم، وفيليبس، أيًّا كان، واحدًا آخر. من الواضح جدًّا، مما سمعته منك، أن الرجال الثلاثة كانوا شركاء في وقتٍ ما. وربما، وهو الأرجح، أنه في لحظةِ ثقة، كشف مايكل سرَّه لهذَين الاثنَين، وعندما مات قرَّرا إجراء المزيد من التحريات حول الأمر، ربما لابتزاز الرجل الذي كان قد تقدَّم واستحوذ على اللقب، والذي اعتقدا على الأرجح أنه السير جيلبرت كارستيرز الحقيقي. دعْني أصوغ لك الأمرَ على هذا النحو: بمجرد عثورهما على الدليل المُوثَّق الذي أراداه، وتفاصيل زواج مايكل، وما إلى ذلك، لم يكن عليهما سوى الذهاب إلى السير جيلبرت، حيث ظنًّا أنه كذلك، ويُخبرانه أنه إن لم يدفع لهما ثَمن صمتهما، فسيكشفان الحقيقة لابن أخيه، الذي من الواضح أنهما كانا قد عرفا بالفعل أنه السيد جافين سميتون. ولكن فيما يتعلَّق بقتل فيليبس ... أه، هذا في رأيي لُغز من المستبعَد حلُّه! والاحتمال المُرجَّح هو أنه جرى ترتيب لقاء مع السير جيلبرت، وهو ما يعني، بالطبع، مع ميكين، في تلك الليلة، وأن فيليبس قُتِلَ على يده. أما بشأن كرون، ففي رأيي أن مقتل كرون نتج عن جشع وحماقة كرون؛ من المُحتمَل أنه شاهد ميكين في غفلةٍ من الأخير، وأخبره بما عرفه، ودفع حياته ثمنًا لذلك.»

قال السيد جافين سميتون: «ثمة نظرية مُحتملة أخرى حول مقتل فيليبس.» وتابع: «وفقًا لما تعرفه، يا سيد إلفينستون، فإن ميكين هذا رجل سافر كثيرًا إلى الخارج، وكذلك فيليبس. كيف لنا أن نعرف أنه عندما التقى ميكين وفيليبس في تلك الليلة، لم يتعرَّف فيليبس على هوية ميكين الحقيقية؛ وتبعًا لذلك كان لدى ميكين حافز مزدوج لقتله؟»

صاح السيد ليندسي: «أحسنت!» ثم أضاف: «نظرية رائعة! ومِن المُحتمَل أن تكون النظرية الصحيحة. ولكن»، تابع، وهو ينهض ويتوجَّه نحو الباب، «كل النظريات في العالَم لن تساعدنا في القبض على ميكين، وسأذهب لأرى إن كان موراي قد استنتج أيَّ شيءٍ من بحثه واستجوابه.»

لم يكن موراي قد توصَّل إلى أي شيء. لم يكن يُوجَد أيُّ شيء في الغرف الخاصة بالسير جيلبرت كارستيرز المزعوم وزوجته يُشير إلى أيِّ دليلٍ على مكان وجودهما؛ ولم يكن بإمكان الخَدَم قول أي شيء عن تحركاتهما بخلافِ ما كانت الشرطة تعرفه بالفعل. لم يكن أيٌّ منهم قد رأى السير جيلبرت مُطلقًا منذ صباح اليوم الذي ذهب فيه إلى بيرويك لحضورِ جلسة مُحاكمة كارتر، ولم تُشاهَد الليدي كارستيرز منذ مغادرتها المنزل سرًّا، بعد ذلك بيومين. لم يستطِع أيٌّ من الخَدَم العديدين، رجالًا أو نساءً، أن يقول أيَّ شيءٍ عن سيدهم أو سيدتهم، ولا عن أي أفعالٍ مشبوهة من جانب هولينز خلال اليومَين الماضِيَين، باستثناء أنه كان يُغادر المنزل كثيرًا. وأيًّا كان دور كبير الخَدَم في هذه الأحداث الأخيرة، فقد لعبه بمهارة.

لذلك، كما بدا، لم يكن يُوجَد ما يمكن فعْله سوى استكمال البحث في مكانٍ آخر؛ إذ كان انطباع الشرطة أن ميكين قد هرب في اتجاه وزوجته في اتجاه آخر، وأن خُطتهما كانت أن يلقاهما هولينز في مكانٍ ما خارج البلاد في أوروبا؛ وبعد قليل، غادرْنا جميعًا هاثركلو هاوس للعودة إلى بيرويك. وعندما تجاوزنا عتبة الباب، التفت السيد ليندسي إلى السيد جافين سميتون بابتسامةٍ ذكية.

وقال: «في المرة القادمة التي ستخطو فيها هنا، يا سيدي، ستكون عندئذٍ السير جافين كارستيرز!» ثم أضاف: «ونأمُل ألا يتأخَّر ذلك طويلًا!»

أجاب المالك المُستقبلي: «أخشى أنه يُوجَد الكثير ممَّا يتعيَّن فعْله قبل أن ترى ذلك، يا سيد ليندسي.» ثم أضاف: «نحن لم نتجاوز المرحلة العصيبة بعدُ، كما تعلم.»

من المؤكَّد أننا لم نتجاوز المرحلة العصيبة، وعلى حدٍّ علمي، ربما كانت تلك الكلمات الأخيرة تحمل نبوءة، مثلما، بعد ذلك بقليل، كنتُ أميل إلى الظن في أن كلمات مايسي كانت كذلك قبل أن تغادر في السيارة. أما البقية، السيد ليندسي ومجموعته، وموراي ورفاقه، فقد قدِموا من بيرويك في أول وسيلةِ نقلٍ تمكَّنوا من أن يجدوها في ذلك الوقت من الليل، وغادروا الآن إلى حيث كانوا ينتظرون في سقيفةٍ مجاورة. وقد أرادوا منِّي أن أُرافقهم، لكنني كنتُ قلقًا بشأن دراجتي، التي كانت آلةً جديدة تقريبًا. كنتُ قد خبأتُها بعيدًا في أمانٍ قدرَ استطاعتي تحت بعض الشجيرات الكثيفة على حافة الغابة، لكن هطول الأمطار كانٍ غزيرًا وعرفت أنها لا بدَّ أن تكون غارقة الآن وسط أوراق الشجر، وقد علاها الكثير من الصدأ الذي يجب تلميعه، ناهيك عن مقعدها المُشبع بالماء. لذلك ذهبتُ عبر الحديقة

إلى حيث تركتها، وتوجَّه الآخرون إلى بيرويك، وهكذا أخلفنا أنا والسيد ليندسي وعدنا لمايسي. وذلك لأنني الآن كنتُ وحدي، وبالتأكيد لم أكن أتوقَّع المزيد من الخطر.

لكن ليس الخطر فقط، وإنما التهديد بالموت كان يكتنفني وأنا أسير في طريقي. كنَّا قد بقِينا بعض الوقت في هاثركلو هاوس، وكان الفجر قد طلع قبل مُغادرتنا. أقبل الصباح صافيًا ومشرقًا بعد العاصفة، وكانت الشمس التي أشرقت للتو، وكانت الساعة الرابعة بالضبط، والشمس فوق الأفق، تُحوِّل قطرات المطر المُتجمعة على التنوب والصنوبر إلى ماساتٍ متلألئة بينما كنتُ أدخل لأعماق الغابة. لم يكن لديَّ أيُّ تفكيرٍ آخر في تلك اللحظة سوى العودة إلى المنزل وتغيير ملابسي قبل الذهاب إلى منزل أندرو دنلوب لإبلاغ الأخبار، وبينما كنتُ أعبر شقًّا ضيقًا عبر الشجيرات، رأيت، على مسافةٍ بعيدة نوعًا ما، رأسَ رجل ينظر ببطء من بين الأشجار. فتراجعت على الفور، ورحتُ أُراقب. لحُسن الحظ، أو لسوء الحظ، لم يكن ينظر في اتجاهي، ولم يلمحني ولو للحظة، وعندما لوى رقبته في اتجاهي أدركتُ أنه الرجل الذي كنا نتحدَّث عنه، والذي كنتُ أعرف الآن أنه الطبيب ميكين. وخطر لي على الفور أنه كان في الجوار يترقَّب وصول هولينز، ولا يدري أن هولينز كان جثَّةً هامدةً هناك في البرج العتيق.

إذن، لم يكن هو الذي غرس ذلك السكين القاتل في حلق هولينز!

راقبتُه، وأنا مُختبئ في مأمن. خرج من مَخبئه، وتجاوز الشق، ومرَّ عبر حزام الشجر الذي كنتُ قد مررتُ به للتو، ونظر عبر الحديقة نحو المنزل؛ كل هذا رأيته بالمشي بحذرٍ عبر الأشجار والشجيرات خلفي. كان على بُعد أربعين ياردة مني في ذلك الوقت، ولكن كان بوسعي أن أرى التعبير المُتوتر، والقَلِق على وجهه. كانت مُجريات الأمور قد سلكت مسلكًا سيئًا؛ فلم يُقابله هولينز والسيارة حيث كان يتوقعهما، وكان يحاول معرفةَ ما حدث. وأتى مرةً بحركةٍ كما لو كان سيلتفُّ حول الأشجار ويتَّجه نحو البرج، الذي كان يقع في الجهة المُقابلة تمامًا، ولكن مع وجود مساحة مفتوحة بيننا وبينه، ثم تراجع فجأة، وبدأ في المُضي بعيدًا وسط الأشجار.

تبعته بحذرٍ. كنتُ دومًا فخورًا بعض الشيءٍ بما أسميته مهارة الاختباء في الغابة؛ إذ لعبتُ كثيرًا لعبة الهنود الحمر عندما كنتُ صغيرًا، وحرصتُ على المشي بخفَّة وأنا أتبعه من مجموعة أشجارٍ إلى أخرى. أخذ يسير ويسير، لمسافة طويلة، بعيدًا عن هاثركلو، وفي اتجاه موقع التقاء نهر تيل مع نهر تويد. وأخيرًا أصبح خارج أراضي هاثركلو، وقريبًا من نهر تيل، وفي النهاية اتَّجه نحو حزامٍ رفيع من الأشجار على جانب نهر تيل، بالقُرب

من المكان الذي عُثِرَ فيه على جثة كرون، وفي مقابل البقعة ذاتها تقريبًا، على الضفة الأخرى، التي عثرتُ فيها على فيليبس ميتًا؛ وفجأة رأيتُ ما كان يبحث عنه. هناك، أمامنا مباشرة، كان يُوجَد قارب قديم، مربوط بالضفة، وكان يسعى إلى الوصول إليه، ينوي بلا شك وضع نفسه في موضع التقاء النهرين، للوصول إلى الضفة الشمالية لنهر تويد، ومن ثم الهرب بأمان إلى أماكن أخرى.

وهنا ساءت الأمور. كنتُ أتبعه بحذَر، من شجرة إلى شجرة، بالقُرب من ضفة النهر، عندما علقت قدمي في شجيرة من التوت الأسود الأرضي، ووقعتُ على شجيرات الغابة. وقبل أن أقف على قدميَّ، كان قد استدار وجاء يعدو نحوي، ووجهه شاحِب من الغضب والانزعاج، ويحمل مُسدسًا في يده. وعندما رأى هوية مَن يتبعه، صوَّب مُسدسه بكامل طول ذراعه نحوي.

قال، وهو يتوقف بثبات: «تراجع!»

قلت: «كلَّا!»

قال: «إن تقدَّمتَ ياردةً أخرى، يا مونيلوز، سأُرديك قتيلًا!» وأضاف: «أنا أعني ما أقول! تراجع!»

أجبت، وأنا ألزم مكاني: «لن أقترب قَدمًا آخر.» وتابعت: «لكنني لن أتراجع. وكلما تحرَّكت أنت للأمام، سأتبعك. لن أدعك تغيب عن ناظريَّ مرةً أخرى، يا سيد ميكين!»

انتفض قليلًا عند سماع ذلك، ثم بدأ ينظر إلى جميع الاتجاهات من حولي، كما لو كان يريد أن يكتشفَ ما إذا كنتُ بصحبة أحد. وفجأة ألقى عليَّ سؤالًا.

«أين هولينز؟» وتابع: «أنا مُتيقن من أنك تعلم!»

أجبته: «مات!» وتابعت: «مات، يا سيد ميكين! مثل فيليبس، أو مثل أبيل كرون. ورجال الشرطة يلاحقونك، وهم حولك في كل مكان، ومن الأفضل لك أن تقذف هذا الشيء في نهر تيل هناك وتأتي معي. لن تهرب منِّي الآن بسهولةٍ كما فعلت في تلك المرة على يختك.»

عندئذٍ أطلق النار عليَّ، من مسافة اثنتي عشرة أو خمس عشرة ياردة. ولا أعرف إن كان قصد قتلي، أو إعاقتي فقط؛ لكن الرصاصة اخترقت ركبتي اليسرى، عند الحافة السفلية لرضفة الركبة، والشيء التالي الذي عرفته أنني وقعتُ على الأرض على أربع، والشيء التالي، وكان في الثانية التالية، قبل حتى أن أشعر بألم، أنني كنتُ أحدِّق لأعلى وأنا في ذلك الوضع لأرى الانتقام الذي هبط على مَن حاول قتلي في اللحظة ذاتها من

محاولته هذه. لأنه ما إن أطلق النار عليَّ وسقطتُ، حتى قفزتِ امرأة من بين الشجيرات إلى جانبه، والتمع سكينٌ في الهواء، ثم وقع هو أيضًا على الأرض مع صيحة يتمزج فيها الأنين بالصراخ، ورأيت أن مُهاجِمَته هي الأيرلندية نانسي ماجواير، وعرفت على الفور مَن الذي قتل هولينز.

لكنها لم تقتل ميكين. إذ نهض مثل كائنٍ مُصاب بجروح خطيرة — حاول النهوض، مثلما رأيت حيواناتٍ عاجزة عن الحركة تنهض، وصرخ مثل وحشٍ في فخ، وهو يُقاتل بيدَيه. فضربتْه المرأة مرة أخرى بالسكين، ووقع مُجددًا، ثم نهض مرةً أخرى، و... أغمضت عينيَّ، وأنا في غاية الرعب، وهي تغرس فيه السكين للمرة الثالثة.

لكن ذلك لم يكن شيئًا مقارنةً بالرُّعب الذي أعقب ذلك. فعندما نظرتُ مرةً أخرى، كان لا يزال يتلوَّى ويصرخ، ويقاتل بشكلٍ أعمى من أجل حياته، فناديتُ عليها لتتركه وشأنه، لأنني أدركتُ أنه سيموت في غضون دقائق معدودة. بلغ بي الأمر أنني بذلتُ مجهودًا للزحف نحوهما، لعلِّي أجرُّها بعيدًا عنه، لكن ركبتي عجزت عن الحركة وعاودت السقوط على ظهري في شِبه إغماءة. ودون أن تُعيرَني أيَّ انتباهٍ كما لو كنتُ أحد الجذوع والحجارة القريبة، أَمسَكَته فجأة، وهو يتلوَّى، من رقبته، وسحبته عبر الضفة بسهولةٍ كما لو كان طفلًا في قبضتها، وتوغَّلت في مياه نهر تيل حتى رُكبتَيها وأبقته تحت الماء حتى غرق.

اجتاحني رُعب غير عادي وأنا مُستلقٍ هناك، عاجزًا عن الحركة، مُستندًا على مرفقي، أُشاهد. التروي والعزم الذي أنهت به المرأة عملها، والصمت المُطبِق من حولنا، الذي لم يقطعه سوى صوتٍ خافت مُتتابع لارتطام مياه النهر بضفته، ومعرفة أن هذا كان عملًا انتقاميًّا، كل هذه الأشياء أنتجت حالةً ذهنية في داخلي كانت أقرب إلى تصوُّري للفظاعة مما تصوَّرتُ على الإطلاق. كان بإمكاني فقط الاستلقاء والمشاهدة، مذهولًا. لكن الأمر قد انتهى أخيرًا، وتَركت الجثة، ووقفَت تُراقبها للحظةٍ وهي تطفو في بِركةٍ مُظلمة أسفل شجيرات الماء؛ ثم، وهي تنفض الماء عنها كالكلب، صعدت إلى الضفة ونظرت نحوي، في صمت.

قلت بصعوبة: «ذلك كان ... انتقامًا لكرون.»

أجابت بصوتٍ حاد غريب: «هما مَن قتلا كرون.» ثم أضافت: «دعِ الشرطة تجده في المكان الذي عثروا فيه على كرون! إن إصابتك ليست بليغة، وثمة شخصٌ ما يقترب.»

ثم فجأة استدارتْ واختفت بين الأشجار، ومُستديرًا نحو الاتجاه الذي أشارت إليه، رأيتُ أحد مُراقبي الصيد غير القانوني قادمًا. كان قد ألقى بندقيته بلا عنايةٍ على ثنية ذراعه، وهو يصفر، بمرحٍ ولا مُبالاة.

لديَّ تَذكار دائم لذلك الصباح في رُكبتي المعاقة نوعًا ما. وذات مرة، منذ عامَين، عندما كنتُ في شأنٍ ما في بلدة إنجليزية مُعينة، وفي منطقةٍ فيها لا يتوغَّل فيها سوى عددٍ قليل من قاطنيها، التقيتُ للحظةٍ واحدة، في أحد أركان حيٍّ فقير، بامرأة أيرلندية نحيلة رائعة لاحظَت عرجي الخفيف، وأدارت عينَيها للحظةٍ بنظرة حادَّة فمنحتُها أنا أيضًا نظرةً حادة مُماثلة. وربما كان ثمة تفاهُم وتعاطف مُتبادل في تلك النظرة، وبالتأكيد، بعد أن انتهى تبادل تلك النظرات فيما بيننا، سار كلٌّ منَّا في طريقٍ منفصِل، صامتًا.



هنـــداوي